

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ
١١

وَعَنْكَ الْقُرْآنُ

بِالْتَّمَكِينِ لِلْإِسْلَامِ

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار الفقه
دمشق



المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

أما بعد :

فإنَّ أوضاع المسلمين في هذا الزمانِ عجيبةٌ غريبة، وهم يعيشون حياةَ خاصّةٍ شاذّة، لا يُقاسُ عليها، ولا تُقاسُ على غيرها، ولم يسبق أن عاشها المسلمون السابقون في مختلفِ فتراتِ تاريخهم.

ابتعد كثيرٌ من المسلمين عن إسلامهم، بنسبٍ متفاوتة، وخرج بعضهم عن الإسلام خروجاَ صريحاً، وعاش بعضهم (ازدواجية) عجيبة، بين الفكر والسلوك، والإيمان والعمل، تناقضوا فيها بين ما هو في تصوّراتهم وأفكارهم، وبين ما هو في تصرّفاتهم وأعمالهم، وانطبق عليهم في هذا الجانب قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف : ٢ - ٣].

ونتج عن هذه الحالةِ المَرَضِيَّةِ ظهورُ أجيالٍ جديدةٍ من أبناء المسلمين، ليس لها من الإسلام إلاّ الأسماء التي تسمّوا بها، وإلاّ بعضُ المشاعرِ والعواطفِ القلبية، وبعضُ الأفكارِ العقلية، وبعضُ الممارساتِ الإسلامية في المناسبات.

وهذا لا ينفي وجودَ أفرادٍ مؤمنين صالحين، رجالاً ونساءً، في كلِّ قطر أو مدينةٍ أو بلدةٍ من بلادِ المسلمين، ومختلفِ بلادِ العالم. ومن وجودِ دعواتٍ وحركاتٍ وتنظيماتٍ إسلامية هنا وهناك، تعملُ على توعية المسلمين وتبصيرهم، وإعادتهم إلى دينهم.. وأحدثت هذه الحركاتُ (صحوةً) إسلاميةً مباركة، تمثّلت في عدّة ظواهرٍ ومظاهر، علمية وعملية، في بلاد المسلمين..

لكنَّ أنصارَ هذه الصَّحوة ما زالوا قلائلَ في مجتمعاتهم، وما زالوا (غرباء) بين أهليهم، يعيشون غربتهم القاسية بصبرٍ وثباتٍ، واحتسابٍ وتوكُّلٍ على الله! .

ونجحَ الأعداءُ في هذا الزمان، في إبعادِ الإسلامِ عن الوجودِ الفعليِّ الحيِّ المؤثِّرِ في حياةِ المسلمين، وإقصائه عن مجتمعاتهم وتشريعاتهم، وحياتهم العامة؛ السياسية والاجتماعية، والاقتصادية والأخلاقية، والتربوية والإعلامية، والفنية والداخلية والخارجية. وكانت البدايةُ في القضاءِ على الخلافةِ في الربعِ الأولِ من القرنِ العشرين، ثم توالى المشكلاتُ المتلاحقةُ على المسلمين.

وصاحبَ ابتعادُ كثيرٍ من المسلمين عن إسلامهم (حروباً) عالمية، شَنَّها أعداءُ الأمةِ على إسلامها، منذُ مطلعِ القرنِ العشرين المنصرم، حيثُ قامَ الأعداءُ الإنكليزُ والفرنسيون، والإسبانُ والطيَّان، والهولنديون والبلجيكيون، والروس والصينيون، في احتلالٍ واستعمارٍ مختلفٍ بلادِ المسلمين. . وأعطى هؤلاء الأعداءُ الأرضَ المقدَّسةَ (فلسطين) وطناً قومياً لليهود.

وقُبيلَ منتصفِ القرنِ العشرين أقامَ اليهودُ دولتهم على الأرضِ المقدَّسةَ فلسطين، ووسطَ الدعمِ المتتابعِ من الأعداءِ لليهود، والتراجعِ المتتابعِ من العربِ والمسلمين، أتمَّ اليهودُ احتلالَ فلسطينَ كُلِّها، وأجزاءً من دولٍ عربيةٍ أُخرى عام ١٩٦٧م.

وبدلاً أن يحاربَ العربُ الغاصبين اليهود، ويُحرِّروا الأرضَ المقدَّسةَ منهم، عقدوا معهم اتفاقيات، سَمَّوها (اتفاقيات سلام)، تمكَّنَ اليهودُ بسببها من الانتشارِ، والاستعمارِ الاقتصادي والفكري، والأخلاقي والإعلامي، والفني والسياسي، في بلاد المسلمين.

واستمرَّت الحربُ الصليبيَّةُ التلموديةُ ضدَّ المسلمين، واتخذت لها عدَّةَ مظاهرٍ وجوانبٍ، وصورٍ ونماذجٍ! .

وشهدت بدايةَ القرنِ الحادي والعشرين تصعيداً خطيراً في هذه الحرب، من قِبَلِ اليهودِ والصليبيين، قامَ فيها اليهودُ بتصعيدِ العدوانِ على أهلِ فلسطين وغيرهم، وقامَ فيها الأمريكان بتصعيدِ العدوانِ على بلاد المسلمين، واحتلالِ أفغانستان والعراق. . .

وفتح كثيرٌ من المسلمين عيونهم على الخطرِ اليهوديِّ الصليبيِّ المدمرِ، وازدادوا بصيرةً به، وحذراً منه، وانحازوا إلى إسلامهم، وصَمَّموا على مواجهة الأعداء، ورفع راية الإسلام، وصبروا على الأذى الذي صبَّه الأعداءُ عليهم، وجاهدوهم جهاداً مبروراً، متشعب الميادين والمجالات والجوانب! .

و(فَزَعَ) هؤلاء المؤمنون الثابتون إلى إسلامهم، يأخذون منه المدد والزاد، والعلمَ والوعي، والبصيرةَ والمعرفة، ولجؤوا إلى الله، متوكِّلين عليه، مجاهدين في سبيله، محتسبين كلَّ ما يصيبُهم عنده، طالبين منه التوفيقَ والسَّداد، والتَّشيتَ والرَّشاد، والأجرَ والثواب.

وأمامَ عنفٍ وشدةٍ وقسوةِ الحربِ اليهوديةِ الصليبية، ضعفتْ هممُ وعزائمُ بعضِ المسلمين، وأُصيبوا في آمالهم وتطلُّعاتهم ورؤاهم، وتَدَسَّسَ اليأسُ والإحباطُ إليهم، وفقدوا النظرةَ المستقبليةَ الآملةَ الواعدة، وذهبوا إلى أنها القاصمةُ القاضية، التي أُصيبَ بها المسلمون على أيدي اليهود والصليبيين، وأنها هي النهايةُ في مسلسلِ المواجهةِ بين الحقِّ والباطل، والإيمان والكفر، وأنه كُتِبَ في خاتمةِ هذا المسلسلِ للكفار السيطرةُ والهيمنةُ الدائمةُ على بلاد المسلمين! وأنَّ هذه هي نهايةُ الدنيا، وأنَّ الساعةَ أصبحتْ وشيكةً!! .

وهذه حالةٌ مَرَضِيَّة، يُعاني منها هؤلاء المسلمون المصابون في آمالهم وتطلُّعاتهم، وتعارضُ مع حقائقِ الإسلامِ الثابتةِ الواعدة، الصادقةِ الآملة، المبشِّرة، التي تُقدِّمُ (وعوداً) واثقةً قاطعة، بالمستقبلِ المشرقِ للإسلام! .

وقد أصدرَ العلماءُ والباحثون المعاصرون بعضَ الدراساتِ الإسلامية، وقدَّموا فيها ما وقفوا عليه، وما هداهم اللهُ إليه، من هذه الوعودِ الإسلاميةِ الصادقة، ودَعَوْا المسلمينَ إلى الثقةِ واليقينِ بها، والعملِ المتواصلِ لتحقيقها.

ومن الكتبِ التي شكَّلتِ البداياتِ الأولى في هذا الجانبِ كتاب: (المستقبل لهذا الدين) للمفكر الإسلاميِّ الرائد الشهيد سيد قطب، الذي أصدره قبلَ حوالي خمسين عاماً. ومنها كتاب: (الإسلام ومستقبل البشرية) للعالمِ المجاهدِ الشهيد الدكتور عبد الله عزام. ومنها كتاب: (المبشَّرات بانتصار الإسلام) للفقهِ الداعية الدكتور يوسف القرضاوي.

وساهمَ المسلمون المهتدون في الغرب، الذين بحثوا عن الحقيقة، فاهتدوا إلى الإسلام، وجعلوه ديناً لهم، في دراساتهم الناقدة للحضارة الغربية، التي هي على وشك الأفول والغياب، واعتبروا الإسلام هو (الدين العالمي) القادم، وأنَّ له مهمةً عظيمة، ينتظرُ العالمُ الغربيُّ المعذَّبُ منه أنْ يؤدِّيها.

ومن الدراساتِ المترجمة إلى اللغة العربية كتاب (وعود الإسلام) للمفكر المهتدي (رجاء جارودي)، و(الإسلام كبديل) للمفكر الألماني المهتدي (مراد هوفمان). وقد كتَبَ المفكران الباحثان الكتَّابَين وفقَ نظرتيهما للإسلام، التي قد يكونُ لنا عليها بعضُ الملاحظات والتحفظات، والتي قد تحتاجُ إلى مزيدٍ من المراجعة والبحث والتحليل. لكنَّهما كتابان مفيدان، يستفيدُ منهما المسلمُ المعاصر كثيراً، بشرطِ استصحابه لهذه الملاحظة التحذيرية الإرشادية!

وإنَّ آياتِ القرآنِ تضمَّنَتْ (وعوداً) عديدة، وَعَدَها اللهُ عباده المؤمنين الصادقين، وبَشَّرَهم فيها بانتصارِ الإسلام، والتمكينِ له في الأرضِ، وإظهارِهِ على الأديانِ كُلِّها، وإزهاقِ الحقِّ للباطل، وهزيمةِ الكفرِ وأهله.

وقد يغفلُ بعضُ المسلمين المعاصرين عن هذه (الوعودِ القرآنية) الصادقة، في زحمةِ تعرُّضهم للهجمة اليهودية الصليبية الحالية، وبذلك قد تندسُّ إليهم بعضُ مشاعرِ اليأسِ والإحباطِ والقنوط.

لذلك دعت الحاجةُ الميدانيةُ الواقعيةُ إلى تقديم هذه الوعودِ القرآنية الصادقة، للمسلمين المواجهين لأعداءِ الله، ليتعرَّفوا على قرآنهم العظيم، ويزدادوا إقبالاً عليه، واستمساكاً به، وتطبيقاً لأحكامِهِ، وتصديقاً بوعوده، وتصميماً على مواجهة أعدائه، ليقَرَّبوا هذه الوعودَ القاطعة، ويعمَلوا على تحقُّقِها وإيجادِها في عالمِ الواقع..

ولأجل ذلك أَعَدَدْنَا هذا الكتاب، الذي هو الحلقةُ الحادية عشرة، من سلسلتنا القرآنية: (من كنوزِ القرآن).

خصَّصْنَا هذا الكتابَ للحديثِ عن: (وعودِ القرآنِ بالتمكينِ للإسلام)، لأنَّ اللهَ أكملَ لنا ديننا، وأتمَّ علينا نعمته، ورضيَ لنا الإسلامَ ديناً، وجعله الدينَ الوحيدَ المقبولَ عنده، ونسخَ به الأديانَ السابقة، وَعَدَ أنْ ينصره وينشره، ويمكنَ له في الأرضِ، ويظهره على الأديانِ كُلِّها..

ولكنَّ طريقَ الإسلام صعبةٌ شاقة، وليست سهلةً مفروشةً بالورود، لأنه يواجهُ الهجمةَ الشرسة من أعدائه الكثيرين، على اختلافِ أديانهم، ولكنه يخرجُ منها ظافراً منصوراً، بإذنِ الله.

جعلتُ الكتابَ أقساماً ثلاثة:

القسمُ الأول: بينَ يدي الوعودِ القرآنية:

جعلتهُ تمهيداً للحديثِ عن وعودِ القرآن، وأساساً ننطلقُ منه للنظرِ إلى تلك الوعود، والتعاملِ معها، وتحدثُ فيه عن المباحثِ التالية:

- ١ - إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .
- ٢ - مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا؟ .
- ٣ - بين الوعدِ الحق والوعدِ الباطل .
- ٤ - الموقفُ من وعدِ الله : بين تصديقِ المؤمنين وتكذيبِ المنافقين .
- ٥ - وجوبُ الثقةِ المطلقةِ بالنصِّ القرآني .
- ٦ - تحققُ الأخبارِ المستقبليةِ في القرآن .
- ٧ - استمرارُ المواجهةِ بين المسلمين والكافرين .
- ٨ - القرآنُ يبشِّرُ المؤمنين الصالحين .

القسم الثاني: الوعودُ القرآنيةُ في السورِ المكية:

تحدثُ فيه عن أشهرِ الوعودِ القرآنيةِ في عشرِ سورٍ مكية، مرتبةً حسبَ ترتيبِ المصحف، وهي سور: الأنعام، والأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والإسراء، والأنبياء، والروم، والقمر.

القسم الثالث: الوعودُ القرآنيةُ في السورِ المدنية:

تحدثُ فيه عن أشهرِ الوعودِ القرآنيةِ في اثنتي عشرة سورة مدنية، مرتبةً حسبَ ترتيبِ المصحف، وهي سور: البقرة، وآل عمران، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، ومحمد، والفتح، والمجادلة، والحشر، والصف.

وختمتُ الكتاب بخاتمة، أشرتُ فيها إلى بعضِ عودِ رسولِ الله ﷺ
المبشرة بانتصارِ الإسلام، وإلى تحقُّقها في حياة أصحابه عند جهادهم وفتوحهم
البلاد، ذكرتُ وعدَ الرسولِ ﷺ إلى خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ، وإلى سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ،
وإلى عَدِيِّ بْنِ حَاتِمِ الطَّائِي، رضي الله عنهم.

وأُقَدِّمُ هذا الكتابَ إلى المسلمين الصادقين، ليزدادوا ثقةً بتحقيقِ هذه
الوعودِ القرآنيةِ الصادقة، وليستشرفوا المستقبلَ المشرقَ للإسلام، وليتحركوا
بهذا الدين، وليعملوا على تقريبِ تحقيقِ هذه الوعود.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

السبت ١٩/٥/١٤٢٤ هـ

٢٠٠٣/٧/١٩ م

الدكتور

صلاح عبدالفتاح الحادي

القِسْمُ الْأَوَّلُ
بين يديّ الوعود لقرآنيت

الفصل الأول

إِنَّا لَنُخْلِِفُ الْمِيعَادَ

اللهُ العَظِيمُ القَادِرُ، له صفاتُ الكَمَالِ والجلالِ والعَظَمَةِ، وهو منزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ أو ضعفٍ أو عجزٍ . . وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لا رادَّ لأمرِهِ، ولا مبدِّلٌ لكلماتِهِ، ولا مُبْطِلٌ لقضائِهِ، ما شاء كان، وما لم يشأْ لم يكن . . لا يُعْجزُهُ شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ولا تقفُ أمامه قوَّةٌ، مهما كبرتْ وعظمتْ .

إذا أرادَ شيئاً فعَلَهُ، وإذا أمرَ بشيءٍ أنْفَذَهُ، وإذا وعدَ بشيءٍ أنْجِزَهُ، وهو الحَكِيمُ في كلِّ شيءٍ أرادَهُ وقالَهُ وفعلَهُ، القَادِرُ على كلِّ شيءٍ، العَالِمُ بكلِّ شيءٍ، الفَاعِلُ لكلِّ شيءٍ، خَلَقَ كلَّ شيءٍ بِقَدْرِهِ وقُدْرَتِهِ، وَعَلِمَ كلَّ ما كانَ وما سَيَكُونُ، وأمرُهُ بينَ الكافِ والنونِ، إذا أرادَ شيئاً فإنَّما يَقُولُ له: كنْ؛ فيكونَ .

آيات تقرر هذه الحقيقة:

هذه حقيقةٌ إيمانيةٌ، صادقةٌ قاطعةٌ، قرَّرتها آياتُ القرآنِ العديدة، ودعَّتْنا تلكَ الآياتُ إلى فقهها وتصديقها، والإيمانِ الجازمِ بها، واليقينِ القاطعِ بتحقيقها ووقوعها . . وَمَنْ شَكَّ فيها لم يُقَدِّرِ اللهُ حقَّ قدره، ولم يؤمنْ باللهِ حقَّ الإيمانِ، ولم يعرفه حقَّ المعرفة، وبذلك ييأسُ من رَوْحِ الله، ومعلومٌ أنَّه لا ييأسُ من رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون .

واللهُ لا يُخْلِفُ المِيعَادَ . وهذه حقيقةٌ قرآنيةٌ، وردَّتْ في أكثرَ من آيةٍ كريمة، ولننظرَ نظرةً سريعةً في تلكَ الآياتِ :

١ - من سورة الرعد :

قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [الرعد : ٣١] .

وردت الآيةُ في سياقِ تكذيبِ الكفارِ بالقرآن، وحرَبِهِم للحقِّ وأهلِهِ، وأخذِ اللهَ لَهُم، بعدَ إمهالٍ واستدراجٍ .

وتخبرُ الآيةُ عن استمرارِ عقابِ اللهِ للكفارِ، بسببِ جرائمِهِم وطغيانِهِم، فلا تَزَالُ تصيهُم القوارعُ، وتَنزِلُ بِهِم النوازلُ، وهذه القوارعُ والمصائبُ إمَّا أَنْ تَقَعَ على رؤوسِهِم وتدمرَ بيوتَهُم، وإمَّا أَنْ تَقَعَ في مناطقَ قَريبَةٍ من ديارِهِم، لَلْفَتِ أنظارِهِم، وإيقاظِ قلوبِهِم. . وهذه القوارعُ والنوازلُ قد تكونُ في صورةِ زلازلٍ، أو براكينٍ، أو عواصفٍ، أو فيضاناتٍ، أو حروبٍ، أو أمراضٍ، أو غير ذلك.

ستبقى هذه المصائبُ تصيهُم، وفقَ حكمةِ الله، مهما طالَ زمانُها، واتسعَ مكانُها، حتى يَأْتِيَ وَعْدُ الله.

وإمَّا أَنْ يَأْتِيَ وَعْدُ الله في الدُّنيا، بتحقيقِ ما وَعَدَ به سبحانهَ عملياً، وانطباقه على أرضِ الواقعِ، وإمَّا أَنْ يَأْتِيَ يومُ القيامةِ، حيثُ تَوَعَّدُ اللهُ الكفارَ بنارِ جهنَّمَ، وسوف يَعدَّبُهُم بها بعدَ حسابِهِم في الآخرة.

وما وَعَدَ اللهُ الكفارَ به من صورِ العقابِ والعذابِ واقعٌ آتٍ متحققٌ، لأنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الميعادَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

ومعنى: ﴿لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾: لَا يَوْفِقُ مِيعَادَهُ، وَلَا يُلْغِي وَعْدَهُ، لِأَنَّهُ لَا يَعْجِزُ عن إنجازِهِ، وَلَا تَقُفُ أَيْةُ قُوَّةِ أَمَامِهِ، لأنَّ اللهَ لَا يُعْجِزُهُ أَيُّ شَيْءٍ في الأرضِ وَلَا في السماءِ.

وَلَا يُخْلِفُ الوَعْدَ إِلَّا عاجِزٌ، واللهُ لَا يُعْجِزُهُ أَيُّ شَيْءٍ. . . وَلَا يَتَخَلَّى عن وَعْدِهِ إِلَّا كاذِبٌ، واللهُ هُوَ الْأَصْدَقُ حَدِيثاً.

بعضُ الناسِ قد لَا يعرفُ حدودَ طاقتهِ، ومجالَ قدرتهِ، فَيَعِدُّ وُعوداً أَكْبَرَ من طاقتهِ ووسعِهِ، وعندما يَحِينُ موعِدُ إنجازِ الوعودِ، يعجزُ عن ذلكِ، لضعفِ قُوَّتِهِ، وتدنِّي قدرتهِ، ونقصِ ماله، وبذلكِ يُخْلِفُ الميعادَ.

ومعلومٌ أَنَّ خُلْفَ الوَعْدِ صِفَةٌ من صفاتِ المنافقينِ المذمومةِ، أمَّا المؤمنونَ فَإِنَّ أَحَدَهُم إِذَا وَعَدَ أَوْفَى، لِأَنَّهُ لَا يَعِدُّ إِلَّا بما هُوَ ضمنُ قدرتهِ.

وقد ذُكِرَ الوَعْدُ في الآيةِ مرتينِ: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

(وَعَدُ): مصدرُ الفعلِ الثلاثي: تَقُولُ: وَعَدَ، يَعِدُ، وَعْدًا.

و(ميعاد): مصدر آخر للفعل الثلاثي: تقول: وَعَدَ، ميعاداً، كما تقول: فَعَلَ، مِفعَلاً. وهو مثل: ميقات.

وفي (ميعاد) من التأكيد والتحقيق والمبالغة، أكثر مما في (وَعَدَ)، لأنَّ (ميعاد) مزيدٌ بحرّفين، وزيادةُ المبنى تدلُّ على زيادةِ المعنى!

وورود المصدرَين (وَعَدَ، وميعاد) متجاورَين، في جملتين متتابعَتين في الآية، مظهرٌ من مظاهر الإعجازِ البياني العجيب في القرآن.

٢- من سورة الحج:

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤٧) ﴿وَكَأَنِّ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٧-٤٨].

الآيتان في سياقِ المواجهةِ بين الحقِّ والباطل، سبقَتْها آياتٌ تتحدَّثُ عن مصارعِ الكافرين السابقين، وتدعو إلى الاعتبار من ما جرى لهم.

وتذكُرُ الآيتان أنَّ كفارَ قريش كانوا يستعجلونَ الرسولَ ﷺ بالعذاب، فعندما كان ﷺ يتوعَّدهم بالعقابِ والهلاك، إن استمرُّوا على كفرِهِم وتكذيبِهِم وعداوتِهِم، كانوا يُكذِّبونَ بذلك ويستبعدونه، ويسخرونَ من الرسولِ ﷺ، ويستهزؤون به.. ويستعجلونَ بالعذاب، من بابِ التكذيبِ والاستبعادِ والإنكار، ويقولون له: إن كنتَ صادقاً فيما تقول، فأتينا بما تعدُّنا به من العذاب!

ويُرَدُّ اللهُ على استعجالِهِم بأنَّه لن يُخْلِفَ وعده: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾، أي: إذا وعدَهم العذابُ أنْفذه وأنجزه، وإذا أرادَ تعذيبَهُم فعلَ ذلك، لأنَّه لا يُخْلِفُ وعده، ولا يعجزُ عن إمضائه وإيقاعه.

٣- من سورة الروم:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٤) ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٥) ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٤-٦].

وعدَّ اللهُ في سورةِ الرومِ بانتصارِ الرومِ الكتابيين على الفرسِ المشركين ،
في بضعِ سنين ، ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون بنصرِ الله .

وستحدثُ عن ذلك في مباحثِ الكتابِ القادمةِ بعونِ الله .

وأخبرَ أنَّ هذا وعدٌ قاطعٌ ماضٍ من الله ، لا يتوقَّفُ ولا يتخلَّفُ ، لأنَّ اللهَ لا
يُخلفُ وعده .

وذمَّ الكفارَ الذين لا يُصدِّقون بذلك ، ووصَفَهم بأنَّهم جاهلون ، لا يعلمون
هذه الحقيقةَ الإيمانية ، ولا يوقنون بها .

وهذا معناه : أنَّ المؤمنين عالمون ، لأنَّهم يُصدِّقون بما وعدَ الله ، ويوقنون
بتحقِّقه ووقوعه ، في مقابلِ جهلِ الكافرين المنكرين لذلك .

٤ - من سورة الزمر :

قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ (١٩) لَكِنَّ الَّذِينَ
أَنفَوُا رِبَّهْمُ لَمْ يَرْكَبُوا عُرْفًا مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّيْنَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿
[الزمر : ١٩ - ٢٠] .

تقدِّمُ الآيتان بعضَ ما توعَّدَ اللهُ به الكفار من عذابِ النارِ في الآخرة ، وبعضَ
ما وعدَ به المؤمنين المتقين من نعيمِ الجنة .

وتخبرُ أنَّ هذا وعدٌ من الله ، واقعٌ ناجز ، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد ، ولذلك
يوقن المؤمنُ بتحقيقه ووقوعه .

٥ - من سورة آل عمران :

قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ
الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ٩] .

تسجِّلُ الآيةُ دعاءَ الصالحين الراسخين في العلم ، الذي يعلنون فيه إيمانهم
باليومِ الآخر ، ويقرِّنون بأنَّ اللهَ سيجمعُ الناسَ جميعاً في يومِ القيامة ، ليحاسِبهم ،
ويعاقبَ المذنبين ، ويثيبَ الصالحين ، ويعقِّبون على ذلك بذكرِ الحقيقةِ الإيمانيةِ
من أنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد ، فيما أنه وعدَ ذلك ، فسينجزُ وعده .

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

تسجلُ الآيةُ دعاءَ أولي الألباب، الذاكرين اللهَ قِياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، والمتفكرين في خلقِ السمواتِ والأرض، والمطّيقين لشرع الله، يَرْجُونَ اللهَ أَن يُوْتِيَهُمْ مَا وَعَدَهُمْ، على ألسنةِ رسلِهِ، عليهم الصلاةُ والسلام.

لقد كَانَ كُلُّ رسولٍ - من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام - ييسرُ المؤمنين الصالحين، ويعِدُّهم حُسْنَ الثواب ونعيمَ الجنة في الآخرة، وها هم أولو الألباب يرجونَ اللهَ إِنْجَازَ وَعْدِهِ، بأن يُدْخِلَهُم الجنةَ، وَيُنْعِمَهُمْ فيها، وهم يأملون ذلك، لأنَّهم يوقنونَ أَنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الميعاد.

وندعو إلى الالتفاتِ إلى هذه اللطيفةِ من لطائفِ سورةِ آل عمران :

فالآيةُ التاسعةُ في مقدِّمةِ السورةِ تُسجِّلُ دعاءَ الراسخين في العلم، الموقنين بوعدِ الله في جمعِ الناسِ يومَ القيامة، لأنَّه لَا يُخْلِفُ الميعاد. . والآيةُ الرابعةُ والتسعون بعد المئة تُسجِّلُ دعاءَ أولي الألباب، الذين يرجونَ اللهَ إِنْجَازَ وَعْدِهِ وإدخالَهُم الجنةَ، لأنَّه لَا يُخْلِفُ الميعاد. فأولُ السورةِ يُقرِّرُ أَنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الميعاد، وآخرُها يقرِّرُ أَنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الميعاد، وتلتقي على هذه الحقيقة القاطعة بدايةُ السورةِ ونهايتها.

وكلُّ مؤمنٍ يوقنُ بهذه الحقيقة، ولا يشكُّ فيها لحظةً من حياته ! .

* * *

أصدق من الله حديثاً

يوقن المؤمن بأن الله ينجز وعده، ولا يخلف الميعاد، لأنه يوقن أنه لا أحد أصدق من الله حديثاً وقولاً.

والله هو الأصدق حديثاً. حقيقة إيمانية قاطعة، قررتها آيات عديدة من القرآن، نقف معها فيما يلي وقفة سريعة:

١- من سورة النساء:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

تبدأ الآية بتقرير توحيد الألوهية، فالله سبحانه لا إله إلا هو، ثم تقرر أن الله سيجمع الناس جميعاً يوم القيامة، وأن ذلك اليوم آت لا ريب فيه.

وبما أن الله أخبر عن مجيء ذلك اليوم، فإنه آت بدون شك أو ريب، لأن الله تعالى صادق في حديثه، ولا أحد أصدق حديثاً من الله.

وصيغت هذه الحقيقة في الآية بأسلوب الاستفهام: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا؟﴾ والاستفهام هنا تقرير، والحقيقة المقررة أنه لا أحد أصدق حديثاً من الله.

ومن السنة للمسلم أنه عندما يقرأ الآية وينطق بالاستفهام أن يجيب: لا أحد أصدق حديثاً من الله!

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وعد الله المؤمنين المتقين الذين يعملون الصالحات، أن يدخلهم جنات

تجري من تحتها الأنهار، وأن يجعلهم منعمين، خالدين فيها أبداً.

وهذا الوعدُ الإلهي حق، أي: متحققٌ واقعٌ لا محالة، مثلُ باقي وعودِ الله الحقة.

وجاءَ هذا الوعدُ المتحققُ في كلامِ الله وحديثه وقوله، وقولُ الله صادق، ولا أحدٌ أصدقُ قولاً من الله.

والاستفهامُ في الآيةِ تقريرِي، وعندما يقرؤه المؤمنُ أو يسمعه من غيره، يُجيب قائلاً: لا أحدٌ أصدقُ من الله قولاً!.

وندعو إلى الالتفاتِ إلى ورودِ الاستفهامينِ التقريريينِ في سورةِ النساءِ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا؟﴾ و﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا؟﴾.

٢- من سورة الزمر:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ وَأَوْزَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

أخبرت الآية عن ما سيقوله المؤمنون، عندما يُدخلهم الله الجنة، وينعمهم بنعيمها، حيثُ سيحمدون الله ويشكرونه، على إنجازِ وعده لهم، فقد وعدهم في الدنيا الجنةَ ونعيمها، إن استقاموا على طاعته، ونفذوا في الدنيا أحكامه، طالبين رضوانه، متطلعين إلى نيلِ موعوده.

وها هو سبحانه يصدقهم الوعد، ويدخلهم الجنةَ برحمته وفضله، وها هم يرثون الجنةَ، ويتبوّؤون منها حيث شاؤوا.

وصدق الوعدُ بمعنى تحقيقه في عالم الواقع، وإنجازه للموعودين به، فالوعدُ له صورةٌ نظريةٌ، وهي ذكره في آياتِ القرآن، وتبشيرُ المؤمنين به، وله صورةٌ عمليةٌ واقعية، وهي إنفاذه وإمضاؤه يوم القيامة، حيث يتنعم المؤمنون في الجنة.

والله يصدق وعده لأنه لا يخلف الميعاد!

٣- من سورة الأنبياء:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن

كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ [الأنبياء: ٧ - ٩].

يخبرُ اللهُ أَنَّهُ أَرْسَلَ رَسَلاً رِجَالاً، قَبْلَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، وَصَبَرُوا عَلَى مَا لاقَوْهُ مِنْ قَوْمِهِمْ، مِنْ كُفْرٍ وَتَكْذِيبٍ وَحَرْبٍ، وَقَدْ وَعَدَهُمُ اللَّهُ النُّصْرَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَلَمَّا انْتَهَتْ دَعْوَتُهُمْ مَعَ قَوْمِهِمْ، صَدَقَهُمُ اللَّهُ الْوَعْدَ، فَأَنْجَاهُمْ مَعَ أَتْبَاعِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَهْلَكَ الْأَعْدَاءَ الْكَافِرِينَ.

وَمَعْنَى ﴿صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾: أَنْجَزْنَا لَهُمْ مَا وَعَدْنَاهُمْ، فَصَدَّقَ الْوَعْدَ: تَطْبِيقُهُ، وَتَحْوِيلُهُ إِلَى وَاقِعٍ، وَنَقْلُهُ مِنْ دَائِرَةِ الْكَلَامِ النَّظَرِيِّ إِلَى حَالَةِ الْوُجُودِ الْعَمَلِيِّ.

٤ - من سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ...﴾ [آل عمران: ١٥٢].

هذه الآية في سياق الحديث عن غزوة أُحُد، التي جرى فيها ما جرى للمسلمين، حيث انتصرَ المسلمون في الجولة الأولى منها، ولما ارتكبوا مخالفتَهُمْ بحسن نية، أدبَهُمُ اللَّهُ، وَرَجَعَ الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِمْ، وَأَصَابُوا مِنْهُمْ الْقَتْلَى وَالْجُرْحَى، وَتَعَلَّمُوا مِنْ ذَلِكَ الدُّرُوسَ وَالْعِبْرَ!

يخبرُ اللهُ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ: (صَدَقَهُمْ وَعْدَهُ) وَتَفْسِيرُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فِي الْجُمْلَةِ الَّتِي تَلِيهَا مُبَاشَرَةً: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ...﴾، وَمَعْنَاهَا: إِذْ تَقْتُلُونَ الْمُشْرِكِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ.

وهذه إشارةٌ إِلَى الْجَوْلَةِ الْأُولَى مِنْ غَزْوَةِ أُحُد، الَّتِي لَمْ تَسْتَمِرَّ إِلَّا فِتْرَةً قَصِيرَةً جَدًّا، حَيْثُ قَتَلُوا مَنْ قَتَلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ أَمَامَهُمْ.

وَصَدَقَهُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ فِي هَذِهِ الْجَوْلَةِ بِأَنَّهُ سَلَّطَهُمْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَجَعَلَهُمْ يَغْلِبُونَهُمْ وَيَهْزِمُونَهُمْ، وَنَصَرَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ وَعَدَهُمُ النُّصْرَ فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ قَبْلَ غَزْوَةِ أُحُد، وَتَحَقَّقَ هَذَا الْوَعْدُ عَمَلِيًّا عَلَى أَرْضِ أُحُد، فِي الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى مِنَ الْمَعْرَكَةِ.

وسمي هذا التحققُ الْعَمَلِيُّ صَدَقًا وَتَصَدِيقًا لِلْوَعْدِ.

٥ - من سورة الأحزاب :

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

تُخْبِرُ الْآيَةُ عَنْ مَوْقِفِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَجُومِ الْكُفَّارِ عَلَيْهِمْ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ ، مِنْ الْعَرَبِ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ الْمَآكِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، فَلَمَّا رَأَوْا الْمَدِينَةَ مُحَاصَرَةً مِنْ أَحْزَابِ الْكُفْرِ ، لَمْ يُحْبِطُوا أَوْ يُرْعِبُوا ، وَإِنَّمَا قَالُوا : هَذَا مَا وَعَدَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . . وَازْدَادُوا إِيمَانًا بِاللَّهِ ، وَتَصَدَّقُوا بِكَلَامِهِ ، وَتَسْلِيمًا لِقَضَائِهِ ، وَثَبَاتًا عَلَى قِتَالِ أَعْدَائِهِ .

لَمَّا رَأَوْا أَحْزَابَ الْكَافِرِينَ ، تَذَكَّرُوا مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهُ ، حَيْثُ وَعَدَهُمْ قِتَالَ الْكُفَّارِ لَهُمْ ، وَهَجُومَهُمْ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ وَعَدَهُمُ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ ، إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ وَثَبَّتُوا فِي الْقِتَالِ ، وَكَانَ هَجُومُ الْأَحْزَابِ عَلَيْهِمْ تَصَدِيقًا مِنْ اللَّهِ لَهُمْ ، حَيْثُ تَحَوَّلَ بِهِ الْوَعْدُ مِنَ الصُّورَةِ النَّظَرِيَّةِ إِلَى الصُّورَةِ الْعَمَلِيَّةِ الْوَاقِعِيَّةِ ، وَلِذَلِكَ قَالُوا : هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ .

تَدُلُّ هَذِهِ الْآيَاتُ - وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ - عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَصْدُقُ عِبَادَهُ وَعَوْدَهُ الَّتِي يَعِدُهُمْ إِيَّاهَا ، وَهَذَا الصِّدْقُ هُوَ تَحْوِيلُ تِلْكَ الْوَعْدِ مِنْ صَوَرَتِهَا النَّظَرِيَّةِ (الْوَعْدِيَّةِ) إِلَى صَوَرَتِهَا الْعَمَلِيَّةِ التَّطْبِيقِيَّةِ الْوَاقِعِيَّةِ .

وَاللَّهُ يُفْعَلُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ هُوَ الْأَصْدَقُ حَدِيثًا ، وَالْأَصْدَقُ قَوْلًا وَوَعْدًا ، وَهُوَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

* * *

بين الوعد والحق والوعد الباطل

بما أن الله لا يخلف الميعاد، وبما أنه يصدق عباده وعده، ويُنجّز لهم، لأنه الأصدق وعداً وقولاً وحديثاً، لذلك وصف وعده بأنه الوعد الحق. أي: هو الوعد الصادق، الذي يتحقق عملياً على أرض الواقع. فالحق بمعنى الصحة والصدق والصواب، ولذلك يُنجز ويُفدّ عملياً.

آيات في وعد الله الحق:

الآيات التي وصفت وعده الله بأنه (الوعد الحق) كثيرة، منها هذه الآيات:
أولاً - قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

الآية في سياق آيات، تتحدث عن ميلاد موسى عليه السلام. فقد أوحى الله إلى أم موسى بالتصرف المناسب، لإنقاذ موسى الوليد من خطر فرعون، ووعدّها أن يرده إليها. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَأَلَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وردّ الله الوليد إلى أمه، وفق تدبيره وتقديره الحكيم سبحانه، وكان رده إليها تحقيقاً لوعدّه النظري لها. فقد قال لها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾، ولكنها لم تعرف كيف يرده الله إليها. ومن حكم رده إليها أن تقرّ عينها، وأن لا تحزن، ومن حكمه أيضاً أن تعلم أن وعده الله لها حق. أي: أن ترى تحقّقه العملي أمامها، بأن يكون ابنها معها.

ثانياً - قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥].

تربط الآية بين ملك الله لكل ما في السموات والأرض، وبين كون وعده هو الحق، وهذا الربط مقصود ومُراد، لأنه لا ينفد ما وعده إلا مَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى

ذلك، ولا يقدرُ على ذلك إلا إذا كان مالكا غنياً، قاهراً قوياً، فإن لم يكن كذلك كان عاجزاً، وعجزه يقعدُ به عن تحقيق الوعد.

والله هو المالك الغني، والقادر القوي، وملكه للسماوات والأرض مرتبط مع قدرته على تحقيق وعده.

ووعده الحق هو وعده المنجز المتحقق، المنطبق على الواقع، وفق ما وعده. والمؤمنون يوقنون بذلك، والكافرون ينكرونه، لأنهم لا يعلمون قدرة الله وقوته!.

ثالثاً - قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

أثنى الله في الآية السابقة من السورة على المؤمنين الصالحين، البارزين بالديهم، الشاكرين لربهم، وفي هذه الآية أخبر أنه سيتقبل عنهم أحسن أعمالهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويدخلهم الجنة، ويجعلهم مع أصحابها المنعمين فيها.

ثم أخبر أنه وعد هؤلاء المتقين الجنة وهم في الدنيا، ووعد حق وصدق، ولذلك ينجزه لهم، فيدخلهم برحمته جنته.

وأخبر في الآية التي بعدها مباشرة أن رجلاً كان كافراً بالله، عاقلاً لوالديه، مكذباً بوعد الله، بينما كان والداه مؤمنين بالله، موقنين بأن وعده حق. قال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمَا أَتَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَايَنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

الوالدان مؤمنان، يوقنان أن وعد الله حق، وهو ما أخبر عنه من بعث الناس يوم القيامة، وهو آتٍ لا محالة، سيتحقق فعلاً كما أخبر عنه الله.

آيات في وعد الشيطان الباطل:

في مقابل وعد الله الحق، يأتي وعد الشيطان الباطل، القائم على الغرور والخداع، والكذب والافتراء.

يعِدُّ الشيطان أوليائه الكثير من الوعود، لكنها وعود زائفة، لا تتحقق، ولا توجد في الواقع، لأن الشيطان كاذب في الوعد بها، هدفه منها هو الاستحواذ

على جنوده، وإسقاطهم وإضلالهم، ولذلك يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ ! .

والآيات التي أُخبرَتْ عن الغرورِ والخداعِ في وعدِ الشيطانِ عديدة، منها :

أولاً - قال تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ۝١١٧ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝١١٨ وَلَا أَضِلُّهُمْ وَلَا مُنِيتُهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ ؕ إِذَا نَكَرَ الْأَنفَعُ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْكَ خَلْقُ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝١١٩ يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠﴾ [النساء : ١١٧ - ١٢٠] .

بعد أن ذكرت الآيات بعض وسائل الشيطانِ في إسقاطِ أتباعه، علَّقتُ عليها بأنَّها من وعودِ الشيطانِ لهم، فهو يَعِدُّهُمْ الوعودَ البرَّاقة، وَيُمْنِيهِمْ الأمانِ الفارغة، ويُرِيهم أنَّ الخيرَ كُلَّهُ ينتظرُهم، إن استجابوا له وساروا معه .

وما يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ هو (غرورٌ) وخداعٌ، وسرابٌ لا وجودَ له . وأتباعه يعرفونَ هذا بأنفسهم، فعندما يُصَدِّقونه ويستسلمونَ له، ويُطالِبونه بتحقيقِ وعوده، يضحكُ عليهم، ويسخرُ منهم، ويعلنُ براءتَهُ منهم، وعند ذلك يعرفونَ خسارتَهُم، لكنَّ بعدَ فواتِ الأوانِ ! : ﴿ يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠﴾ ! .

ثانياً - قال تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْسِنَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٦ قَالَ أَذْهَبَ فَمَن يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَّقْشُورًا ۝٦٧ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَقَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٨ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٩﴾ [الإسراء : ٦٢ - ٦٥] .

هذه الآيات من سورة الإسراء، قريبة من معاني الآيات السابقة من سورة النساء، فهي تذكرُ بعضَ أسلحةِ الشيطانِ في إضلالِ أتباعه، وتُخبرُ أنَّ الشيطانَ يَعِدُّهُمْ الوعودَ الكبيرة، ولكنَّ هذه الوعودُ خياليةٌ خادعةٌ، لن تتحققَ، وهدفُ الشيطانِ منها خداعُ أتباعه .

أمَّا عبادُ اللهِ الصالحون فهم في أمانٍ من غرورِ الشيطانِ ووعوده، وليس له سلطانٌ عليهم، لأنهم في حفظِ الله ورعايته .

الشيطان يتخلى عن أتباعه في الدنيا:

ثالثاً - قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآءِتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

تُشِيرُ الْآيَةُ إِلَى نموذج من وعودِ الشيطانِ الخادعة، غيرِ المتحققة.. ومناسبةً نزولها ما جرى بين الشيطانِ وبين كفارِ قريش، قبيلَ خروجِهم إلى غزوة بدر.

فقد كانَ قادةُ قريش، كأبي جهل وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف، يتدارسون تجهيزَ الجيش، والخروجَ لقتالِ رسولِ الله ﷺ، ولكنهم كانوا يخافون مهاجمةَ قبائلَ عربيةٍ معاديةٍ لمكة أثناءَ غيابهم، فأتاهم الشيطانُ، وزَيَّنَ لهم الخروج، وأراهم أنهم على صواب، وطمأنهم أنه معهم، وأنه (جارٌّ لهم) سيحيّدُ القبائلَ المعادية، ووعدَهم النصرَ والفوز!.

واستجابوا لتزيينه، وطمعوا في وعودِهِ، وخرَجوا بقيادة أبي جهلٍ إلى بدر. ونشبت معركةُ بدر، وفوجئَ المشركون بقوةَ المسلمين، وهجومِهم عليهم، وتذكَّروا وعودَ الشيطانِ بالنصرِ والتأييد، وهو معهم في ميدانِ المعركة، ولكنَّه نكثَ العهود، وتخلَّى عن الوعود، ونكصَ على عَقَبَيْهِ، وولَّى هارباً، وأسلمَ أتباعَهُ إلى أسلحةِ المسلمين.

وقال لهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾!.

أعلنَ براءتَهُ منهم، وعلَّلَ ذلك بأنه يرى ما لا يرون، والراجعُ أنَّ الذي رآه هم الملائكة، الذين أنزلهم الله مُدداً للصَّحابةِ في المعركة.

وكذَّبَ عليهم في زعمِهِ الخوف من الله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ وهل يخافُ الشيطانُ اللهَ ربَّ العالمين؟!.

رابعاً - قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦ - ١٧].

تذكرُ الآيةَ إغواءَ الشيطانِ لأحدِ أتباعِهِ، عندما طلبَ منه أنْ يكفرَ باللهِ، وقدَّمَ له وعودَه وأمانِيه، بحصوله على الخيرِ كُلِّه، وأنه سيقى معه مدافعاً عنه . . ولما استجابَ التعيسُ له، وصدَّقَه في وعودِهِ، وأعلنَ كفرَه باللهِ، تخلَّى عنه الشيطانُ وغرَّه وخدَّعه، وقالَ له: إني بريءٌ منك، إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ ! .

خامساً - قال تعالى: ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

إذا كانَ الشيطانُ كاذباً في وعودِهِ الخادعة، فإنَّ أتباعَهُ من الظالمينَ يقتدون به في هذا الكذبِ والخداع، وما يَعِدُ بعضهم بعضاً من الوعودِ ما هي إلا غرورٌ وخداع، لا يلتزمونَ بها، ولا يُنفذونها.

الشيطان يتخلَّى عن أتباعه في الآخرة:

يومَ القيامة يتخلَّى الشيطانُ عن أتباعه، ويُفرِّقُ الجميعُ بين وعودِ اللهِ الحقَّة، التي حقَّقها سبحانه لعباده الصالحين، وصدَّقهم إياها، وبين وعودِ إبليسِ الخادعة، التي كذب على جنوده بها.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

هذه خطبةُ إبليس، يُلقِيها على أتباعه في نار جهنَّم، بعد أنْ يستقرُّوا فيها، ويعترفُ لهم بأنَّه غرَّهم وخدَّعهم، ثم يؤنبهم ويوبِّخهم: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ . ويذكرُ لهم أنَّه عاجزٌ عن إنقاذهم، كما أنهم عاجزون عن إنقاذه: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ .

ويتخلَّى عنهم، ويعلنُ براءتَه منهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ .

والشاهدُ في الآيةِ مقارنةُ إبليسَ بين وعدِ اللهِ الحقِّ ووعدِهِ الباطل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ .

أي: صدق الله عبادَه وعُدَّه، وأنجزَه لهم، وبذلك كان وعُدُّه حقًّا، متحقِّقًا على أرض الواقع، أما إبليسُ فقد وَعَدَهم فأخلفَهم، ولم يُنجزْ لهم ما وعَدَهم به، وبذلك خَدَعَهم وغرَّهم، وكان وعُدُّه باطلاً ضالاً!! .

بين وعد الله ووعد الشيطان:

قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

تقارن الآية بين وعدِ الشيطانِ الباطلِ ووعدِ اللهِ الحقِّ، فالشيطانُ يُخَوِّفُ أوليائه، ويجعلُهم في تفكيرٍ دائم، في التخطيطِ للمستقبل، حذرينَ من الفقر، ولذلك يأمرُهم بالفحشاء، والبخلِ بالمال، خوفَ الفقر. وهذا خداعٌ منه لهم.

أمَّا اللهُ فإنه يَعِدُ أوليائه الغنى والسعادة، والمغفرةَ والرحمة، ولذلك يدعوهم إلى الإنفاقِ على المحتاجين، ويضمنُ لهم الفضلَ والغنى. ووعدُه سبحانه نافذ، متحقِّقٌ في الواقع.

تحقيق وعد الله لأهل النار وأهل الجنة:

قال تعالى: ﴿وَأَدَّيْ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤].

تذكرُ الآية ما يجري بين أهلِ الجنةِ وأهلِ النار، بعد استقرارِ كلِّ فريقٍ في داره، فيتذكَّرُ أصحابُ الجنةِ حياتَهم في الدنيا، وما وعَدَهم اللهُ به على الاستقامة والطاعة، فها هم يجدون ذلك الوعدَ حقًّا متحقِّقًا، وها هم يتنعمون به.

عند ذلك يتذكَّرون أهلَ النار، فينادونهم قائلين: قد وجدنا ما وعَدَنَا رَبُّنَا حقًّا، فهل وجدْتُمْ ما وعَدَ رَبُّكُمْ حقًّا؟.

فيجيئهم الكفارُ قائلين: نعم، فقد وعَدَنَا اللهُ النَّارَ، وها نحنُ نجدُ هذا الوعدَ حقًّا متحقِّقًا، وها نحنُ نحترقُ بالنار!! .

* * *

الموقف من وعده الله بين تصديق المؤمنين وتكذيب المنافقين

ينظرُ المؤمنون إلى وعدِ الله نظرةً إيمانيةً إيجابيةً، فيصدّقون به، ويوقنون بتحقيقه ووقوعه، ويزيدُهم ذلك إيماناً وتسليماً.
أما المنافقون فإنَّ نظرَهم إلى وعدِ الله سلبيةً متشكّكةً، لأنَّهم يكذبون به، ويُنكرون وقوعه.

نظرةُ المؤمنين الإيجابيةُ ناتجةٌ عن إيمانهم بالله، وبأنَّه لا يُخلفُ الميعاد، وأنَّ وعده حقٌّ وصدق، وأنَّه لا ناقضَ له. ونظرةُ المنافقين السلبيةُ ناتجةٌ عن كفرهم وشكّهم، وعدمِ تصوُّرهم لمظاهرِ قوةِ الله وقدرته، وأنَّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الجو العام في غزوة الأحزاب:

وُجِدَت النظرتان في غزوةِ الأحزاب، التي وقَّعت في السنةِ الخامسةِ من الهجرة، حيثُ عملَ زعيمُ يهودِ بني النضير - (حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ) - على تهيجِ كفارِ قريش لغزو المدينة والقضاء على الإسلام والمسلمين فيها. . واتفق كفارُ قريش مع كفارِ غطفان على التوجُّه إلى المدينة لهذه الغاية، ولما علمَ الرسولُ ﷺ بذلك أمرَ بحفرِ الخندقِ حولَ المدينة.

ولما حاصرَ أحزابُ الكفرِ المدينة، أقنعَ (حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ) صاحبه (كعبَ ابنِ أسد) زعيمَ يهودِ بني قريظة على نقضِ عهدهم مع رسولِ الله ﷺ، والانضمام إلى تحالفِ أحزابِ الكفرِ!

واشتدَّ الأمرُ على المسلمين، وعظُمَ الخطرُ بتحالفِ قريش وغطفان واليهود، وحرصَ رسولُ الله ﷺ على تثبيتِ المسلمين، ورفعِ معنوياتهم، وثبَّتَ المؤمنونَ المجاهدونَ على الحقِّ، واقتدوا في ذلك بالرسولِ ﷺ، بينما حرصَ

المنافقون على نشر الإشاعات، لإضعاف المجاهدين، وعلى التشكيك بما يقوله ويفعله رسول الله ﷺ.

وقد ذكر القرآن موقف المؤمنين وموقف المنافقين، عندما صوّرت آياته الحالة العامة الخطيرة التي عاشها المسلمون في غزوة الأحزاب.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝١ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ۝٢ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝٣ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝٤ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝٥ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ۝٦﴾ [الأحزاب: ١-١٤].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ [الأحزاب: ٢١-٢٣].

ندعو إلى تدبر هذه الآيات، التي تصوّر الأجواء العامة لغزوة الأحزاب، ومواقف وتحركات أطرافها، ولسنا في معرض تفسيرها هنا.

المؤمنون والزلازل الكبيرة:

بدأت الآيات بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم، عندما خلّصهم من جنود الكفار، حيث أرسل عليهم ريحاً وجنوداً من الملائكة، وجعلهم يؤثرون الانسحاب للنجاة بأنفسهم.

جاء فريق من الكفار من فوق المسلمين، وهم المشركون من قريش وغطفان، بينما جاء فريق آخر منهم من أسفل، وهم يهود بني قريظة، بعدما نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، وبذلك أطبق الكفار على المسلمين من جميع الجوانب. وتأثر المسلمون بالأحداث، وشعروا بالخطر، وخافوا خوفاً شديداً،

يكفي لمعرفة خطورته تدبرُ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ ١١ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا .

زَاغَتْ أَبْصَارُ فريقي من المؤمنين من الخوف، وبَلَغَتْ قُلُوبُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ من شدة الرعب والقلق، وَظَنُّوا بِاللَّهِ ظُنُونًا عديدة، ووقع الزلزال الكبير، الذي هزَّ نفوسهم ومشاعرهم وأعصابهم هزًّا عنيفاً، وابتلاههم الله ابتلاءً قوياً! .

ولم يستمرَّ الخوف والفرعُ والرعب والقلق عند المجاهدين إلا فترة قصيرة، تجاوزوها بسرعة، وتغلبوا عليها بفاعلية، إذ سرعان ما عاد إليهم يقينهم وهدوؤهم واطمئنانهم، وقويت عزائمهم وهممهم، فثبتوا وجاهدوا، ووثقوا بوعد الله، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنَّ عليهم بالنصر .

الشاكون في وعد الله فريقان:

ذكر الله تشييط المنافقين للمؤمنين، وشكَّهم في وعد الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ .

الذين شكوا في وعد الله فريقان:

الفريق الأول: المنافقون: وهم الذين يخفون في قلوبهم الكفر، ويظهرون أمام المسلمين الإيمان والإسلام، وهؤلاء كفار في الحقيقة .

الفريق الثاني: الذين في قلوبهم مرض، وهم مسلمون ليسوا منافقين، لكنهم ضعفاء الإيمان، ومرض قلوبهم هو الشك والضعف، وسقوط الهمة والعزيمة .

وهؤلاء تأثروا بإشاعات ودعايات المنافقين، وصاروا يُرَدِّدونها معهم، بهدف إضعاف المسلمين المجاهدين .

أعلن الفريقان - المنافقون ومرضى القلوب - الشك في وعد الله، وقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ .

أي: أنتم أيها المسلمون، تزعمون أن الله وعدكم النصر على أعدائكم، ونجاتكم من الخطر، وأنَّ الرسول - ﷺ - بشركم بقرب تحقُّقه ووقوعه على أرض الواقع! لا تحلموا بذلك، فإنه لن يتحقَّق على أرض الواقع، ووعد الله ورسوله

لكم ما هو إلا غرورٌ وخداعٌ، وأوهامٌ وأمانٌ خيالية!

وهذا الكلامُ الخطيرُ من المنافقين ومرضى القلوب، شكٌّ في تحقُّقِ وعدِ الله، وتكذيبٌ بوقوعه، وتشكيكٌ المؤمنين به.. ووعدُ الله بالنسبة لهم ليس حقاً، وليس صدقاً! وهذا تكذيبٌ صريحٌ منهم لله ولرسوله ﷺ.

بشارات الرسول ﷺ أثناء حفر الخندق:

ذكرت رواياتُ السيرة تبشيرَ الرسول ﷺ أصحابَه بالنصرِ والتمكينِ، وظهورِ الإسلامِ في العالم، وذلك أثناء حفرِ الخندق، قبيلَ حصارِ المشركين للمدينة.

روى أحمد في المسند [٣٠٣/٤]، والنسائي [٤٣ - ٤٤] عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما كانَ حينَ أمرنا رسولُ الله ﷺ بحفرِ الخندقِ، عرضتُ لنا في بعضِ الخندقِ صخرة، لا تأخذُ فيها المعاولُ، فاشتَكينا إلى رسولِ الله ﷺ، فجاءنا فأخذَ المعولَ، فقال: «بسمِ الله»، فضربَ ضربةً، فكسرَ ثلثَها، وقال: «اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيحَ الشام، واللهِ إني لأُبصرُ قصورها الحمرَ الساعة!». ثم ضربَ الثانيةَ، فقطعَ الثلثَ الآخرَ، فقال: «اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيحَ فارس، واللهِ إني لأُبصرُ قصرَ المدائنِ أبيض!». ثم ضربَ الثالثةَ، وقال: «بسمِ الله»، فقطعَ بقيةَ الحجرِ، فقال: «اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيحَ اليمن، واللهِ إني لأُبصرُ أبوابَ صنعاء من مكاني هذا الساعة!». . . .

وروى ابنُ إسحاق هذه الحادثة بلفظٍ آخر، قال: «قالَ سلمانُ الفارسي: ضربتُ في ناحيةٍ من الخندقِ، فغلظتُ عليَّ صخرة، ورسولُ الله ﷺ قريبٌ مني، فلما رأيَ أضربَ، ورأى شدةَ المكانِ عليَّ، نزلَ، فأخذَ المعولَ من يدي.. ف ضربَ به ضربةً، فلمعثُ تحتَ المعولِ برقة، ثم ضربَ به ضربةً أُخرى، فلمعثُ تحته برقةً أُخرى، ثم ضربَ به الثالثةَ، فلمعثُ تحته برقةً أُخرى.

فقلتُ: بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله. ما هذا الذي رأيتُ، لمعثُ تحتَ المعولِ وأنتَ تضربُ؟.

قال: «أوقدَ رأيتَ ذلكَ يا سلمان؟».

قلتُ: نعم!.

قال: «أما الأولى، فإنَّ اللهَ فَتَحَ عليَّ بها اليمنَ، وأما الثانيةُ فإنَّ اللهَ فَتَحَ عليَّ بها الشامَ والمغربَ، وأما الثالثةُ فإنَّ اللهَ فَتَحَ عليَّ بها المشرقَ!». .

قال ابنُ إسحاق: وحَدَّثني مَنْ لا أَتَّهِمُ عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنه كان يقول، حين فُتِحَتْ هذه الأمصار، زمنَ عمرَ وعثمان: افتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفسُ أبي هريرةَ بيده، ما افتتَحْتُم من مدينة، ولا تفتتَحونها إلى يوم القيامة، إلَّا وقد أعطى اللهُ سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك! [سيرة ابن هشام: ٣/ ١٩٩ - ٢٠٠].

الرسول ﷺ يرفع معنويات أصحابه:

الرسول ﷺ حريصٌ على رفع معنويات أصحابه، وتقديم البشري والأمل لهم، ليزدادوا جهاداً وعملاً وثباتاً، وتصديقاً بوعدِ الله.

فها هو يضربُ الصخرةَ في الخندقِ ثلاثَ ضربات، وبعدَ كلِّ ضربةٍ يقدمُ للمسلمين بشري بالنصر في المستقبل. بشرهم بعد الضربة الأولى بفتح قصور الشام، وبشرهم بعد الضربة الثانية بفتح قصور فارس، وبشرهم في الضربة الثالثة بفتح قصور اليمن! .

واللطيفُ في البشري، أَنها جاءتُ والمسلمونَ في حالةِ حصارٍ شديد، ووجودهم نفسُه في خطر، وأحزابُ الكفرِ تحيطُ بهم، لتقصيَ عليهم، وقد لا يخرجون من هذه المحنةِ سالمين، وفق التوقُّعات البشرية! .

في هذا الجوُّ المكروب، لا يبشِّرهم رسولُ الله ﷺ بتجاوزِ المحنةِ والنجاةِ من الخطرِ فقط، وإنما يبشِّرهم بفتحِ بلادِ الشامِ والعراقِ واليمن، ودخولِ أهلها في الإسلام! .

وهو لا يقولُ هذا من عنده، إنما بتوجيهٍ من الله، الذي أوحى له بذلك، وملاً قلبه يقيناً بتحقيقه، وطلبَ منه تبشيرَ المؤمنين بذلك، ليفتدوا به في هذا الأمل! .

موقف المنافقين والمؤمنين من وعد الرسول ﷺ:

لما سمعَ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ذلك، كَذَّبوا به، وشكُّوا في

وقوعه، وشككوا المسلمين بذلك، وقالوا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وأورد ابنُ إسحاق ما قاله أحدُهم، فقال: «... وعظمَ عند ذلك البلاء، واشتدَّ الخوف، وأتاهم عدوُّهم من فوقهم، ومن أسفلَ منهم، حتى ظنَّ المؤمنون كلُّ ظن، ونجمَ النفاق من بعضِ المنافقين، حتى قال (مُعْتَبُ بْنُ قُسَيْرٍ): كان محمدٌ يَعدُّنا أن نأكلَ كنوزَ كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمنُ على نفسه أن يذهبَ إلى الغائط!!...» [سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٠٢].

وإذا كان هذا هو موقفُ المنافقين من وعدِ الله، قائماً على التَكْذِيبِ به، والإنكارِ لوقوعه، فإنَّ موقفَ المؤمنين قائمٌ على اليقينِ به، والجزمِ بتحقيقه ووقوعه، وتصديقِ الله ورسوله.

وأخبرَ الله عن موقفهم الإيجابيِّ العظيم في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

لَمَّا رَأَوْا جُنُودَ الْأَحْزَابِ لَمْ يَجْبُنُوا، وَلَمْ يَنْسَحِبُوا، وَلَمْ يَنْهَزْ مَوَالِمُ يَفْرُوا، وَبَقِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِ وَيَقِينِهِ، وَثَبَاتِهِ وَتَصَدِيقِهِ، وقالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.

أي: لقد وَعَدَنَا اللهُ في آياتِ قرآنيةٍ سابقةٍ، أن يحاربَنَا الأعداء، وأن يصيبَنَا البلاءُ والابتلاء، لكنَّهُ وَعَدَنَا بعدَ ذلك النصرَ القريب، إن صَبَرْنَا وَثَبْنَا... ومجيءُ أحزابِ الكفرِ إلينا هو تصديقٌ واقعيٌّ لذلك الوعدِ الربَّاني، وعلينا أن نصبرَ ونثبت، لننالَ نتيجةَ ذلك.

أوردَ ابنُ كثيرٍ في تفسيره قولَ ابنِ عباسٍ وقتادة في معنى الآية: «قال ابنُ عباسٍ وقتادة: يعنون بقولهم: هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ، قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلِينَ﴾ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» [البقرة: ٢١٤].

أي: هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ، من الابتلاءِ والاختبارِ والامتحان، الذي يعقبُه النصرُ القريب... وما زادهم ذلك الحالُ والضيُّقُ والشدةُ إِلَّا إيماناً بالله، وتسليماً وانقياداً لأوامره، وطاعة لرسوله ﷺ [تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٥٧].

ما فعله المنافقون والمؤمنون في الميدان:

شكَّ المنافقين ومرضى القلوب بوعدِ الله، وتكذَّبهم له، موقفٌ سلبي، نتج عنه فعلٌ خبيث، صدرَ عنهم، قال اللهُ عنه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

تركوا مواقعهم في الميدان، وفرّوا من المواجهة والجهاد، وكذَّبوا على رسولِ الله ﷺ، وثبَطوا همَمَ المجاهدين، ودَعَوْهم إلى تركِ مواقعهم الجهادية، والذهابِ إلى بيوتهم، طلباً للنجاة والسلامة!

أمَّا تصديقُ المؤمنين المجاهدين بوعدِ الله، وتأكُّدُهم من وقوعه، ويقينُهم بتحقيقه في الواقع، فإنه موقفٌ إيجابيٌّ عظيم، نتج عنه موقفٌ جهاديٌّ كبير، أثنى اللهُ عليهم من أجله. قال تعالى عنه: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (٢٢) مَنِ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٢-٢٣].

زادهم تصديقهم بوعدِ الله إيماناً بالله، وتسليماً لأمره، وطاعةً لرسوله ﷺ، وثباتاً على الحق، وجهاداً في سبيل الله.

الموقفان مكروران في التاريخ الإسلامي:

هذان الموقفان من وعدِ الله، مكروران في المسلمين، بعد نزول الآيات من سورة الأحزاب، على اختلاف الزمان. . وأوضح ما يكونان عند المحن الكبرى والشدائد العظمى؛ فالذين في قلوبهم مرضٌ يُكذِّبون ويُشكِّكون، ويقولون: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. . والمؤمنون المجاهدون الثابتون يقولون: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، وما زداهم إلا إيماناً وتسليماً.

وأكثر ما يكون الموقفان وضوحاً في هذا العصر، الذي ابتلي المسلمون بما ابتلوا به من المصائب والمحن والابتلاءات!! .

* * *

وجوب الثقة لمطلق النص القرآني

اليقين بأن الله لا يخلف الميعاد، وأن وعده حق وصدق، لا بد أن يتحقق، يرتبط بقاعدة إيمانية أساسية، نتعامل مع نصوص القرآن على أساسها.

هذه القاعدة تقرر وجوب الثقة المطلقة بالنص القرآني، والتسليم التام بدلالته، وإخضاع الواقع المخالف له، والتوفيق بين النص القرآني الجازم وبين الواقع المخالف في الظاهر له.

وهذه القاعدة القرآنية ترتبط بنظرنا إلى القرآن، وتدبرنا له، وتعاملنا معه، وإيماننا بالله الذي أنزله.

كل ما في القرآن حق وصدق:

من التعظيم والتقدير لله يكون التعظيم لكتابه، ومن التعظيم للقرآن يكون حسن الفهم لنصوصه، ومن حسن الفهم لنصوصه تكون الثقة المطلقة بها، واليقين التام بدالاتها.

إن ما قاله الله في القرآن هو الحق والصدق والصواب، وإن ما قرره هو الصحيح، ولا يجوز أن يتطرق إلينا في ذلك شك أو ريب.

تجب الثقة المطلقة في حقائق القرآن التاريخية، والتشريعية، والعلمية، والإنسانية، والأخلاقية، والجهادية... وغير ذلك.

ولندكر بعض الآيات التي قد لا يثق بعض الناس بها، ولا يسلّمون بمدلولها، بزعم مخالفتها لمنطق العقل، أو لحركة التاريخ، أو للتقدم المعاصر.

النار برودة وسلام على إبراهيم عليه السلام:

أولاً - قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٦٨) قلنا

يَنَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

تخبرُ الآياتُ أنَّ قومَ إبراهيمَ عليه السلام أوقدوا له ناراً ضخمةً، وألقوه فيها ليموتَ حرقاً، ولكنَّ الله أنقذه منها، حيثُ أمرها أن لا تُحرقه، وإنما تكونُ برداً وسلاماً عليه، فكانت كما أمرها الله، وبذلك خسر أعداؤه الكافرون.

وأصحابُ التفكيرِ المادي لا يُصدّقون بهذا، إذ كيف يكونُ رجلٌ داخلَ نارٍ مشتعلةٍ ولا تحرقه؟! والنارُ من طبيعتها الإحراق..

عندما ننظرُ للمسألة من زاويةِ قدرةِ الله وإرادته، فلا نستغربُ هذا، بل يكونُ آيةً من آياتِ الله، الدالّةُ على قدرته المطلقة، وبما أنَّ الله أرادَ ذلك، فهو متحقّقٌ بدون شك، وبما أنه أخبرنا عن ذلك بصريحِ القرآن، فإنه حصلَ عملياً كما أخبرَ الله!.

آثار حرب الله على المرابين:

ثانياً - قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿٢٧٩﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩].

يدعو الله المؤمنينَ إلى تقواه، والتخلّي عن الربا، ويهدّدهم بالحربِ إن لم يفعلوا ذلك.

والآيةُ الثانيةُ صريحةٌ في إعلانِ الحربِ على الذين يتعاملون بالربا، إنَّ اللهَ سبحانه هو الذي يعلنُ الحربَ عليهم، وهو القويُّ القاهرُ الغالبُ سبحانه! ومن أعلَنَ الله عليه الحرب فهو الخاسرُ الهالك، في الدنيا والآخرة.

ولقد صدّقَ العالمُ المعاصرُ بكلِّ حكوماته، الإشاعةَ الإسرائيليةِ المعاصرةِ المتعلقةِ بالاقتصاد، والتي تعتبرُ التعاملَ بالربا ضرورةً اقتصاديةً، حتميةً معاصرةً، ولا يمكنُ لحكومةٍ أو شركةٍ أو تجارةٍ أو فردٍ أو جماعة، النجاحُ في المالِ والاقتصادِ والحياة، إلا بالتعامل بالربا! وبذلك انتشرَ الربا في جميعِ بلدانِ العالم، ومنها البلدانُ المسلمة.

ومن بابِ الثقةِ المطلقةِ بالنصِّ القرآني، على المتدبّرِ للقرآنِ أن يلاحظَ آثارَ

الحقيقة التي تقرّها، على الواقع من حوله، أي أن يرى مظاهر الحرب التي أعلنها الله على العالم المرابي اليوم .

إنّ العالم اليوم يدفع أثمان إعلان الله الحرب عليه، بسبب إجماع حكوماته على أكل الربا، وهذه الحرب الربانية وصلت كل حكومة، وكل مؤسسة، وكل شركة، وكل دخل أو مال، وكل اقتصاد أو صناعة أو تجارة، والمؤمن البصير هو الذي يلحظ هذا! .

الجهاد تجارة رابحة مُنجية:

ثالثاً - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرَرِ شَيْءٍ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَجَاهِدْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف: ١٠-١١] .

تقرّر هذه الآيات أنّ الجهاد في سبيل الله هو التجارة الرباحة، المنجية من العذاب الأليم، وأنّ هذا الجهاد خير للمسلمين من القعود عنه وتركه .

ولا بدّ للمسلم من الثقة المطلقة بما تقرّره الآيات، واليقين الجازم بأنّ الجهاد تجارة رابحة، وأنّ القعود تجارة خاسرة هالكة، وأنّ هذا الجهاد خير للمسلمين، لأنّ الله العليم الحكيم هو الذي قرره هذا .

وهذا معناه: أن لا يصدق المؤمن كلام أيّ إنسان، إذا تعارض مع هذه الآيات، كأن يعتبر الجهاد شراً وخسارة للأمة، لأنّ فيه تهوؤراً واندفاعاً و(توريطاً) لها! .

ضرّ اليهود مجرّد أذى خارجي:

رابعاً - قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١] .

هذه الآية في سياق آيات، تتحدّث عن المواجهة بين المسلمين، وبين أهل الكتاب - واليهود منهم على وجه الخصوص -؛ يُخبرنا الله فيها أنّ اليهود لن ينجحوا في القضاء على المسلمين، رغم ما يبذلون من جهود لأجل ذلك، وكلّ ما يمكن أن يضرّوا به المسلمين هو أذى! .

والأذى ظاهريّ سطحي، يتمثّل في الخسائر المادية، من تدمير أو هدم أو

قطع، وفي الجرحى والشهداء، الذين يُصابون في المواجهات، وفي الأسرى والمعتقلين، وما يُصَبُّ عليهم من صنوف التعذيب والاضطهاد.. كلُّ هذا أذى ظاهري، يمكنُ تحمُّله واحتماله، بالصبرِ والمصابرةِ والمرابطةِ والاحتسابِ!.

والمؤمنُ المرباطُ المجاهد، الذي يتصدَّى للهجمةِ اليهوديةِ المعاصرة على الإسلام والمسلمين، يوقنُ بهذه الحقيقةِ يقيناً جازماً، ويثقُ بها ثقةً مطلقةً، وهذا يدفعه إلى مزيدٍ من المواجهة والتصدِّي، لأنَّ الأذى يمكنُ تحمُّله والصبرُ عليه!.

التوفيقُ بين الآيات والواقع:

هناك بعض الحقائق، تقررُها بعضُ الآيات، تصطدمُ في ظاهرها مع الواقع المعاصر، الذي يعيشه المسلمون، حيث يختلفُ هذا الواقعُ مع تلك الحقائق، وقد يشكُّ بعضُ المسلمين في حقائق تلك الآيات، تحت ضغطِ الواقع الذي يعيشه، وبذلك يحصلُ الشكُّ في الآيات، وتزولُ الثقة فيها.

والمؤمنُ البصيرُ يُزيلُ التعارضَ الظاهريَّ بين الآياتِ والواقع، ولا تتأثرُ ثقته المطلقةُ بالنص القرآني، فهو ينطلقُ من هذه الثقة المطلقة في إخضاع الواقع المخالف للنص، ويُحيلُ السببَ على هذا الواقع المخالف، وليس على الحقيقة القرآنية، وذلك بعدم تحقق الشروط التي تشرطها الآية، أو عدم تحقيق الأجواء، أو الظروف، أو الزمان، أو المصلحة، أو غير ذلك.

ذلة اليهود وكيانهم المعاصر:

لنذكر بعض الأمثلة القرآنية على ذلك:

أولاً- قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكْبُكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُوءُهُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ...﴾ [الأعراف: ١٦٧].

تحدَّث الآية عن اليهود، المخالفين لشرع الله، ويخبرنا الله فيها أنَّه قضى أن يبعث عليهم أقواماً، يسومونهم سوء العذاب، وسيبقى هذا حتى يوم القيامة، فالذلة والمسكنة ملازمة لليهود!.

والواقع المعاصر لليهود في هذا الزمان، يتعارضُ ظاهرياً مع هذه الآية، فهي هم يُسيطرون على العالم أجمع، سياسياً وإعلامياً، واقتصادياً وفنياً، وقد

نجحوا في إقامة دولة قوية لهم على أرض فلسطين . . وهم الذين يُذَلُّون الآخريين ، ويسومونهم سوءَ العذاب ! .

ولا يتعارض ما عليه اليهودُ مع ما تقرّره الآية ، لأنّ ما هم عليه الآن ما هو إلا فترة قصيرة ، يأذن الله لهم فيها بنوع من القوة والتمكين ، يعودون بعدها إلى الذلّة والمسكنة ، ويبعث الله عليهم مَنْ يسومونهم سوءَ العذاب .

ثم إنّ ما هم عليه في هذه الفترة الزمنية القصيرة ، من قوة وتمكين ، سيكونُ عاملاً من عوامل الإسراع في إذلّالهم ، لأنّهم سيتكبّرون على الآخريين ويستعبدونهم ، ويذلّونهم ، وسيواجههم الآخرون بمزيد من الكراهية والبغضاء ، والعمل على الأخذ بثأرهم منهم ، والحرص على إذلّالهم . . فاليهودُ في هذا الزمانِ صائرونَ إلى ما كتبه الله عليهم من الذلّة والمسكنة .

وأشارت آية أخرى إلى هذه المرحلة الانتقالية الخاصة ، التي يمرّون بها ، في سيرهم من ذلّ الماضي إلى ذلّ المستقبل . قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ **الذِّلَّةُ** أَيْنَ مَا تُثْقَوْنَ - إِلَّا يَحْجِلَ مِنَ اللَّهِ وَحْجِلٌ مِّنَ النَّاسِ - وَبَاءُ وَبِعَصْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ **الْمَسْكَنَةُ** ﴾ [آل عمران : ١١٢] .

نصر المؤمنين وواقعنا المعاصر :

ثانياً - قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْفَقْنَا **مِنَ الَّذِينَ أَجْرُومُوا** وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ **الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الروم : ٤٧] .

عندما كانت مهمة الرسل تنتهي عند أقوامهم ، كان الله ينصر الرسل على الكافرين ، ويُنجيهم من مكائدهم ، وينتقم من الكافرين المجرمين ، بإهلاكهم وتدميرهم .

وكتب الله على نفسه نصر عباده المؤمنين : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ **الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ وهذه حقيقة قرآنية مطردة ، تنطبق على أمثلة وشواهد عديدة في الماضي ، وردّ بعضها في التاريخ البعيد ، وبعضها في تاريخ المسلمين الصالحين من هذه الأمة ! .

ولكنّ الواقع المعاصر للمسلمين لا يتفق مع هذه الحقيقة القرآنية ، فقد

هُزِمُوا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَارِكِ الَّتِي خَاضُوهَا ، وَأَعْدَاؤُهُمْ هُمُ الَّذِينَ انْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ !
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ هُمُ الْمُسْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ ، لِأَنَّ نَصَرَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ مُشْرُوطٌ بِنَصَرِهِمْ
لِلَّهِ أَوَّلًا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُخْلِفْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [مُحَمَّد : ٧] . وَلَمْ يَنْصُرِ
الْمُسْلِمُونَ الْمَعَاصِرُونَ اللَّهَ حَقًّا ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَنَالُوا نَصَرَ اللَّهِ . . وَسَنَةُ اللَّهِ لَا تَخْلَفُ ،
وَلَكِنْ لَا بَدَّ مِنَ الْأَخْذِ بِشَرْطِهَا ! .

* * *

تحقق الأخبار المستقبلية في القرآن

من الحقائق الإيمانية القرآنية أَنَّ اللهَ اختَصَّ بعلمِ الغيب، وهو ما غابَ عن الناس، من العوالم والأحداث، والوقائع والأشياء، ولا يعلمُ أحدٌ من البشر شيئاً من الغيب، إلا ما علَّمه اللهُ إياه. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِي رِزْقًا أَمَدًا﴾ (٢٥) عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ [الجن: ٢٥ - ٢٧].

وَأَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَعْتَرَفَ بِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنَ الْغَيْبِ، إِلَّا مَا عَلَّمَهُ اللهُ إِيَّاهُ. قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْنَزْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ...﴾ [الأعراف: ١٨٨].

عوالم الغيب الثلاثة في القرآن:

لقد تحدّث القرآن حديثاً مفصلاً عن ثلاثة من عوالم الغيب:

الأول - غيبُ الماضي: وهو الأحداث التي وقعت قبل بعثة رسول الله ﷺ، وإنزال القرآن عليه، مثل الحديث عن خلق السموات والأرض، وتفاصيل خلق آدم أبي البشر عليه السلام، وما جرى بينه وبين إبليس، وإهباطه من الجنة إلى الأرض... وتفاصيل ما جرى بين الرسل وأقوامهم، من نوح إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام.

الثاني - غيبُ الحاضر: وهو حديث القرآن عن الأحداث، التي وقعت في حياة رسول الله ﷺ، حيث كان القرآن النازل عليه يُشير إليها ويعالجها، ويستخلص دروسها وعبرها، ويدخل ضمن هذا الغيب العلم المسمّى: (أسباب النزول).

ومن غيبِ الحاضر حديث القرآن عن (عوالم) غيبية، موجودة في الواقع، لكننا لا نراها، مثل وجود الله وصفاته وأفعاله، ووجود الملائكة وأعمالهم،

ووجود الجنِّ وأصنافهم، ووجود الجنة والنار، وغير ذلك .

الثالث - غيب المستقبل : وهو حديث القرآن عن أحداثٍ مستقبليةٍ قادمة، وجزؤه بوقوعها . . وهذه الأحداثُ قد تكونُ قريبةً من نزولِ الآية، ووقعت في حياة الرسول ﷺ وأصحابه، وقد تكونُ بعيدة، وقعت بعدَ عهدِ الصحابةِ بفترة، ومنها ما هو واقعٌ في هذا الزمان، ومنها ما سيقع في آخرِ عمرِ البشرية، ومنها ما سيقع في الآخرة بعدَ قيام الساعة ! .

تحقيق غيب المستقبل في القرآن:

كلُّ ما أخبر القرآنُ عنه من أحداثٍ غيبِ المستقبلِ وقعَ وتحقَّق، كما أخبر عنه القرآن .

وهذا متعلِّقٌ بما سبقَ أن قرَّرنَاهُ في المباحث السابقة، مِنْ أَنَّ كلامَ الله حقٌّ وصِدق، ولا أحدَ أَصْدَقُ في قوله وحديثه من الله، ومن أَنَّ اللهَ أَحاطَ علماً بكلِّ شيء، بما كان وما سيكون، وهو قادرٌ على كلِّ شيء، ولا يحدثُ شيءٌ في هذا الكون إلا بأمر الله وإرادته سبحانه .

فاللهُ عَلِمَ أَنَّهُ سَيُوجِدُ كَذَا في وقتٍ كَذَا، وعند مجيء ذلك الوقت، تتوجَّهُ إرادته سبحانه إليه، فيوجِّدُهُ كما شاءه وأَراده .

وتحقَّقُ الأخبارُ المستقبلية في القرآن، كما أخبر عنها، دليلٌ على أَنَّ القرآنَ كلامُ الله، وليسَ كلامُ النبي ﷺ . فلو كان من كلامِهِ ﷺ، لما عَرَفَ عليه الصلاة والسلام: أَنَّ تلكَ الأحداث ستقع، في المستقبل القريب أو البعيد، لأنَّه لا يعلمُ غيبَ المستقبل إلا الله! قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَايِنِ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف: ٩] .

انتصار الروم على الفرس:

نقدّمُ فيما يلي أمثلةً للأخبارِ المستقبلية التي أخبرَ عنها القرآن، وتحقَّقت كما أخبرَ عنها القرآن .

أولاً - قال تعالى: ﴿ الَمْ ۖ غُلِبَتِ الرُّومُ ۚ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۚ ۝ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۚ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْسَحُ

الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ [الروم: ١-٥].

تخبر الآيات عن هزيمة الروم أمام الفرس، في حرب وقعت قبل نزولها، ثم تُخبر عن تغلب الروم على الفرس، بعد بضع سنين من نزولها.

وسورة الروم مكية، وهذه الآيات أخبرت المسلمين، وهم مستضعفون في مكة، عن انتصار الروم على الفرس، خلال بضع سنين.

وقد تحقق ما أخبرت عنه الآيات، حيث وقعت معركة فاصلة، بعد سبع سنوات من نزولها، هزم الروم فيها الفرس.

روى الترمذي [برقم: ٣١٩٤] عن (نيار بن مكرم الأسلمي) رضي الله عنه، قال: «لما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ ﴿١﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُكُمْ ﴿٢﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ... ﴿٣﴾ وكانت قريش تحب ظهور الفرس، لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب، ولا إيمان يبعث.

فلما أنزل الله هذه الآيات، خرج أبو بكر رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة، يُردّد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ ﴿١﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُكُمْ... ﴿٣﴾.

فقال أناس لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم! لقد زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟.

قال أبو بكر: بلى - وذلك قبل تحريم الرهان -.

فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان.

وقالوا لأبي بكر: كم تجعل المدة؟ فإن البضع من ثلاث سنين إلى تسع سنين.

قال أبو بكر: سموا ست سنين!.

فمضت الست سنين، قبل أن يظهر الروم على الفرس، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على الفرس!.

وعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين، لأن الله قال: ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ والبضع من الثلاث إلى التسع... وأسلم عندئذ ناس كثير... «.

موت أبي لهب كافراً:

ثانياً - قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [سورة المسد].

أبو لهب هو عمُ النبي ﷺ، كان شديد العداء والبغضاء له، ويحرضُ قومه عليه.

وقد أنزل الله هذه السورة يتوعَّده، ويقرّر خسارته وتبّابه، ويدعو عليه بتبّاب يده، وتبّاب حياته، وأنه لا ينفعه ماله، ولا يغني عنه كسبه ودخله وتجارته، وامرأته شريكة له في تبّابه وخسارته..

وجزمت السورة أنّ أبا لهب وامرأته حمالة الحطب، سيموتان كافرين، وسيصليان نارا ذات لهب!

ومع ذلك دعا رسول الله ﷺ عمّه أبا لهب، للدخول في الإسلام، ولكنه رفض الدعوة، وأصرّ على كفره وتكذيبه وعداوته.

وتحقّق ما جزم به القرآن، حول مصير أبي لهب، حيث مات كافراً بعد غزوة بدر. وهذا الجزم بمستقبله البائس، وتحقّقه في عالم الواقع، دليل على أنّ القرآن كلام الله، وعلى تحقّق الأخبار المستقبلية التي وردت فيه.

عجز الكفار الأبدى عن معارضة القرآن:

ثالثاً - قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٣ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الْآبِي وَفُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

الخطابُ للكفار، الذين لا يؤمنون بأنّ القرآن كلام الله، أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، ويرشدُهم القرآن إلى وسيلة إزالة الريب والشكّ الذي هم فيه، وذلك بأن يعارضوا هذا القرآن، بالإتيان بسورة من مثله، ودعوة شهادتهم ليعينوهم على ذلك.

وهذه الآية من آيات التحدي في القرآن، بهدف إقرار الكفار بالعجز،

وإثبات أن القرآن كلام الله . وذلك أن هذا القرآن أنزل بلسان عربي مبين، ولغة الرسول ﷺ لغة عربية فصيحة، والكافرون كانوا عرباً فصحاءً بُلغَاء . ولما سمعوا القرآن من رسول الله ﷺ، أنكروا أن يكون كلام الله، وزعموا أنه من تأليفه وصياغته هو .

فتحداهم الله بهذه الآية وأمثالها، وطالبهم بالإتيان بسورةٍ مثل هذا القرآن، في فصاحته وبلاغته وأسلوبه . فإن كان القرآن من تأليف محمد ﷺ، فلن يعجزوا عن ذلك، وسيأتون بالسورة المطلوبة، لأنهم عرب فصحاء، ومحمد ﷺ هو الأفصح .

فإن عجزوا عن الإتيان بالسورة المطلوبة، دل ذلك على أن القرآن كلام الله، أنزله على نبيه محمد ﷺ، ودل هذا على أن محمداً هو رسول الله ﷺ، ولا بد أن يُقَرَّ الكفارُ العاجزون بذلك، ويدخلوا في الإسلام، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٣) فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ [هود: ١٣-١٤] .

والشاهد في آية التحدي في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ... ﴾ .

إن جملة «- ولن تفعلوا -» جملة معترضة، تخبر عن أمرٍ مستقبلي، وتقرُّ فيه أن الكفار لن يفعلوا المطلوب، ولن ينجحوا في المعارضة، وسيُعجزون عن الإتيان بالسورة .

وقد تحقَّق ما قرَّرته وجزَّمت به الآية، فرغم محاولات الكفار المستمرة، ورغم تمكُّنهم من اللغة، إلا أنهم عجزوا عن الإتيان بالسورة المطلوبة .

والعجيب أن الجزمَ بعدم القدرة على المعارضة، جاء في سياق آية التحدي، ولا يمكن للرسول ﷺ أن يجزمَ بذلك، لأنه لا يعلم الغيبَ المستقبلي، ولا يعلم حدودَ طاقةٍ وقدرة الذين يتحداهم!! إنه لا يجزمُ بالعجزِ وعدم القدرة إلا مَنْ أحاط بكل شيءٍ علماً، وكان عالماً بالغيبِ والشهادة، وكان عالماً بما كان، وعالماً بما سيكون، وهو الله سبحانه! .

الدخان يغشى الكفار في مكة:

رابعاً- قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (١) ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (٢) ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣) ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (٤) ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ (٥) ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّجُ الْبَلَاءِ﴾ (٦) ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (٧) ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان: ٩-١٦].

تُخبرُ هذه الآياتُ عن أمرٍ مستقبلي، وقعَ بعدَ نزولها، وهو الدخان الذي غشيَ أهل مكة، عقاباً من الله، لتكذيبهم الرسول ﷺ.

وقبل الحديث عن تحقُّق وقوع ما أخبرت عنه الآيات، نوردُ كلامَ عبدِ الله ابنِ مسعود رضي الله عنه حولها، وهو الذي شهد ما أخبرت عنه.

روى البخاري [برقم: ١٠٠٧] عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ، لما رأى من الناسِ إِدْبَاراً، قال: «اللَّهُمَّ سَبِّعْ كَسْبِعُ يَوْسُفَ!» فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ، حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ وَالْجِيفَ، وَيَنْظُرُ أَحَدُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، فِيرَى الدُّخَانَ مِنَ الْجُوعِ!».

فاتاه أبو سفيان، فقال: يا محمد! إِنَّكَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فادْعُ اللَّهَ لَهُمْ».

وبعدما أوردَ ابنُ مسعودٍ هذه الآيات الثمانية السابقة، قال: «فالبطشة يومُ بدر، وقد مضى الدخانُ، والبطشةُ، واللزامُ، وآيةُ الروم».

وروى البخاريُّ الحادثةَ بروايةٍ أخرى [برقم: ٤٨٠٩] عن عبدِ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: «سَأَحَدْتُكُمْ عَنِ الدُّخَانِ؛ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا قَرِيشاً إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَبْطَؤُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبِعِ يَوْسُفَ».

فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ، فَحَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى أَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْجُلُودَ، حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ دُخَاناً مِنَ الْجُوعِ.

قال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١) ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢) ﴿فَدَعَا اللَّهُ: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (٣) ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ (٤) ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّجُ الْبَلَاءِ﴾ (٥) ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (٦) أفيكشف العذاب يوم القيامة؟.

فكُشِفَ العذاب، ثم عادوا في كفرهم، فأخذهم الله يوم بدر. قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ .

خلاصةُ معنى الآيات، وكلام ابن مسعود رضي الله عنه حولها: أن رسول الله ﷺ دعا ربه أن يأخذ قريشاً بالشدة، بأن يجعل عليهم سبع سنواتٍ محلٍ وجذب، مثل السنوات السبع الشداد، التي أصابت أهل مصر، في الرؤيا التي رآها الملك، وعبرها له يوسف عليه السلام.

واستجاب الله دعاء الرسول ﷺ، وأخذ قريشاً بالسنة، وقضى المحل على كل شيء عند قريش، حتى أكلوا الميتة والجلود والجيف ! .

وجاعوا جوعاً شديداً، حتى إن الرجل كان إذا رفع رأسه إلى السماء، يرى فوق رأسه دخاناً بينه وبين السماء، من شدة الجوع .

فأتى زعيم مكة أبو سفيان، إلى رسول الله ﷺ، وطلب منه أن يرأف بأقاربه، لأنه يأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، فإنهم قد هلكوا من شدة الجوع، ورجاه أن يدعو الله لهم بالفرج .

أما الآيات، فإنها تطلب من رسول الله ﷺ أن يرتقب مجيء السماء بدخانٍ مبينٍ ظاهر، يغشى أهل مكة، وهو عذابٌ أليمٌ من الله، يوقعه بهم، لكفرهم وتكذيبهم . . وعندما يُصابون بالعذاب، سيدعون الله أن يكشفه عنهم، وسيتعهدون أن يؤمنوا . . ويُخبرهم الله أنه سيكشف العذاب عنهم قليلاً، وسيُرِلُّ المحل والجوع عنهم، لكنهم سينقضون عهدهم، وسيعودون للكفر من جديد، وبعد ذلك سيبتش الله بهم البطشة الكبرى، وهي هزيمتهم في معركة بدر .

وقد تحققت الأخبار الثلاثة بعد نزول هذه الآيات: الدخان الذي غشى كفار قريش . . وعودتهم للكفر بعد كشف الشدة عنهم . . والانتقام منهم بالبطشة الكبرى يوم بدر .

* * *

استمرار المواجهة بين المسلمين والكافرين

المواجهة بين الحق والباطل قديمة، بدأت منذ بداية الحياة البشرية، وتمثلت الحلقة الأولى منها في ما جرى بين آدم أبي البشر عليه السلام وبين إبليس، عندما كانا في الجنة، فلمّا نجح إبليس في إغواء آدم وزوجه، وأكلا من الشجرة المحرّمة، أهبط الله الجميع إلى الأرض، وأخبرهم أنّ العداوة متأصلة بينهم، وأنهم سينقسمون إلى فريقين: مؤمنين متّبعين لهدي الله، وكافرين متّبعين للباطل.

وقد قرّرت هذه الحقيقة آيات كتاب الله. منها قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢١) ﴿فَلَقَىٰ ۤأَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٧) ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٨) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٦ - ٣٩].

وكان الرسل والأنبياء يقودون المؤمنين في مواجهة الكافرين، بينما كان إبليس وأعوانه من شياطين الجن والإنس يقودون الكافرين في هذه المواجهة.

واستمرّت هذه المواجهة طيلة القرون العديدة، الممتدة من آدم إلى محمد ﷺ، وكان الله يُنهي كلّ حلقة من حلقاتها، بإهلاك القوم الكافرين، وإنجاء القوم المؤمنين. وقد ذكر القرآن أمثلة عديدة لهذه الحقيقة؛ كقصة قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وقوم لوط...

المسلمون وحدهم على الحق:

وانتهت قيادة جند الحق إلى رسول الله ﷺ، وصارت الأمة المسلمة هي الممثلة للحق، المتحركة به، الشاهدة على باقي الأمم.

واقصر الهدى على ما مع هذه الأمة من رسالة ومنهج، ونسخ الله الأديان

السابقة، وأمر أتباعها بالدخول في الإسلام، فإن لم يفعلوا ذلك كانوا كافرين مخلّدين في نار جهنم. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقابلت الأمم الأخرى هذه الأمة بالعداوة والبغضاء، وأعلنت عليها وعلى دينها الحرب الشديدة. وكان اليهود هم الأشدّ عداوة لهذه الأمة، يتحالفون مع الآخرين ضدها، ويهيّجونهم على حريها. قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

وبما أنّ المسلمين هم الشهداء على الأمم، فإنّ رسالتهم مستمرة حتى قيام الساعة، وشهادتهم مستمرة حتى قيام الساعة. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذا معناه: أنّ مواجهة أعدائها لها مستمرة، حتى قيام الساعة، لا يتوقفون عن حريها، والكيد ضدها، والتأمر عليها.

وقد ركّزت على هذه الحقيقة آيات عديدة في القرآن:

الكفار لا يحبون الخير للمسلمين:

أولاً - قال تعالى: ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥].

تجمع الآية بين الكفار من أهل الكتاب - اليهود والنصارى - وبين المشركين، وتُخبر أنّهم جميعاً يكرهون المسلمين، ويتمنّون أن يُنزلوا في الشر والضيق والظنك والشقاء.

إنّ الكفّار من أهل الكتاب والمشركين لا يودّون أن ينزل على الأمة المسلمة أيّ خير من الله، لأنّ حصولها على ذلك الخير معناه قوة الأمة وحيويتها، والكفار يريدون أن تبقى الأمة في ضعفٍ وذلٍّ وهوان.

وبما أنّ الخير للمسلمين محصورٌ بالإسلام والقرآن، الذي هو النور والهدى، والروح والحياة، فالكفار حريصون على إبعاد المسلمين عن إسلامهم، مصدر الخير لهم.

والتعبير عن هذه الرغبة الخبيثة بالوُد مقصود، لأنَّ الوُدَّ أمرٌ قلبي، وأمورُ القلب متجدِّرةٌ فيه، وهذا معناه: أنَّ حرمانَ المسلمين من الخير والعزة ليس شيئاً عارضاً عند الكفار من أهل الكتاب والمشرّكين، إنما هو قاعدةٌ راسخةٌ عندهم، وهدفٌ استراتيجيٌّ لهم، هو الباعثُ والمحرّكُ لمواجهاتهم ضدَّ المسلمين.

وهذا معناه: أنَّ كلَّ خططِ الكفارِ ضدَّ المسلمين تهدفُ إلى حرمانهم من الخير، وإبعادهم عن الهدى، وإنَّ أخفوا هذا الهدف، وأظهروا رغبتهم في نفع المسلمين وإصلاح أحوالهم. . وهذا معناه أيضاً: أنَّ يحذرَ المسلمون أعداءهم المتآمرين عليهم، وأنَّ يشكُّوا في كلِّ ما يقدّمونه لهم، لأنَّ الذي يحركهم هو حرمانُ المسلمين من كلِّ خير، وإبقاؤهم في الشرِّ!.

حرص الكفار على ارتداد المسلمين:

ثانياً - قال تعالى: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسْبًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

تخبرُ الآيةُ عن مواجهةِ أهل الكتابِ للمسلمين، وعن هدفهم الراسخِ الثابت من هذه المواجهة.

إنَّ كثيراً من أهل الكتاب - من اليهود والنصارى - يودّون لو يردّون المسلمين عن إسلامهم، ويعيدونهم إلى الكفر بعد الإيمان، والذي دفعهم إلى ذلك هو حسدُهم للمسلمين، بعدما تبينَ لهم الحق، وأيقنوا أنَّ هذا الحقَّ مع المسلمين وحدهم.

وعندما ننظرُ في هذه الآية، التي تتحدّثُ عن ما يحركُ الكفارَ ضدَّ المسلمين، فإننا سوف نستخرجُ منها الحقائق التالية:

١ - تبيّنَ للكفار الحقُّ، وعرفوا أنَّ اللهَ اختصَّ به المؤمنين، وأنَّ هؤلاء المؤمنين على هدى من ربهم، وقد عرف الكفارُ الكتابيون هذه الحقيقة، من خلال حديثِ كتبهم المقدّسة عن الرسول الخاتم ﷺ، وصفاته العامة، وخصائص الدين الخاتم الذي بعثه اللهُ به، وبهذا التبيّن والوضوح قامت عليهم الحجّة، لئلاَّ يحتجُّوا بعدم المعرفة.

٢ - تبيّنَ الحقُّ لأهل الكتاب لم يأخذ بأيديهم إلى اتّباعه، ويدلُّ هذا على

الاعوجاج المتأصل المتجذر في كيانهم، فالعلمُ والمعرفةُ لا يُنتجانِ عندهم
النتيجة المنطقية، وإنما ينتجان المزيد من الكفرِ والبغي والعناد!

حسد الكفار للمسلمين:

٣ - حَسَدَ الْكُتَابِيُّونَ الْكَافِرُونَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الْهُدَى
وَالْخَيْرِ، لِأَنَّ الْكُتَابِيِّينَ حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْهُدَى وَالْخَيْرِ، بِتَحْرِيفِهِمْ لَشَرِ
اللَّهِ، وَعَصْيَانِهِمْ لَهُ، وَمَحَارِبَتِهِمْ لِرَسُولِهِ، وَبِذَلِكَ صَارُوا ضَالِّينَ مُجْرِمِينَ.

ولما أيقنوا أَنَّ المسلمين على خيرٍ وهدى وحقٍّ، حَسَدُوهُمْ، بَدَلُ أَنْ
يَتَابِعُوهُمْ وَيَسِيرُوا مَعَهُمْ.

ومعلومٌ أَنَّ الحسدَ مرضٌ نفسيٌّ خبيثٌ، يدفعُ صاحِبَه الحاسدَ إلى أَنْ يَتَمَنَّى
زوالَ الخيرِ عن المحسود، ويسعى لحرمانه منه، فالمهمُّ عنده أَنْ يزولَ عنه
الخير، ولا يهتُمَّ بعد ذلك أَنْ جاءَ إليه، أو ذهبَ إلى غيره!.

وحَسَدُ الْكُتَابِيِّينَ لِلْمُؤْمِنِينَ دَلِيلٌ عَلَى بَغْضِهِمْ وَكَرَاهِيَّتِهِمْ لَهُمْ، وَلَا يَبْغِضُ
أَصْحَابَ الْحَقِّ إِلَّا حَاسِدٌ كَافِرٌ، مَعَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَرْتَكِبُوا مَا يَوْجِبُ بَغْضَهُمْ
وَكُرْهَهُمْ وَحَسَدَهُمْ، وَلَا ذَنْبَ لَهُمْ عِنْدَ الْحَاسِدِينَ، إِلَّا أَنَّهُمْ عَلَى هُدًى وَحَقٍّ!.

٤ - بُغِضَ الْكُتَابِيُّونَ وَحَسَدُوهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ، دَفَعَهُمْ إِلَى مُوَاجَهَتِهِمْ وَحَرْبِهِمْ
لَهُمْ، وَحَرْصِهِمْ عَلَى إِفْسَادِهِمْ، وَإِغْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ، وَإِبْعَادِهِمْ عَنِ الْحَقِّ
وَالْخَيْرِ، الْمَحْصُورِ فِي الْإِسْلَامِ، وَرَدَّتْهُمْ عَنْ إِيْمَانِهِمْ وَدِينِهِمْ، وَإِرْجَاعِهِمْ إِلَى
الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَالضِّيَاعِ، لِيَتَسَاوَوْا فِي ذَلِكَ مَعَ الْكَافِرِينَ الْحَاسِدِينَ الْمُحَارِبِينَ.

٥ - هَذَا الْهَدَفُ الشَّيْطَانِيُّ عِنْدَ الْكُتَابِيِّينَ لَيْسَ هَدَفًا عَارِضًا، أَوْ نَاتِجًا عَنْ
خِلَافٍ ثَانَوِيٍّ، إِنَّمَا هُوَ وَدٌّ قَلْبِيٌّ رَاسِخٌ، وَرَغْبَةٌ قَلْبِيَّةٌ ثَابِتَةٌ مُتَجَذِّرَةٌ فِيهِ، وَالْوُدُّ لَا
يَخْرُجُ مِنَ الْقَلْبِ، وَلَا يَتَخَلَّى عَنْهُ صَاحِبُهُ.

متى يرضى الكفار عن المؤمنين؟:

ثالثاً - قال تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى
اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾
[البقرة: ١٢٠].

يخبرُ اللهُ رسوله ﷺ، أَنَّهُ لَنْ تَرْضَى عَنْهُ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى، حَتَّى يَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ، وَيَأْمُرُهُ أَنْ يُوَاجِهَهُم بِالثَبَاتِ عَلَى الْحَقِّ، وَيُخَاطِبَهُمْ بِأَنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى، وَيَهْدِيهِ بِأَنَّهُ إِنْ اتَّبَعَ أَهْوَاءَهُمْ، فَلَنْ يَجِدَ أَحَدًا يَنْصُرُهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

والمقصودُ من هذا الخطابِ الأُمَّةَ، لأنَّ الرسولَ ﷺ ملتزمٌ بهدى الله، ولا يُصَوِّرُ منه اتِّباعُ أهواءِ اليهودِ والنصارى، فالخطابُ في ظاهره للنبي ﷺ، ولكنَّه في الحقيقة خطابٌ تحذيريٌّ من الله لكلِّ فردٍ من أُمَّته.

ويمكنُ أَنْ نَأْخُذَ مِنَ الْآيَةِ الْحَقَائِقَ التَّالِيَةَ:

١ - اليهودُ والنصارى غاضبون على رسول الله ﷺ، وعلى كلِّ مسلمٍ من أُمَّته، لأنَّه على حق، وهؤلاء يكرهون كلَّ مَنْ كَانَ عَلَى حَقٍّ.

مع أَنَّ هؤلاء اليهودَ والنصارى كافرون ضالّون، واللهُ غضبَ عليهم ولعنهم، بسببِ كفرهم، وبسببِ بغضهم لأوليائه.

٢ - إنَّهم لَنْ يَرْضَوْا عَنْ أَيِّ مُسْلِمٍ إِلَّا إِذَا اتَّبَعَ مِلَّتَهُمْ، ودخلَ في دينهم، وصارَ يهودياً أو نصرانياً، أو على الأقلَّ تخلّى عن الإسلام، وتركَ الهدى، وصارَ ضالّاً ضائعاً، حيرانَ تائهاً، لا دينَ له ولا عقيدةَ ولا هوية.

وهذا معناه: أَنَّا إِذَا رَأَيْنَا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يُحِبُّونَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ يَرْضَوْنَ عَنْهُ، وَيَمْدَحُونَهُ، فَلَا بَدَّ أَنْ نَشْكَّ فِيهِ، وَفِي ثَبَاتِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّزَامِهِ بِهِ! لأنَّه لو كان ملتزماً بالإسلام حقاً، لما أَحَبَّهُ هؤلاء الكافرون، ولما رضوا عنه، أو أَثْنَوْا عَلَيْهِ وَمَدَّحُوهُ.

٣ - تفسرُ لنا الآيةُ سببَ ذمِّ اليهودِ والنصارى للعلماءِ والدعاةِ والقادةِ المجاهدين، من المسلمين المعاصرين، حيث يوجِّهونَ لهم اتِّهَامَاتٍ عَدِيدَةً، بالتطَرُّفِ والعنفِ والإرهابِ والإفسادِ والتخريبِ، ويُعلنونَ عليهم الحربَ! . . بينما يرضونَ عن زعماءِ وقادةِ المسلمين، يمدحونهم وَيَسْتَقْوُونَ معهم! والقرآنُ يكشفُ عن سِرِّ كرههم للفريقِ الأولِ، ورضاهم عن الفريقِ الثاني.

ولا بدَّ أَنْ نَوْقِنَ بِاسْتِحَالَةِ حُصُولِ مُؤْمِنٍ صَالِحٍ مُلتزمٍ بالإسلام، على رضا ومحبةِ اليهودِ والنصارى، ولا يهتَمُّ ذَلِكَ، لأنَّه إِنْ رَضُوا عَنْهُ شَكَّ فِي دِينِهِ.

من صفات المؤمنين وصفات الكافرين:

٤ - تقصّر الآية الهدى على هدى الله، وهو ما أوحى به لرسوله الخاتم ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾. وبما أنّ اليهود والنصارى لم يدخلوا في الإسلام، فإنّهم ليسوا على هدى، وهذا معناه: أنهم على باطلٍ وضلال.

٥ - بما أنهم ليسوا على هدى، فإنّهم متّبعون للهوى، والهوى مناقضٌ للهدى، وأهواؤهم هي التي تسيّرهم وتوجّههم، وتحكم حياتهم، وهم عبيدٌ لتلك الأهواء. قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

٦ - وبما أنّهم متّبعون للهوى، فهم جاهلون، لا علم عندهم ولا معرفة، لأنّ الهوى لا يقودُ إلا إلى الجهل، وهو يلغي مواهب وطاقات الإنسان، ويشلُّ مداركه. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

العلم ملازمٌ للهدى، والذين هم على علم هم المتّبعون لهدى الله: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾؛ والمراد به: العلم النافع لصاحبه في الدنيا والآخرة، وليس مجرد المعرفة والثقافة والدراسة والمطالعة.

٧ - يمكن أن نستخرج من الآية الصفات التالية لليهود والنصارى: هم جاهلون غير عالمين، هم متّبعون للهوى، هم ضالّون غير مهتدين، هم مبغضون للمؤمنين.

أما صفات المؤمنين في الآية فهي: هم عالمون، ومهتدون، وثابتون على الحق، وحذرون من الأعداء!.

نقمة الكافرين على المسلمين:

رابعاً - قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقُومُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

تقرّر الآية حقيقة (نقمة) أهل الكتاب من المؤمنين، وتبيّن سبب هذه

النقمة، وهو إيمان المؤمنين بالله، وإيمانهم بكتبه كلها، وإيمانهم برسوله كلهم، كما أن سببها هو فسق أهل الكتاب، وخرؤهم من دين الله.

أهل الكتاب من اليهود والنصارى لا يحبون للمسلمين الخير، وهم حريصون على صرْفهم عن إسلامهم، وهم حاسدون للمسلمين، مبغضون لهم، منتقمون منهم!.

يتعامل الكفار مع المسلمين، وهم متصفون بهذه الصفات، ويواجهونهم وهم يكتنون لهم هذه المشاعر، ويخططون لحربهم وهم بهذا الرصيد من القبائح. هذا ما بيّنته لنا آيات القرآن الهادية الكاشفة.

إن انتقام أصحاب الباطل من أصحاب الحق قائم على الحقد الأسود، وصَبَّ صنوف الأذى عليهم، والرغبة في قتلهم والتخلص منهم. . كما قال تعالى عن أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وإذا كان الكافرون فاسقين، حريصين على الانتقام من المسلمين، والقضاء عليهم، فهل يتوقع المسلمون أن يتوقفوا عن مواجهتهم وحربهم؟.

عداوة الكفار للمسلمين:

خامساً - قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَلَئِذَا يَبَسَتْ نَجْمُهُمْ الْعَدَاةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

تتكلم الآية عن اليهود، وتبين للمسلمين ما هم عليه من كفر وعداوة، وحرص على مواجهة المسلمين، وإبعادهم عن دينهم.

اليهود يكرهون الحق، وهم يعلمون أن المسلمين على حق، ولذلك يُبغضونهم، وكلما ازداد المؤمنون ثباتاً على الحق، ازداد اليهود كُفْرَابه، وطغياناً ضد المسلمين.

ورغم أن العداوة والبغضاء متعمقتان بين طوائف اليهود إلى يوم القيامة، ألَّفَها الله بينهم إلقاءً، فلا ترتفع من بينهم، إلا أنهم يجتمعون على مواجهة المؤمنين.

واليهودُ فاسدون مفسدون، يَسْعَوْنَ في الأرضِ فساداً، وَيَحْرِصُونَ على نشرِ الرذائلِ بين الناسِ، وعلى محاربةِ الفضائلِ وأهلها، ولذلك أبغضهم اللهُ ولعنهم!

وبما أنَّهم فاسدون مفسدون، فهم دعاةُ حروبٍ ودمارٍ، وموقدون لنيرانِ الفتنِ والنزاعاتِ والخلافاتِ المسلَّحةِ، وحريصون على تجييشِ الآخرين لمواجهةِ المسلمين وحربهم. . ولكنَّ اللهَ لهم بالمرصاد، يُبْطِلُ مكائدهم ضدَّ المسلمين، وكلِّما أوقدوا ناراً للحربِ أطفأها، وكلِّما أشعلوا فتنةً قضى عليها.

استمرار قتال الكفار للمسلمين:

سادساً - قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

تتحدَّثُ الآيةُ عن حربِ الكافرين المشركين للمسلمين، وحرصِهِم على فتنِهِم وتعذيبِهِم، ليتخلَّوْا عن دينِهِم الحق، ويعودوا إلى ما عليه الكافرونَ من باطل! .

وتقرُّرُ الآيةُ قاعدةً عامَّةً مطردة، في نظرةِ الكفارِ إلى المسلمين، وأساساً راسخاً يحكمُ تعاملَهُم معهم.

الكفارُ وطَّنوا أنفُسَهُم على مواجهةِ المسلمين، وحربِهِم وقتالِهِم، وجعلوا هذه المهمةَ الشيطانيةَ رسالتَهُم في الحياة، أوقفوا أنفُسَهُم عليها، ورصدوا أموالَهُم لها، ووظَّفوا كلَّ ما يملكون لأدائها! .

وفعل ﴿لا يزالون﴾: يدلُّ على الاستمرار، وعدم التوقُّفِ أو الانتهاء، وجملتهُ ﴿يُقْتَلُونَكُمْ﴾ في محلِّ نصبٍ خبر ﴿لا يزالون﴾ - لأنَّ «ما زال» من أخواتِ «كان»، ترفعُ الاسمَ وتتصَّبُ الخبر - أي: لا يزال الكفارُ مقاتلينَ لكم.

وعبَّرت الآيةُ عن الفعلينِ بصيغةِ المضارعِ ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ﴾، للإشارةِ إلى التجددِ المستمرِّ لهدفِهِم، والتجددِ المستمرِّ في وسيلَتِهِم، تلك الوسيلةُ القائمةُ على الاستمرارِ في قتالِ المسلمين.

هدف الكفار من قتال المسلمين:

ولا يتوقف قتال الكفار للمسلمين إلا في حالة واحدة، حدّتها الآية: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ﴾. إنَّ هدفَ الكفار - في الماضي والحاضر والمستقبل - من قتالنا هو ردُّنا عن ديننا الحق، وهم يستخدمون معنا مختلف الوسائل والأساليب، لتحقيق هذه الغاية، فإن ارتدّدنا عن ديننا توقّف قتالهم لنا، وانتهت مواجهتهم لنا!.

ويحدّثنا الله من الاستجابة لهم، وتحقيق هدفهم ضدّنا، ولذلك يهدّد من يفعل ذلك، ويرتدّد عن دينه، ويموت وهو كافر، بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

وندعو إلى الجمع بين آيتين:

آية تحدّد هدف اليهود والنصارى من مواجهتهم لنا، بتخليّنا عن ديننا: ﴿وَلَنَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

وآية تحدّد هدف المشركين الكافرين من استمرار قتالهم لنا، بارتدادنا عن ديننا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُم حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾.

ويلتقي الفريقان الكافران على تحقيق الهدف المشترك لهما، فالمستهدف من مواجهتهم لنا هو إسلامنا، وقد فضحهم القرآن في إظهار ما أخفوه وكنموه، وعزّفنا على ذلك، لنزداد حذراً منهم، ووعياً لمخططاتهم، وثباتاً على الحق!.

صفات المؤمنين المواجهين للكفار:

سابعاً - قال تعالى: ﴿يَكَاتِبُ الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُم عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَاقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٦].

كانت الآيات السابقة تقرّر استمرار مواجهة الكافرين للمؤمنين، تلك المواجهة التي بدأت بين آدم عليه السلام وإبليس، واستمرت على مدار تاريخ

البشرية كلّها، وستبقى مستمرة حتى قيام الساعة.

وقد عرّفنا الآيات السابقة على صفات الأعداء المواجهين لنا، وعن هدفهم من هذه المواجهة، ووسائلهم ضدنا، وحذّرتنا من الاستجابة لهم.

أما هذه الآيات من سورة المائدة فإنها تتحدّث عن الصفات الأساسية للمؤمنين الصادقين، الذين يواجهون الكفار، ويقفون أمامهم، وينحازون إلى إسلامهم، ويُنقذون إخوانهم وأوطانهم:

١ - إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُمْ، وَمَنْ مَحَبَّتِهِ لَهُمْ أَنَّهُ اسْتَخْلَصَهُمْ لَهُ، وَاسْتَعْمَلَهُمْ لخدمة دينه.

٢ - إِنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ، وَمَنْ مَحَبَّتِهِمْ لَهُ أَنَّهُمْ وَاجَهُوا أَعْدَاءَهُ، وَانْحَازُوا إِلَى دينه.

٣ - إِنَّهُمْ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ جِهَاداً كَبِيراً، صَادِقاً مُبْروراً، ثَابِتاً دَائِماً.

٤ - إِنَّهُمْ لَا يَحْسِبُونَ حِسَاباً لغيرِ اللَّهِ، وَلَا يَخَافُونَ فِيهِ لَوْمَةً لائِماً، وَلَا اعتراضَ معترض.

٥ - إِنَّهُمْ مُلتَزِمُونَ بِدِينِ اللَّهِ، يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَهُمْ رَاكِعُونَ.

٦ - إِنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، يَتَوَلَّوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا، وَيَتَّبِعُونَ مَنْ الكافرين.

٧ - إِنَّهُمْ حِزْبُ اللَّهِ الْغَالِبُونَ الْمُتَنَصِّرُونَ.

* * *

القرآن بيشر المؤمنين الصالحين

يوقن المؤمن أن وعد الله منجز متحقق، لأن الله لا يخلف الميعاد، ولذلك هو يصدق به، ويثق به ثقة مطلقة، ويتذكره دائماً وهو يواجه الأعداء الكافرين، ويتحداهم ويتصدى لهم.

يتذكر وعد الله دائماً في هذه المواجهة، ليصبر على شدائدها، ويتحمل تكاليفها، وينتظر يوم النصر، ويوقن بتحقيقه ولو تأخر قليلاً.

يجب أن يستبشر المؤمن البشري المطلقة، بأن المستقبل لدينه، والهزيمة لأعدائه، وهذه البشري تملؤه أملاً، وتدفعه إلى مزيد من الجهاد والعمل، وتقضي على وساوس الشيطان له، ومحاولاته إحباطه وتثيسه، وإماتة الأمل والأمانى المشرقة عنده!

وفي القرآن آيات كثيرة تدعو إلى تبشير المؤمنين المجاهدين، المواجهين لأعداء الله، وتطلب منهم عدم اليأس والإحباط والقنوط، وتزِيلُ وساوس الشيطان في نفوسهم، وإبطاله لأمنياتهم!

ولنقف مع بعض هذه الآيات، لنأخذ منها البشريات والآمال، نستعين بها على مشقات الطريق الطويل، ونعالج بها هواجس اليأس والقنوط والإحباط!

موسى يبشّر أتباعه المؤمنين:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُثُوتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

تدل هذه الآية على أن التبشير بالفرج والنصر ليس خاصاً بهذه الأمة، إنما هو عام لكل مسلمين مواجهين لقوى الباطل، وكان الرسل السابقون عليهم الصلاة والسلام يبشرون أتباعهم المؤمنين بالفرج والنصر.

ففي هذه الآية، يأمرُ اللهُ موسى وهارونَ عليهما السلام أن يتبَوَّأا البيوتَ الخفيةَ السريةَ لقومِهما الإسرائيليين في مصر، التي كانوا يواجهون فيها تعذيبَ فرعونَ وآله، وأن يَجْعَلُوا تلك البيوتَ قبلةً لهم، يَعبُدُونَ اللهَ فيها، ويقيمون فيها الصلاة.

وأمرَ اللهُ موسى عليه السلام أن يُبَشِّرَ أَتباعَه المؤمنين بقرب الخلاص والفرَج. ونفذَ موسى عليه السلام أمرَ الله، وبَشَّرَهم البشرى المشرقة، وسَطَ «تبرُّمهم» منه، واعتراضِهم عليه، واستبعادِهم الفَرَج، وانزعاجِهم من طولِ الطريقِ وشِدَّتِه!

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٨) قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

موسى عليه السلام يَطلبُ من الإسرائيليين المعدِّين المضطهدين، أن يَستعينوا بالله وَيَصْبِرُوا، وَيُبَشِّرُهُمْ بأنَّ الفَرَجَ آتٍ، فالأرضُ لله، يورثُها مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وينزعُها ممن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَيُهْلِكُ الكافرين الظالمين، ويجعلُ العاقبةَ لعباده المتقين.

لكنَّ قومه كانوا غلاظاً قساةَ القلوب، فلم يَقْبَلُوا هذا التبشيرَ، وإنَّما تبرَّموا به وبدعوتِه، وقالوا له: لم نستفِدْ منك شيئاً، فقد نالنا الأذى والعذابُ من فرعون قبلَ أن تَأْتِيَنَا، وها هو العذابُ والأذى يُصَبُّ علينا من بعدِ ما جِئْتَنَا، فماذا استفدنا منك؟ ولماذا لم تَوقِفْ هذا الإيذاءَ عنا؟.

ردَّ موسى عليه السلام على اعتراضِهم وتبرُّمهم، بتبشيرٍ صريحٍ لهم، وقال: عسى اللهُ أن يُهْلِكَ فرعونَ وجنوده، ويُفَرِّجَ عنكم ما أنتم فيه، ويستخلفكم من بعدهم في الأرض.

وقد تحققت هذه البشرى بعد ذلك، عندما أنجى اللهُ موسى عليه السلام ومن معه أجمعين، وأغرقَ فرعونَ وجنوده، واستخلفَ بني إسرائيل، وأورثهم الأرض، قال تعالى: ﴿وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ

وَمَعْرِبَهَا أَلَّتِي بَدَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا
وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿[الأعراف: ١٣٧]﴾

القرآن يبشّر المؤمنين:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

القرآن كتابٌ تبشّر، فهو يرشد المؤمنين للخير، ويهديهم للطريق الأقوم والأصلح، ويقدم لهم البشرى بالفلاح والنجاح والفوز، في الدنيا والآخرة.

وتكمن البشرى القرآنية في وعده الصادقة المتحققة، التي يعدُّ بها المؤمنين الصالحين، كما تكمن في ما يذكره القرآن من قصص السابقين، ويركّز على مواطن الصبر فيها، بإهلاك أهل الباطل، وانتصار أهل الحق.

واللطيف في التعبير القرآني، أنَّ هذه الآية: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ
أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جاءت بعد عدة آيات، تحدّثت عن إفسادين كبيرين لبني
إسرائيل، مقرونين بعلو واستكبار، موجّهين ضدّ الأمة المسلمة، وذكرت كيفية
القضاء على ذينك الإفسادين وإزالتها.

فمن المناسب أن يأتي الحديث عن تبشير القرآن للمؤمنين، بعد الحديث
عن إزالة الإفسادين اليهوديين، ليكون من مظاهر التبشير القرآني تقريره أنَّ إزالة
الإفسادين حقيقة قرآنية قاطعة، وبشرى قرآنية واقعة!

واللطيف أيضاً: أنَّ التعبير عن التبشير القرآني جاء بصيغة الفعل المضارع:
﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ذلك الفعل الدالُّ على التجدد
والاستمرار. وهذا معناه: أنَّ البشرى القرآنية متجددة، فكلمة قرأ المؤمن البصير
المبتلى آيات القرآن بوعي وتدبّر وبصيرة، كلما تزوّد من تلك البشرى بالزاد
العظيم الذي يُعينه على الثبات والصبر.

الأمر بتبشير العباد الصالحين:

ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكَ الْبَشَرِ
فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ
هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

يُثْنِي اللهُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ عَلَى عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يَسْتَحَقُّونَ الْبَشْرَى الْمَشْرُقَةَ، فَهُمْ مُؤْمِنُونَ، اجْتَنَبُوا عِبَادَةَ الطَّاغُوتِ، وَعَبَدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَأَنَابُوا لَهُ وَحْدَهُ، وَاسْتَمَعُوا كَلَامَهُ، وَاتَّبَعُوهُ وَالتَّزَمُوهُ، وَاهْتَدَوْا بِهِ، وَبِذَلِكَ كَانُوا مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ الْوَاعِيَةِ، وَأَصْحَابِ الْعُقُولِ الْكَبِيرَةِ.

هؤلاء لهم البشْرَى من الله، بأنَّ يعيشوا في الدنيا حياةً طيبةً سعيدةً، في ظلالِ ذِكْرِ اللهِ وَطَاعَتِهِ، وبأنَّ يَتَنَعَّمُوا فِي الْآخِرَةِ بِجَنَّتِهِ.

هؤلاء العبادُ الرَّبَّانِيونَ مَكْرَمُونَ عِنْدَ اللهِ، وَلِذَلِكَ يَأْمُرُ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُبَشِّرَهُمْ بِالْخَيْرِ وَالْفَلَاحِ، وَذَلِكَ لَتَشْرِقَ أَرْوَاحُهُمْ، وَتَسْتَنِيرَ قُلُوبُهُمْ، وَتَنْشَطَ هِمْمُهُمْ، وَتَقْوَى عِزَائِهِمْ.

هؤلاء العبادُ الَّذِينَ يَبَشِّرُهُم الرَّسُولُ ﷺ فِي الدُّنْيَا، يُنَزِّلُ اللهُ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَتَهُ عِنْدَ احْتِضَارِهِمْ لَطْمَأَنِيهِمْ وَتَأْمِينِهِمْ وَتَبَشِيرِهِمْ، لِيُغَادِرُوا هَذِهِ الدُّنْيَا سَعْدَاءَ آمِنِينَ مَطْمَئِنِينَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

البشْرَى لِلأُولِيَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٧﴾ لَهُمُ الْبَشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ ذَلَالٌ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

تقرُّ هذه الآياتُ حَقِيقَةً قَاطِعَةً، وَهِيَ تَأْمِينُ وَحَفْظُ وَحِمَايَةُ اللهِ لِأَوْلِيَائِهِ، الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، وَبِمَا أَنَّ اللَّهَ يَحْفَظُهُمْ وَيَحْمِيهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَعِيشُونَ حَيَاتَهُمْ بِدُونِ خَوْفٍ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ، وَلَا حُزْنٍ عَلَى الْمَاضِي.

وَتَقْدُمُ الْآيَاتُ صَفَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ لِهَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءِ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: الْإِيمَانُ الْعَظِيمُ الْحَيُّ، الْمُؤَثِّرُ الْمُحَرِّكُ، الَّذِي يَنْتِجُ عَنْهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَالِاسْتِقَامَةُ. ثُمَّ التَّقْوَى الْعَظِيمَةُ لِلَّهِ، الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ صَاحِبِهَا وَبَيْنَ ارْتِكَابِ مَا حَرَّمَ اللهُ، أَوْ تَرَكَ مَا أَوْجَبَ اللهُ، وَتَجْعَلُهُ يَعِيشُ مَعْنَى مَعِيَةِ اللهِ، وَمِرَاقَبَتِهِ لَهُ.

هؤلاء الأولياء يستحقون البشرى العامة، الشاملة المطلقة: ﴿لَهُمُ الْبَشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

وبُشراهم في الدنيا تشمل كل مجالات حياتهم، فيما أنعم أولياء الله، مؤمنون متقون، فإن الله يوفّقهم ليعيشوا الحياة الطيبة المباركة السعيدة، عابدين ذاكرين مطيعين لله، ومعلوم أنه لا طعم ولا معنى للحياة، إن لم يعشها صاحبها في عبادة الله وطاعته.

وهم مفلحون في أعمالهم، ناجحون في أدائهم لها، فائزون في نهايتها، وسَجَّلَ الله لهم أجرها وثوابها.

وبُشراهم في الآخرة تتحقق، عندما يُظْلَمُ الله في ظله، وهم في ساحة الموقف، وعندما يتجاوز عن ذنوبهم، ويُثَقِّلُ موازينهم، ويُعطيهم كتبهم بأيامهم، ويدخلهم الجنة برحمته وفضله، ويجعلهم منعمين خالدين فيها أبداً.

وأخبرت الآيات أنه لا تبديل لكلمات الله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾. أي: لا تغيير للحقائق المذكورة في هذه الآيات، ولا تراجع عن البشرى للأولياء المبشرين، وهذا هو الفوز العظيم، الذي يمن الله به على أوليائه: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

البشرى للصابرين:

خامساً: قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

يخبر الله المؤمنين أن حياتهم قائمة على الابتلاء والاختبار والامتحان، حتى يوطنوا أنفسهم على ذلك، ويستعدوا لمواجهة، ولا يُفاجؤوا به. وهو سبحانه سيبتلي المؤمنين بشيء من الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات.

ويدعوهم الله إلى مواجهة ذلك كله بالصبر والاحتساب، وكلما أصابتهُم

أكرم الله المؤمنين الصادقين، بأن اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، وجعل ثمن هذه الصفقة الجنة، يدخلهم فيها منعمين مكرمين، لكن طريقة تسليم الأنفس والأموال المبيعة، هي جهادهم الصادق في سبيل الله، وقتالهم المستمر لأعداء الله.

وأكرم الله المؤمنين الصادقين إكراماً آخر، بأن جعل هذه الصفقة الكبيرة وعداً عليه حقاً، ألزم نفسه بإنفاذه رحمة وكرماً وفضلاً، وجعل هذا الوعد في كتبه الثلاثة المنزلة: التوراة والإنجيل والقرآن.

ودعا الله هؤلاء المؤمنين إلى الاستبشار بقبول هذا البيع، الذي باعوه لله: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وما أعظم أن يُجاهد المجاهد في سبيل الله، ويقتحم الميدان، ويقاتل الأعداء، وهو مستبشر سعيد مسرور، راضٍ عن ربّه الكريم، موقن بإنجاز وعده العظيم، مقبل عليه بحيوية وتفاعل، وشجاعة وإشراق!

ولا بدّ للمؤمنين المجاهدين من أن يتصفوا بالصفات الإيجابية العظيمة، التي ذكرتها الآية الثانية، ليصدّقوا في البيعة، وينالوا الثمن والجزاء والكرامة: التائبون، العابدون، الحامدون، السائحون، الراكعون، الساجدون، الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر.

هؤلاء المؤمنون هم أكرم الناس على الله، وهم أفضل من على وجه الأرض، يُباهي الله بهم ملائكته، ويحوطهم بحفظه ورعايته.

ومن كرامتهم على الله، أنه يأمرُ رسوله ﷺ أن يُبشّرهم البشرى المطلقة: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. البشرى بالخير والتوفيق في الدنيا، والاستمتاع فيها بالحياة الطيبة، وبالجنة ونعيمها في الآخرة!

البشرى بالفوز والربح والنجاة:

سابعاً: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرٍ مُّسْتَبِرٍّ تَبْتَغُونَهُ مِنْ عَذَابِ إِلَهِم ۖ تَتُوبُونَ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسُكُنُوا فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۚ﴾

وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرَ مَنِ اللَّهُ وَفَتْحَ قَرِيبٍ وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣-١٠﴾ [الصف: ١٣-١٠].

أَمَرَ اللهُ رَسُوْلَهُ ﷺ بِتَبْشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْجِهَادِيَّةِ (سُورَةُ الصَّف)، وَوَرَدَ فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنِ الْجِهَادِ، بِاعْتِبَارِهِ التَّجَارَةَ الرَّابِحَةَ الْمُنْجِيَّةَ، وَهُوَ السِّيَاقُ نَفْسُهُ الَّذِي وَرَدَ فِيهِ الْأَمْرُ بِالتَّبْشِيرِ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ، الَّذِي تَحَدَّثْنَا عَنْهُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ.

الْجِهَادُ تِجَارَةٌ رَابِحَةٌ، مُنْجِيَّةٌ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، وَالْقَعُودُ عَنْهُ خَسَارَةٌ، وَسَبَبٌ لِلْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَالْجِهَادُ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالْقَعُودُ شَرٌّ لَهُمْ.

وَلِلْجِهَادِ نَتَائِجٌ عَظِيمَةٌ، وَثَمَرَاتٌ بَاهِرَةٌ، لَا يُمْكِنُ لِلْأُمَّةِ أَنْ تَنَالَهَا إِلَّا بِهِ، مِثْلَ مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ، وَدُخُولِ الْجَنَاتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَتَمَلُّكِ الْمَسَاكِينِ الطَّيِّبَةِ فِي جَنَاتِ عَدْنٍ، وَتَحْقِيقِ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ وَالْفَلَاحِ الْكَبِيرِ.

وَمِنْ نَتَائِجِ الْجِهَادِ الْعَظِيمَةِ فِي الدُّنْيَا تَحَقُّقُ النَّصْرِ مِنَ اللَّهِ، وَالْحَصُولُ عَلَى الْفَتْحِ الْقَرِيبِ.. وَالْقَعُودُ عَنِ الْجِهَادِ لَا يَفْتَحُ بِلَادًا، وَلَا يَجْلِبُ نَصْرًا، وَلَا يَحْرُرُ وَطَنًا، وَلَا يَدْفَعُ عَدُوًّا.

وَفِي خَاتَمَةِ الْحَدِيثِ عَنْ ثَمَرَاتِ وَمَكَاسِبِ الْجِهَادِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، يَأْمُرُ اللَّهُ رَسُوْلَهُ ﷺ أَنْ يَبْشِرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَجَاهِدِينَ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

بِمَاذَا يَبْشِرُهُمْ؟ يَبْشِرُهُمْ بِشَرِّ مُطْلَقَةٍ، بِالْحَصُولِ عَلَى كُلِّ مَظَاهِرِ الْخَيْرِ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمِنْ أَهْمِّهَا اكْتِسَابُ ثَمَرَاتِ الْجِهَادِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي قَرَرْتُهَا هَذِهِ الْآيَاتُ!.

الْقُرْآنُ حَرِيصٌ عَلَى تَبْشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، وَالْمَجَاهِدِينَ الثَّابِتِينَ، وَهُمْ يَنَالُونَ الْبَشْرَى الْقَرَانِيَّةَ بَيِّقِينَ، فَيَفْرَحُونَ وَيَنْشَطُونَ، وَيُؤَدُّونَ وَاجِبَاتِهِمْ، وَهُمْ مَهْمُهُمْ عَالِيَةٌ، وَنَفْسُهُمْ مَشْرُوقَةٌ، وَأَمَالُهُمْ عَرِيضَةٌ، وَقَدْ أَبْعَدُوا عَنْهُمْ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ، وَتَدَسَّسَ هَوَاجِسَ الْيَأْسِ أَوْ الْقُنُوطِ أَوْ الْإِحْبَاطِ، يَحْدُوهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْتِسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّكُمْ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

* * *

القِسْمُ الثَّانِي
الوَعْدُ لِقَرَأَانَيْهِ فِي سُورَةِ الْمَكِّيَّةِ

الوعد لقرآني في سورة الأنعام

سورة الأنعام مكية، موضوعها الأساسي هو العقيدة، فهي تعرض حقائق العقيدة، وتقدم الأدلة على وحدانية الله، وتقيم الحجّة على الكافرين، وتفنّد ما هم عليه من كفرٍ وشرك، وتبطل إشاعاتهم وشبهاتهم ضدّ الحق، وتقوّد المؤمنين في مواجهة الباطل.

وأُنزلت سورة الأنعام في فترة حرجية شديدة، عاشتها الدعوة الإسلامية في مكة، وكانت أقسى الفترات التي مرّت بها، وكان هذا في سنوات حصار المؤمنين في شعب أبي طالب، وما أعقبها من عام الحزن، وإيذاء الرسول ﷺ في الطائف، إلى أن كانت حادثة الإسراء والمعراج.

كانت الدعوة الإسلامية محاصرة حصاراً شديداً في هذه الفترة الحرجة، حيث اشتدّ إيذاء وتعذيب الكافرين للمسلمين، وكان المسلمون يبحثون عن مخرج لهذا الحصار، وينتظرون الفرج من الله.

وأُنزلت سورة الأنعام في هذه الفترة الحرجة، بهدف تعليم المسلمين الحجّة، وملء قلوبهم بالأمل، ورفع همهم ومعنوياتهم وعزائمهم.

ولذلك تضمّنت آيات السورة وعوداً قرآنية بهزيمة وعقاب الكافرين، ونصر المسلمين، والتمكين لهم في الأرض. وكانت الوعود في الآيات التالية:

تهديد الكفار بالهزيمة في غزوة بدر:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿[الأنعام: ٤-٥].

تحدّث الآيتان عن موقف الكفار من الحق، فقد تعاملوا معه بعنادٍ

واستكبار، وكلّما أسمعهم رسول الله ﷺ آيات من القرآن، وفهموا ما فيها من أدلة وحجج وبراهين، كانوا يُعرضون عنها عناداً، فلا يُقرّون أنّها من عند الله، ولا يؤمنون بأنّ القرآن كلام الله، ولا يعترفون أنّ محمداً هو رسول الله ﷺ، وإنما كانوا يُكذّبون بالحقّ الواضح، ويستهزئون بالرسول ﷺ، ويسخرون من المؤمنين، ويزدادون عداوةً للحقّ وأهله.

وعندما كان يُخبرهم رسول الله ﷺ بأنّه سينتصر عليهم، يزدادون سخريّة واستهزاءً، وتكذيباً للرسول ﷺ. حيث كانوا ينظرون لذلك نظرةً ماديةً، فهم أكثر قوةً وعدداً ومالاً، والمسلمون مستضعفون فقراء أقلية، لا يملكون مالاً ولا سلاحاً ولا كيّناً، فكيف يهزمون أهل مكة الأقوياء، ويتغلّبون عليهم؟.

وقد توعدّهم الله وهدّدهم بالعذاب: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

والمعنى: كَذَّبَ الكفارُ بالحق، ونَفَوْا أَنْ ينتصر، وهم مُخطئون في ذلك، وسوف تأتيهم الأنبياء التي كانوا يُكذّبون ويستهزئون بها، وذلك عندما تتحقّق الوعود التي وعد الله بها المؤمنين، والتوعدّات التي توعدّ الله بها الكافرين.

وإتيانُ الأنبياء إليهم، عندما تشبّ المعاركُ بينهم وبين المسلمين، وعندما ينصرُ الله المؤمنين عليهم.

فهذه الجملة: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وعُدُّ للمؤمنين بالنصر، ووعدٌ للكفارِ بالهزيمة.

وقد تحقّق الوعدُ بعد بضع سنين من نزولِ هذه الآيات، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة، على أرض معركة بدر، حيث نصرَ الله الحق، وهزمَ الباطل، وفقدَ الكافرون زعيمهم أبا جهل، وسبعين رجلاً معه، إضافةً إلى الجرحى والأسرى منهم.

ولما أصاب المشركين في بدرٍ ما أصابهم، أتتهم الأنبياء التي كانوا يستهزئون بها، وتحقّقت الوعودُ القرآنيّة في الآياتِ المكيّة، بهزيمة الكافرين وانتصار المؤمنين، وعاش المؤمنون والكافرون صورتها العملية الواقعية، وبذلك تحوّل الوعدُ القرآني من صورته النظرية إلى صورته العملية.

الكفار خاسرون في حرب الإسلام:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

تحدث الآية عن جهود الكفار في محاربة القرآن، والوقوف أمام رسول الله ﷺ، وتبين أنهم لن ينجحوا في ذلك، وهم الذين سيخسرون.

كان زعماء وقادة الكفار ينهون أتباعهم عن الدخول في الإسلام، ومتابعة رسول الله ﷺ، وينأون هم عنه، ويتعدون عن الإيمان به.

وتعود الهاء في ﴿عنه﴾ على رسول الله ﷺ، وما معه من القرآن والحق، أي: ينهى زعماء قريش أتباعهم عن الإيمان بالرسول ﷺ، وهم يتأون ويتعدون عنه.

لقد ارتكب هؤلاء الزعماء جريمتين: الجريمة الأولى في حق أنفسهم، حيث كفروا ونأوا وابتعدوا عن الإيمان. . والجريمة الثانية في حق الآخرين، حيث نهوهم عن الإيمان.

وهدفهم من النأي والنهي القضاء على الحق، وإبطال دعوة الرسول ﷺ، والتغلب عليه، وهزيمته في النهاية.

وأشارت إلى هذه الجرائم والوسائل الخبيثة آيات أخرى في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

طلب قادة الكفار من أتباعهم أن لا يستمعوا للقرآن، وأن يلغوا فيه ويشوشوا عليه، لئلا يسمعه الآخرون، لأنهم يخشون أن يؤمن الآخرون به إذا استمعوا له، لأنه سرعان ما يدخل القلب ويؤثر فيه، والحل عندهم هو اللغو والتشويش لئلا يستمعوا له!

هل ينجح الكفار في اللغو والتشويش على القرآن؟ وفي إيقاف انتشاره عندما ينهون وينأون عنه؟ وهل يمكن أن يغلوه ويهزموه؟.

الجواب بالنفي. وقد حسمت الآية المسألة، وقررت نتيجة حريهم

للقرآن، بأنهم الخاسرون الهالكون: ﴿وَلَنْ يُّهْلِكَ الْإِنْفُسُ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ .

وهذا وعدٌ قرآنيٌّ قاطع، صيغَ بهذه الجملة المحددة، حيث نفت إمكانية نجاحهم أو انتصارهم، وحصرت الهلاكَ بهم، ومعلومٌ أنَّ اجتماعَ «إن» النافية، و«إلا» الاستثنائية معاً يدلُّ على الحصر: ﴿وَلَنْ يُّهْلِكَ الْإِنْفُسُ﴾ .

الكفار لا يفكرون في العواقب:

إنَّ الكفارَ - في الماضي والحاضر والمستقبل - يهلكون أنفسهم بأنفسهم، ويجلبون العذابَ لأنفسهم بأنفسهم، ويحفرون قُبُورَهم بأيديهم، ولا يحقُّ المكرُ السيئُ إلاَّ بأهله .

ولذلك نفت الآيةُ عنهم الشعورَ بعواقبِ الأمور: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ .

إنهم حاقدون متوترُّون هائجون، يُحاربون القرآنَ بعصبيَّةٍ وتشنُّجٍ ونزقٍ، ويَرسُمون الخططَ والمؤامرات، ويستخدِمون مختلفَ الأساليبِ والوسائلِ، ويظنُّون أنهم سينجحون في مسعاهم، وسيقضون على القرآن . . وما درى هؤلاء المساكينُ أنهم سيفشلون في حربهم، وأنَّ القرآنَ سيخرجُ منها قوياً ظافراً منصوراً، وهم الذين يهلكون ويخسرون وينهزمون .

ولو كانوا يشعرون في غمرةِ تخطيطهم وهياجهم، ولو كانوا يرونَ هذه النهايةَ التعيسةَ البائسةَ لحربهم، فقد يتخلَّون عنها . .

وقد تحقَّقَ الوعدُ القرآنيُّ في هذه الآية، وسجَّلَ التاريخُ مصيرَ الذين كانوا ينهون عنه وينأَوْنَ عنه، ويطلبون من أتباعهم عدمَ الاستماعِ للقرآنِ واللغو فيه والتشويشِ عليه! ولنتذكَّرُ مصيرَ زعماءِ قريش، ونتائجَ حربهم للقرآن، ونتذكَّرُ نتائجَ جهودِ المنافقين واليهودِ في المدينة في حربهم للقرآن، ونتذكَّرُ حروبَ قوى الكفرِ المختلفةِ للقرآن، ونلاحظُ خروجَ القرآنِ من كلِّ حربٍ منتصراً، ووقوعَ الفشلِ والخسارةِ والهلاكِ بأعدائه! .

تكذيب الكفار بالوعد القرآنية:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ بَلَاءٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٦ - ٦٧] .

الخطابُ في الآية من الله لرسوله ﷺ، بهدفِ مواساتِهِ وتسلِيَتِهِ، على ما يجدُ من تكذيبِ قومه بما معه من الحق .

يقولُ الله له : لقد كَذَّبَ قومُكَ الكفارُ بالقرآنِ الذي معكَ، مع أَنَّهُ الحق من عندِ الله، وكلُّ ما فيه صوابٌ وصحيح، ولا باطلَ فيه . وعليك أَن تقولَ لهؤلاءِ الكافرينَ المكذِّبينَ : أَنَا لستُ وكيلاً عليكم . أي : لا يجبُ عَلَيَّ قذفُ الإيمانِ في قلوبِكُم، وإدخالِكُم في الإسلامِ بقوة وإكراه ! إِنَّ واجبي هو في دعوتِكُم وتذكيرِكُم ونصحِكُم، وإقامةِ الحجَّةِ عليكم، فإن استجبْتُم لي كنتم فائزين، وإن رفضْتُم دعوتي كنتم خاسرين، ولا يضرُّني ذلك شيئاً .

ومن مظاهرِ تكذيبِ الكفارِ بالحق، تكذيبُهُم بالوعدِ القرآنية، التي كانت تُحدِّدُ نهايةَ المواجهةِ بين جنودِ الحق وجنودِ الباطل، وتجزُّمُ بانتصارِ الحقِّ وهزيمةِ الباطل، في وقتٍ كان فيه الكفارُ في مكة غالبيين مسيطرين، وكان المسلمون مستضعفين معذبين، فعندما كان الكفارُ يسمعونَ تلكَ الوعدَ كانوا يسخرونَ ويستهزئون، وردَّت الآيةُ على موقفِهِم بتأكيدِ تحقُّقِ تلكَ الوعدِ: ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

النَّبَأُ هو الخبرُ الصادقُ المهمُّ، الذي يهْمُ صاحِبُه . واستقرارُ النبأِ تحقُّقه في الواقع، في صورةٍ عمليةٍ واقعيةٍ مشاهدةٍ .

استقرار وتحقق الوعد القرآنية:

المرادُ بالنَّبَأِ الوعدُ القرآنيةُ الجازمةُ بانتصارِ الإسلامِ وهزيمةِ الكفر في المستقبل، والمرادُ باستقرارِ النبأِ تحقُّقُ هذه الوعدِ على الأرض .

مثلاً: قوله تعالى: ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] نبأ، يتضمَّنُ وعداً بانتصارِ المسلمين وهزيمةِ المشركين . واستقرارُه في غزوةِ بدر، حيثُ هُزِمَ الكفارُ فعلاً .

وقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١ - ٣] نبأ، يجزُّمُ بوفاةِ أبي لهبٍ على الكفر، ووعدٌ له بأنَّه سيعذبُ في النارِ يومَ القيامة . . وكان استقرارُ هذا النبأِ

في الدنيا ما حصل لأبي لهب بعد غزوة بدر، حيث مات كافراً مهموماً حزيناً. وبذلك تحقق له ما تنبأ وجزم به القرآن، وله استقرار آخر يوم القيامة، حيث سيدخل الله أبا لهب نار جهنم.

وبعدما جُزمت الآية باستقرار أنبياء القرآن، وتحقق وعوده عملياً في المستقبل، هدّدت المشركين الذين يُكذّبون بأنبياء القرآن، ويجعلون وقوعها مستحيلاً، فقالت لهم: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: أنتم تكذبون بأنبياء القرآن، وتجزمون أنها لن تتحقق، وتوقنون أنكم ستغلبون المسلمين، وتتصرون عليهم، أنتم في ذلك جاهلون، لا تعلمون ولا تشعرون، ولا تعرفون ماذا سيكون في المستقبل. . ولكنكم عندما ترون استقرار أنبياء القرآن وتحقق وعوده، ستعلمون مقدار جهلكم وغبايتكم، ومقدار خسارتكم وإحباطكم!! ولكن هذا العلم لن ينفعكم، لأنه سيكون بعد فوات الأوان.

ولقد علّم الكفار استقرار أنبياء القرآن، عندما تحققت وعوده في المعارك والغزوات بعد الهجرة، في بدر وأحد والأحزاب وحنين. . وعلّم الفرس والروم استقرار أنبياء القرآن عندما انتشروا واستقرّ الإسلام في المنطقة!.

وسيعلّم اليهود والصليبيون استقرار أنبياء القرآن وتحقق وعوده، عندما ينتصر الإسلام في المستقبل القريب إن شاء الله: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

الكفار موعودون بعذاب الله:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَأْ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (١٣٣) إِنَّ مَا تَوْعَدُونَ لَأَتِي وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ [الأنعام: ١٣٣-١٣٥].

هذه الآيات في سلسلة المواجهة بين الحق والباطل، والصراع بين رسول الله ﷺ وبين المشركين في مكة.

يُخاطبُ اللهُ رسوله ﷺ، ليزيده إيماناً ويقيناً بانتصاره على أعدائه، وأملاً

بأنَّ المستقبلَ له ولدينه، يقولُ اللهُ له: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ فهو غنيٌّ عن عباده جميعاً، لا تنفعُه طاعةُ المطيعين منهم، ولا يضرُّه كفرُ الكافرين منهم. . وهو مع غناه رحيمٌ بعباده، بعثَ لهم الرسولَ عليه الصلاة والسلام، وأنزلَ عليه القرآن، ودلَّهم على طريقِ الحق، وقبِلَ منهم العبادة والعملَ الصالح، وتجاوزَ عن ذنوبهم وسيئاتهم.

وأمرَ اللهُ رسوله ﷺ أَنْ يُهْدِيَ الْكَافِرِينَ بِالْعَذَابِ، بأنَّ يقولَ لهم: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

أي: اللهُ قويٌّ قادر، فعَالٌ لما يريد، وأنتم لا تُعْجِزُونَ الله، فإذا أرادَ إهلاككم واستخلافَ غيرِكم بعدكم، فعَلَّ ذلك وأهلككم؛ لأنَّه لا رادَّ لأمره، ولا مُبْطِلٌ لإرادته.

وهو سبحانه قد فعلَ ذلك بالكفارِ المكذِّبين من قبلكم، كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودٍ وقومِ فرعون وغيرهم، حيث أهلكهم واستخلفَ آخرينَ بعدهم، وأنتم أنفُسُكم أنشأكم اللهُ من ذريةٍ ونسلٍ قومٍ آخرين من قبلكم، أهلكهم وجعلكم خلفاءَ مكانهم.

وبمعنى هذه الآيةِ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ثمَّ جعلناكم خَلَفًا فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [يونس: ١٣ - ١٤].

كما أمرَ اللهُ رسوله ﷺ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ مَهْدِداً متوعداً: ﴿إِنَّ مَا تَعْدُونَ لَأَنَّى وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

أي: ما وعدكم اللهُ به من العذاب، سوف يأتيكم ويقعُ بكم ويصيبكم لا محالة، وأنتم مهما ملكتم من القوة فإنكم لا تُعْجِزُونَ الله، ولا تُعْطِلُونَ إرادته.

والذي وعدهم اللهُ به أمران:

الأمرُ الأول: فَسَلُّهُمْ فِي حَرْبِهِمْ لِلْحَقِّ فِي الدُّنْيَا، وانتصارُ الحقِّ وامتداده وانتشاره، ورسوخه في حياةِ الناس. وقد تحقَّقَ هذا، حتى في أيامِ الرسولِ ﷺ، حيثُ حقَّقَ انتصاراتٍ متواليةً على الكافرين. . كما تحقَّقَ بعد انتقاله ﷺ للرفيقِ

الأعلى، وما زالَ يتحققُ حتى في أيامنا، رغمَ اشتدادِ حربِ اليهودِ والصليبيينِ ضدَّ الإسلامِ والمسلمينِ .

الأمرُ الثاني: بَعَثَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وحسابُهُم على جرائمهم ضدَّ الحق، ثم تعذيبُهُم في نارِ جهنَّمَ .

اعملوا على مكانتكم إني عامل:

وفي انتظارِ تحقُّقِ ما وعدَهُم اللهُ به في الدنيا، كان الرسولُ ﷺ حريصاً على العمل . ولذلك أمرَ اللهُ رسوله ﷺ أَنْ يَقُولَ للمُشْرِكِينَ: ﴿يَقَوْمُ اْعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ .

أَيُّ: يا قوم! اْعْمَلُوا على طريقتكم وخطتكم، واستمروا على نهجكم وبرنامجكم، ونفذوا ما تشاؤون من مخططاتكم، وحاربوني كما تشاؤون .

وأنا أيضاً عاملٌ على مكاني، وأتباعي المؤمنون عاملون على مكانتهم، وسوف نستمرُّ في دعوتنا وعبادتنا، وسنواجهُ عملكم وحربكم بالمواجهةِ والتحدِّي، والصبرِ والثبات، ولن نتوقَّفَ عن عملنا ودعوتنا وعبادتنا وتحدينا وصبرنا . .

ونحنُ نوقنُ أنَّ المستقبلَ لنا، وسوف ينصرُّنا اللهُ عليكم، وعندما تنهزمون أمامنا في المواجهاتِ القادمة، سوف تعلمونُ مَنْ كَانَ اللهُ معه، وَمَنْ كَانَ على الحقِّ، وَمَنْ تكونُ له عاقبةُ الدار، ونتيجَةُ النصرِ والغلبةِ والتمكينِ ! .

وأنتم أيها الكافرونَ الظالمون، والظالمونَ دائماً خاسرون، لأنَّ سَنَةَ اللهِ تَقَرَّرُ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْجَحَ أَوْ يَفْلَحَ الظالمون ! .

وما قاله الرسولُ ﷺ نقوله نحنُ لأعداءِ الإسلام، من اليهودِ والأمريكان وغيرهم: اعملوا على برنامجكم وخطتكم في حربِ الإسلامِ والمسلمين، ونحنُ نعملُ على مكانتنا وطريقنا، وسوف تفشلونَ في حربكم، وسينصرُّنا اللهُ عليكم، وسيجعلُ لنا عاقبةَ الدار، والتمكينَ للإسلام، وعندما يتحقَّقُ ذلك في المستقبلِ بإذنِ الله، سوف تعلمون مقدارَ خسارتكم وهزيمتكم وحسرتكم !! .

* * *

الوعد القرآني في سورة الأعراف

سورة الأعراف مكية، نازلة في الفترة الحرجة الشديدة نفسها، التي مرّت بها الدعوة الإسلامية في مكة، والتي تحدّثنا عن بعض ملامحها في المبحث السابق، الذي عرضنا فيه الوعد القرآني في سورة الأنعام، ولذلك كان من أهداف السورة تنفيذ شبهات ودعاوى المشركين، والانتصار للحق، وتعليم المؤمنين الحجة، وملء قلوبهم بالأمل واليقين بانتصار الإسلام وأهله، وهزيمة الكفر وأهله، وتقديم الوعد الجازم النافذ بتحقيق ذلك.

وحققت السورة هذه الأهداف، عن طريق (استعراض) الموكب الإيماني الكريم، الذي يقوده الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، في مواجهة الكافرين المكذّبين، حيث كان سياق السورة المتتابع يتوقّف في (محطات) خاصة، للعبارة والعظة، يُبرز فيها نهاية كلّ جولة من جولات الصراع بين الحقّ والباطل، التي تحقّقت في انتصار الحق، ونجاة الرسل وأتباعهم المؤمنين، وهزيمة الكفر وإهلاك الكافرين.

بدأ الاستعراض بقصة آدم عليه السلام ضدّ إبليس، ومرّ بقصة نوح عليه السلام، ثم بقصة هود، ثم بقصة صالح، ثم بقصة لوط، ثم بقصة شعيب، عليهم الصلاة والسلام، وكانت الوقفة طويلة أمام قصة موسى عليه السلام أمام فرعون، عرضت فيها لقطات منوعة من قصة بني إسرائيل، وأدانتهم لخروجهم على شرع الله!.

ودلّ الاستعراض الهادف على حقيقة قرآنية إيمانية، هي: هزيمة الباطل، وإهلاك أهله الكافرين، وفشلهم في مواجهة الحق، وانتصار الحقّ وأهله، والتمكين لهم في الأرض.

وتؤخّذ هذه الحقيقة المقرّرة للوعد القرآني من آيات السورة التالية:

الحديث عن الآجال الثلاثة:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

تحدث الآية عن أعمار الأمم وآجالها، فإذا ما انتهى عمرُ أمةٍ وجاءَ أجلُها، انتهت وزالت.

لقد جعل الله الحكيمُ للمخلوقاتِ آجالاً ثلاثة:

أجل كل إنسان:

١ - الأجلُ الخاصُّ بكلِّ إنسان: حيثُ حدَّدَ الله لكلِّ إنسانٍ عمره، وقَدَّرَ له أجله، فإذا انتهى عمره ودنا أجله، قبضه وأماته.

وقرَّرت هذه الحقيقة المتفق عليها، آياتٌ عديدة من القرآن؛ منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلَ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

وإذا دنا أجلُ إنسان، وأتاه ملك الموت لقبض روحه، وطلب التأخير، فإنه لا يستجاب له، لأنه لا يؤخَّرُ الأجل، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٠-١١].

أجل كل أمة:

٢ - الأجل المتعلِّقُ بكلِّ أمة: فالله هو الذي يوجد الأمة، ويمكنُ لها في الأرض، ويُنعِمُ عليها بالعديد من النعم، ويطالبُها بذكره وشكره، وهو سبحانه يحدِّد لها عمرها، ويقدِّرُ زماناً معيناً لقوتها وسلطانها، ونفوذها ووجودها..

فإذا جاء أجلُ الأمة، أوقع الله بها أمره، وقضى عليها، وذلك إمَّا بتدميرها وإهلاكها، كما فعل مع الأقوام السابقين، كقوم نوح وعاد وثمود، وإمَّا بإضعافها وإزالة نفوذها، وتقلُّص سلطانها.

كما حصل مع الروم والفرس والهنود في الماضي، وكما حصل مع أمم قوية معاصرة؛ كالإسبان والطيّليان، والإنكليز والروس والألمان! .

وتحدّث القرآن عن آجال الأمم المحدّدة في عدّة آيات، إضافةً إلى هذه الآية من سورة الأعراف. منها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعِجِرُونَ﴾ [الحجر: ٤ - ٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَأْخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ ذَابِقَةٍ وَلَكِنْ يُوَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَعِجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

أجل الحياة الدنيا:

٣ - الأجل المتعلّق بالدنيا: فالله خلق الكون كلّهُ، بما فيه من سماواتٍ وأرض، ونجوم وكواكب، وشمسٍ وقمر. وحدّد لهذا الكون عمراً، وقضى له أجلاً، فإذا جاء هذا الأجل المسمّى المحدّد، أزال الله هذا الكون، وأنهى الحياة الدنيا، وقضى على الشمس والقمر والأرض والنجوم، وبذلك تبدأ الحياة الآخرة الدائمة الباقية.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

فالشمس والقمر يجريان ملايين السنين، دون توقّف أو عطب أو تلف، لكن الله حدّد لهما أجلاً مسمى، إذا جاء أفناهما وقضى عليهما.

قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣]. فالسماوات والأرض لهما أجل مسمّى معيّن محدّد، إذا جاء أفناهما الله، وأزال الحياة الدنيا، وبدأت الحياة الآخرة.

تدافع الأمم وتعاقبها:

وحديث سورة الأعراف عن الأجل المحدّد لكلّ أمة، يقدّم وعداً ناجزاً، بإزالة قوّة وسلطان أمم قوية، وإيجاد أمم أخرى وارثة لها: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وهذه الآية تقرّر حقيقة قرآنية تاريخية، حول (تعاقب) الأمم، وتدافعها

فيما بينها، وتداول الأيام والزمان بينها، فلأمم أعمارٌ مثل الأفراد، فالإنسان يولد صغيراً، ثم يكون فتىً فشاباً فكهنلاً فشيخاً، ثم عجوزاً هرمًا، ثم يتوفاه الله . . وهكذا الأمم: تنشأ الأمة وتتحركُ بحركة فتية، ويقوى سلطانها، وتعلو كلمتها، وتهابها باقي الأمم، ثم تكبرُ وتشيع، ثم تهرمُ وتعجز، ثم تنتهي من التأثير والسلطة، وتحوّل من القيادة إلى التبعية، فتذلُّ لأمةٍ أخرى، وتعجزُ أمامها! وسبحان الباقي القويّ الواحد القهار .

لقد انتهت أمة اليونان عندما جاء أجلها، وانتهت أمة الرومان عندما جاء أجلها، وانتهت أمة الفرس عندما جاء أجلها، وورثها الإسلام الحيُّ المؤثر . .

وانتهت في العصر الحديث أمة كبرى عندما جاء أجلها؛ كالفرنسيين والإنكليز، والروس والألمان واليابان . . وأمريكا الآن دولة قوية، وأمة عظيمة، تتحكّم في العالم، ولكنها لن تكون مخلّدة، فالله حدّد لها أجلاً، لا بدّ أن يأتيها، فإذا حان أجلها أنهاها الله، وأزالها عن مركز السيطرة والهيمنة، وهذا وعد نافذ عند الله . وسيرتها الإسلام العظيم، الذي جعله الله دين العالمين حتى قيام الساعة ! .

موسى يعد أتباعه بالفرج والنصر:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْكَلْبُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكِ وَالْهَتَاكَ قَالَ سَنْقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَسَنَكْنِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٨) قَالُوا أَوِذِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧-١٢٩] .

تحدث هذه الآيات عن مشهدٍ من مشاهد قصة موسى عليه السلام مع فرعون، ليأخذ المسلمون منها الدلالة والعبرة .

وكان حديث الآيات السابقة عن إيمان السحرة بموسى عليه السلام، ومفاجأة فرعون بذلك، وتهديدهم بالقتل والصلب والهلاك والفناء .

أما هذه الآيات فإنّها تحدّث عن تهيج الملا لفرعون، ضدّ موسى وأتباعه المؤمنين، وتحريضه على قتلهم، وتوغّد فرعون بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم .

وواجهَ موسى عليه السلام هذا الوعيدَ والتهديدَ، بدعوةِ أَتباعِهِ إلى الإيمانِ بالله، والاستعانةِ به، والتوكُّلِ عليه، والصبرِ على كُلِّ ما يلاقون من العذاب . .

ووعدهم الفرجَ والخلاصَ والنجاةَ، فالأرضُ لله وليس لفرعون، واللهُ يُزِيلُ الطغاةَ الظالمينَ، ويورثُها عبادهُ المؤمنين الصابرين .

ولكنَّ بني إسرائيل كانوا متوتِّرينَ نَرَقينَ، ضيَّقِي الصُّدورَ، فلم يستجيبوا لوصيةِ موسى عليه السلام، ولم يأخذوا ما بَشَّرَهم به، وأذوه قائلين: ﴿أُذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ .

موسى يشير إلى الوراثة بين الأمم:

ولكنَّ موسى عليه السلام لم يفقد هدوءَه وصبرَه عليهم، وأعادَ لهم البُشْرَى بالفرجِ، والوعدَ بالخلاص والنصر والتمكين، وقال لهم: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ .

لقد لفتَ موسى عليه السلام أنظارَهم إلى سُنَّةِ ربانيةِ مطردة، هي سنةُ التداولِ والوراثةِ بين الأمم، حيثُ يُنهي اللهُ الأُمَّةَ، عندما ينتهي عمرُها، ويحينُ أجلُها، ويأتي بأمةٍ جديدةٍ مكانَها، تخلفُها في السلطة، وترثُها في الأرض .

ولقد طغى فرعونُ وظلم، فاستحقَّ الهلاكَ والعذابَ من الله، وبني إسرائيل آمنوا، فاستحقوا الاستخلافَ في الأرض . . وهذه سُنَّةُ الله !

وتابعتْ آياتُ السورةِ استعراضَ لقطاتٍ ومشاهد، مما جرى بعدَ ذلك لموسى وأتباعِهِ مع فرعون: [١٣٥ - ١٣٠] . وكيف كان فرعون يَريدُ تعذيبَه لهم، وينكثُ وغدَه لموسى بالإيمان، والإفراجَ عن بني إسرائيل، ولا يُحسنُ فهمَ الآياتِ التي أخذَ اللهُ بِها قومَه، فاستحقَّ بذلك الهلاكَ والعذاب .

اللهُ يورث بني إسرائيل الأرض:

وانتهت المواجهةُ بين موسى عليه السلام وبين فرعون، النهايةَ المعروفةَ، المتفقَةَ مع سُنَّةِ الله، في إهلاكِ الظالمين، وإنجاءِ المؤمنين .

قال تعالى: ﴿فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا

غَافِلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ مُشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرُكُنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٨﴾ [الأعراف: ١٣٦ - ١٣٧].

انتقم الله من فرعون وجنوده، وأغرقهم في اليم، بسبب طغيانهم وظلمهم، وتكذيبهم بآيات الله، واستعبادهم لعباد الله.

واستخلف بني إسرائيل في الأرض، وأورثهم مشارقها ومغاربها، وصاروا أصحاب السلطان والتمكين، بعدما كانوا في الأرض مستضعفين، وكان هذا مكافأة لهم على صبرهم: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

وامتحن الله بني إسرائيل بالاستخلاف والوراثة، لينظر كيف يعملون. لكنهم لم ينجحوا في الامتحان، ولم يكونوا على قدر المسؤولية، وخالفوا أمر الله.. فحققت عليهم سنة الله، التي حققت على من كان قبلهم!

وعد المسلمين بوراثة الأرض:

وذكر الله للمسلمين المستضعفين في مكة هذه المشاهد، ليقدم لهم البشري بالفرج، والأمل بالخلاص، والوعد بالنصر والاستخلاف والتمكين. فقد كان الصحابة في مكة يمرّون بمرحلة الاستضعاف، التي لا بد من تجاوزها، بالاستعانة بالله، والصبر على البلاء، والتي ستقودهم إلى مرحلة الاستخلاف والتمكين، والانتصار على أعدائهم الكافرين.

ولذلك تضمّنت هذه الآيات وعداً ضمنيّاً غير صريح، بنصرهم واستخلافهم، لأنهم أفضل وأكرم على الله من بني إسرائيل.. وقد تحقّق هذا الوعد فيما بعد.

وعندما يقف المسلمون المستضعفون المضطهدون، أمام هذه الآيات من قصة بني إسرائيل، يأخذون منها هذه الإشارة الواعدة بالفرج والتمكين!

* * *

الوعد لقمرآني في سورة يونس

سورة يونس مكية، أنزلت في الفترة الحرجة الشديدة نفسها، التي مرّت بها الدعوة الإسلامية في مكة، ولذلك هدفت إلى تسليّة ومواساة الرسول ﷺ، على ما يجده من أذى قوميه، وإلى تقديم البشرى والأمل، للمسلمين المستضعفين، ورفع هممهم وعزائمهم، ليقنوا يقيناً جازماً بأنّ الأمل لهم، والمستقبل لدينهم. وتضمنت آيات السورة وعداً قرآنياً بالتمكين للمسلمين، ووعداً وتهديداً بالهزيمة والخسارة للكافرين. ومن هذه الآيات الواعدة ما يلي:

سنّة الله في إهلاك الظالمين واستخلاف المؤمنين:

أولاً - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣-١٤]. ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لينظر كيف تعملون.

تحدث الآيتان عن السنّة الربّانية في إهلاك الظالمين الكافرين المجرمين، والسنّة الربّانية في استخلاف الأمم وتوارثها، وتداول الأيام بينها. فالله أهلك الظالمين المجرمين السابقين، لأنهم كفروا بالحق، وكذبوا الرسل، وظلموا الناس، واضطهدوا المؤمنين المستضعفين.

والله جعل الأجيال الجديدة خلائف في الأرض، من بعد تدمير وإهلاك الظالمين، وابتلاهم بالتمكين، لينظر كيف يعملون. فإن آمنوا واستقاموا، حافظوا على الإنعام الربّاني، وأدام الله عليهم التمكين والتأييد، وإن طغوا وأجرموا حقّت عليهم سنّة الله، وأهلكهم كما أهلك الظالمين من قبلهم.

وهذا وعدٌ للمسلمين بالنصر والتمكين، ووعدٌ لكفار قريش بالإذلال والهزيمة. . وقد حقّق الله للمؤمنين الصابرين وعدّه بالنصر، وأوقع بالكافرين وعيدّه وتهديدّه، بما حصل في الغزوات الجهادية الإسلامية.

تحذري الكفار بالقرآن:

ثانياً - قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا بَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٧-٣٩].

تقرر الآية الأولى أَنَّ القرآنَ كلامُ الله، وأنه لا يمكنُ أن يكونَ مفترى من دونِ الله، وهو مصدِّقٌ للكتبِ الربَّانيةِ السابقةِ كال்தوراةِ والإنجيل، وقد فصلَ اللهُ فيه كلَّ شيء، وكلُّ ما فيه حقٌّ وصدقٌ وصواب.

وتُطلُّ الآيةُ الثانيةُ مزاعمَ الكفارِ ضدَّ القرآن، فهم يتَّهمون الرسولَ ﷺ بأنه افترى القرآنَ واختلقه، ونسبه إلى الله افتراءً..

ولذلك تحدَّتهم الآيةُ بأنَّ طلبتِ منهم الإتيانَ بسورةٍ هي مثلُ القرآنِ في فصاحتهِ وبلاغتهِ وأسلوبه، والاستعانةُ بمن يُريدون ويستطيعون، فإن نجحوا في ذلك، وقَدِّموا السورةَ المطلوبة، كانوا صادقين في كلامهم، وكان القرآنُ مفترى، وليس من عند الله، وإن عَجَزُوا عن ذلك كانوا كاذبين في مزاعمهم، وثبت أنَّ القرآنَ من عندِ الله، وأنَّ محمداً هو رسولُ الله ﷺ.

تكذيب الكفار بوعود القرآن:

أما الآيةُ الثالثةُ فإنها تتضمنُ تهديداً ووعيداً للكفارِ بالعقاب، ووعداً مشرقاً للمؤمنين بالنصر.

تصفُ الآيةُ الكفارَ بالجهل، الذي دفعهم إلى التكذيبِ بالقرآنِ جملةً وتفصيلاً: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾.. إنهم لم يُحيطوا علماً بالقرآن، ولا بمعانيه ومضامينه، فكيف كَذَّبُوا بشيءٍ يجهلونه؟

ومن الحقائقِ القرآنيةِ التي لم يُحيطوا علماً بها فكذبوها، وعودُ القرآنِ بالنصرِ والتمكينِ للمسلمين، وبالخسارةِ والهزيمةِ للكافرين.. فقد سمعوا آياتٍ قطعتْ تلكَ الوعود، فاستبعدوا تحقُّقها، وأنكروا وقوعها، وكذبوا بها، وتساءلوا:

هل من الممكن أَنْ يتغلَّبَ عليهم المسلمون وهم مستضعفون أمامهم؟ لا يملكون قوة ولا سلطاناً ولا أرضاً؟! .

وتردُّ الآيةُ على تكذيبهم، واستبعادهم تحقُّقِ الوعودِ القرآنية، بقولها: ﴿وَلَمَّا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ . وهذه الجملةُ وعيدٌ وتهديدٌ لهم، بقرب وقوع العذابِ بهم! .

«لَمَّا»: حرفُ إطماع، يدلُّ على قرب تحقُّق وقوع ما بعدها. وهي حرفُ جزم، يجزُمُ الفعلُ المضارعَ بعده، و«يَأْتِيهِمْ»: مضارعٌ مجزوم، وعلامةُ جزمه حذفُ حرفِ العلة، أصله «يَأْتِيهِمْ». والضمير «هم» يعودُ على المشركين، وهو في محلِّ نصبٍ مفعولٍ به مقدَّم، و«تأويله»: فاعل مؤخَّر، والضمير في «تأويله» يعودُ على القرآن.

فمعنى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾: لم يتمَّ تأويلُ آياتِ القرآنِ الواعدةِ بانتصارِ المسلمين، وهزيمة الكافرين، ولذلك كَذَّبَ الكافرونَ بها.

معنيان للتأويل في القرآن:

ما معنى التأويل هنا؟ .

التأويلُ بمعنى بيانِ العاقبةِ والمآل، أو ردُّ الشيءِ إلى غايته المرادةِ منه، وتحديدِ معناه الصحيح، أو مآله الدقيق .

والتأويلُ في القرآنِ له صورتان:

الأولى - صورةٌ نظرية: تقومُ على إزالةِ اللبسِ والغموضِ عن الكلام، وذلك بحمله على نصٍّ آخرٍ صريح، واضحٍ محكم، وردهُ إليه. وهذا هو تأويلُ الآياتِ المتشابهاتِ القليلةِ في القرآن، وذلك بإزالةِ الاشتباهِ عنها، عن طريقِ حملها على الآياتِ المحكماتِ الكثيرةِ في القرآن .

الثانية - صورةٌ عمليةٌ مستقبلية: وذلك ببيانِ العاقبةِ والمآلِ للآية، فعندما تتحدَّثُ الآيةُ عن أمرٍ مستقبليٍّ قادم، يكونُ حديثُها وعداً نظرياً، وعندما يتحقَّقُ ذلك الوعدُ النظري، في صورةٍ عمليةٍ واقعيةٍ تطبيقية، يكون ذلك الوقوعُ تأويلاً لها، لأنه به يتحقَّقُ مآلُها .

التأويل العملي للوعود القرآنية بالنصر:

الوعودُ القرآنية في السورِ المكية بانتصارِ الحقِّ وإزهاقِ الباطل، كانت وعوداً نظريةً مجردة، وهذه الوعودُ تحتاجُ إلى «تأويل»، أي: تحتاجُ إلى إنجازٍ وتنفيذ، وتطبيقٍ على الأرض، فوقوعها على الأرضِ تأويلٌ عمليٌّ لها.

إنَّ الوعدَ القرآنيَّ في قوله تعالى في سورة القمر: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ وعدٌ نظري، قطعه القرآنُ في مكة.. وقد تحقَّقَ هذا الوعدُ في غزوة بدر، فكان وقوعه وتحققه «تأويلاً» له، ولذلك قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: «فعرفتُ تأويلَ الآيةِ يومئذ». وبذلك كان تأويلُ الآيةِ تحقُّقُ مضمونها على الأرض.

إذن معنى قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾: لم تتحقَّقْ حتى الآنِ الوعودُ القرآنيةُ الواعدة، ولم يتمَّ تأويلُها العملي، ولذلك كَذَّبَ بها الكافرون.

واختيارُ حرفِ الإطماع «لَمَّا» مقصود، لأنَّه يدلُّ على قربِ مجيء ذلك التأويل، وقد أتاهم تأويلُ تلك الوعودِ القرآنية في غزوة بدر، وما بعدها.

والدليلُ على أنَّ هذا هو معنى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ قولُ الآية بعد ذلك: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: كما كَذَّبَ كفارُ مكة بما لم يحيطوا بعلمه من معاني القرآن، ووعوده وأخباره المستقبلية، كذلك كَذَّبَ الكفارُ السابقون بما أخبرهم به رسلهم.

فماذا فعلَ الله بالكفارِ المكذِّبين السابقين؟ لقد أهلكهم ودمَّرهم، وبذلك أتاهم تأويلُ الأخبارِ والوعودِ التي كَذَّبوا بها.. وبذلك كانت عاقبةُ الظالمين السابقين سيئة. فانظرْ كيفَ كانت عاقبتهم، وخُذْ منها العبرة.

وهذا تهديدٌ للكفارِ المكذِّبين بالقرآن، بأنَّه سيأتيهم تأويلُ ما كَذَّبوا به، كما أتى التأويلُ مَنْ سبقهم من المكذِّبين.

وهذا وعدٌ للمؤمنين المستضعفين في مكة بالنصرِ والتمكين، لأنَّ تأويلَ آياتِ الوعيدِ والتهديدِ للكفار، معناه انتصارُ المسلمين عليهم.. وهذا ما حصلَ في الغزواتِ بعدَ الهجرة، التي انتهت بفتحِ مكة.

انتظار الكفار العذاب:

ثالثاً - قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٢-١٠٣].

في هاتين الآيتين وعيد آخر للكافرين بالعذاب، في مقابل وعيد جديد للمؤمنين بالنجاة والفرج.

ماذا ينتظر الكفار المكذبون؟ وماذا يتوقعون أن يحصل لهم؟ وهم يعدّون المؤمنين، ويكذبون الرسول ﷺ، ويحاربون الإسلام!

لن يحصل لهم إلا مثل الذي حصل للكفار المكذبين المحاربين من قبلهم، كقوم نوح وعاد وثمود وفرعون، لأن هذه سنة الله التي لا تتغيّر ولا تبدل: كل من حارب الحق فهو مهزوم لا محالة، وتنتظره في النهاية عاقبة سيئة مظلمة. فكفار قريش يسرون نحو هذه العاقبة، التي وصلها الذين من قبلهم!

ولذلك أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

أي: انتظروا أن تروا أياماً سوداء قاسية، مثل أيام الكفار الذين من قبلكم، وانتظروا وقوع العذاب بكم، فإنه آتيكم لا محالة، وانتظروا انتصار المسلمين عليكم، وانتظروا إذلالكم وهزيمتكم.

وأنا معكم من المنتظرين، أنتظر تحقيق هذا كله، تحقق الجانب السلبي عليكم، وتحقيق الجانب الإيجابي لي ولأتباعي..

انتظار المؤمنين النصر والنجاة:

وقد ذكرت الآية التالية ماذا ينتظر المؤمنون، وماذا يأملون من الخير عند الله، حيث بشر الله المؤمنين بالنجاة والخلاص والأمان والفوز: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا واضح في القصص القرآني، الذي كان يحدّد هذه النهاية لقصة كل نبي مع قومه، من نوح إلى هود وصالح وشعيب وغيرهم، عليهم الصلاة

والسلام، فالله كان يُنهي المواجهة بين الرسول وقومه، بإهلاك الكفار المعادين، وإنجاء الرسول وأتباعه. فهذه سنة الله التي لا تتخلف.

وقطع الله وعداً جازماً بإنجاء المؤمنين، على اختلاف الزمان والمكان: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الله لا يخلف الميعاد، ووعدُه ناجزٌ نافذ، فإنجاء المؤمنين عند إهلاك الكافرين أمرٌ قَدَرَهُ الله، وأنفذه وأمضاه، وتفضل على المؤمنين بإخبارهم أنه حقٌ عليه، وجعله الله حقاً عليه تَكْرُماً منه وفضلاً سبحانه.

وتحقق ما في الآيتين من وعيد وتهديد للكافرين، ووعد مشرق للمؤمنين، وذلك في الغزوات الإسلامية بعد الهجرة.

وبذلك تحقق ما كان ينتظره رسول الله ﷺ من خيرٍ له وشرٍّ لأعدائه: ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

بهذا اليقين الجازم بتحقيق وعد الله، وانتظار تأويله في عالم الواقع، يتعامل المسلمون المجاهدون المعاصرون مع أعدائهم من اليهود والأمريكان وغيرهم!

الاتباع والصبر حتى يتحقق الوعد:

رابعاً- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨-١٠٩].

هاتان الآيتان خاتمة سورة يونس المكية، التي تُريدُ تثبيت المؤمنين على الحق، وملء قلوبهم بالأمل واليقين، وتقديم الوعود الصادقة لهم بالنصر والتمكين.

يأمرُ الله رسوله ﷺ أن يبلغ دعوته للناس جميعاً، وأن يُقيم عليهم الحُجَّة، ويقول لهم: أنا رسولُ الله إليكم جميعاً، وقد قدَّمتُ لكم الحق، وأقمتُ عليه الأدلة والبراهين، وبذلك انتهت مهمتي عندكم، والخطوة التالية عليكم، فإذا قبلتم الهدى وآمنتم؛ أفلحتم وفزتم، وإن رفضتموه كنتم الخاسرين، وأنا لستُ وكيلاً عليكم، ولا يجبُ عليّ قذف الإيمان في قلوبكم!

ماذا يفعل رسول الله ﷺ بعد التبليغ والبيان وإقامة الحجة؟ ماذا يفعل وهو ينتظر تحقق موعود الله؟ .

كَانَ يَنْتَظِرُ تَحَقُّقَ مَوْعِدِ اللَّهِ، عندما قال لهم: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ وهو في فترة الانتظار ينفذ ويطبّق قول الله له: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ .

لقد أمره الله بأمرين :

الأول: اتّباعُ شرع الله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ . وذلك بتنفيذ الأوامر والتوجيهات، التي أنزلها الله في القرآن، والمتعلّقة بالشعائر التعبدية، والمشاعر الأخلاقية، والحركة الدعوية، ومواجهة الأعداء، والصمود أمامهم .

الثاني: الصبر ﴿وَأَصْبِرْ﴾ وهو صبرٌ عامٌّ شاملٌ مطلق، يقدّم زاداً للمؤمنين، يثبتهم على الحقّ، ويدفعهم إلى تجاوزِ مرحلةِ انتظارِ النصرِ بعزيمةٍ وهمّةٍ وأملٍ ويقين .

وسوفَ يحكمُ اللهُ بين المؤمنين والكافرين، ويُنهي المواجهةَ بينهم، ويُحقّق وعدَه للمؤمنين، ويوقّع وعيدَه للكافرين، وهو سبحانه خيرُ الحاكمين .

زادنا ونحن ننتظرُ تحقيقَ وعودِ الله لنا بالنصرِ، تنفيذُ الأمرين المذكورين في الآية: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ﴾ . . الاتّباعُ الجادُّ الصادقُ لشرعِ الله، والصبرُ الجميل، والانتظارُ الإيجابي، المقرونُ بالبشرى والأمل، والجهدُ والعمل .

* * *

الوعد قرآني في سورة هود

سورة هود مكية، وأنزلت في الفترة الحرجية نفسها، التي تحدثنا عن ملامحها من قبل، وهدفت إلى ما هدفت إليه سورة يونس، والسور الأخرى النازلة في تلك الفترة، مع تميّز كل سورة بشخصية خاصة، ذات ملامح خاصة، وطريقة خاصة في عرض موضوعاتها، وتقرير حقائقها.

وقامت سورة هود بتثبيت النبي ﷺ والمؤمنين على الحق، وملء قلوبهم باليقين والأمل، بانتصار الإسلام، وهزيمة الكفر، من خلال استعراض قصص الرسل مع أقوامهم، وهم: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى، عليهم الصلاة والسلام. وكان ترتيب ذكر الرسل وفق التسلسل التاريخي.

والمذكور من قصة كل رسول من هؤلاء مع قومه هو قيام الرسول بتبليغ الدعوة لقومه، وذكر موقفهم من دعوته، ثم استعراض بعض ما جرى من حوار ونقاش بينه وبينهم، وتحذيه لهم، وإصرارهم على الكفر والتكذيب والعداء، ثم ذكر خاتمة قصته معهم، بإنجاء الرسول وأتباعه المؤمنين، وإهلاك أعدائه المكذبين.

والهدف من هذا الاستعراض، والتركيز على هذه المشاهد من قصة كل رسول، هو تثبيت المؤمنين على الحق، وتقوية هممهم وعزائمهم على المواجهة والتحدي، ولفت أنظارهم إلى سنة الله في الدعوات، واستشرفهم الأمل الكبير، ونظرتهم نحو المستقبل المأمول، بالتمكين لهم، والهزيمة لأعدائهم!.

وقد جاءت آيات التثبيت والتوجيه والوعد، في ذكر ما جرى بين الرسل وأقوامهم، أو في التعقيب على إنهاء المواجهة بين الفريقين... ومن أشهرها ما يلي:

العاقبة للمتقين:

أولاً: في التعقيب على قصة نوح عليه السلام مع قومه، التي انتهت بإغراق الكافرين بالطوفان، وإنجاء نوح وأتباعه المؤمنين في السفينة، ثم إنزالهم إلى الأرض بعد الطوفان، لاستئناف الحياة من جديد.

جاء التعقيب على ذلك بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

يقول الله لرسوله محمد ﷺ: ما ذكرناه لك من قصة نوح من أنباء الغيب، أوحيناها إليك، ولم تكن تعلمها أنت من قبل، كما أن قومك لم يكونوا يعلمونها، وورود هذه الأنباء في القرآن دليل على أن هذا القرآن ليس من تأليف مخلوق، إنما هو وحي مني إليك.

وأمر الله رسوله ﷺ بالصبر، بمعناه العام الشامل، لأن الصبر زاد ضروري، في مرحلة انتظار النصر.

وقررت الآية سنة ربانية مطردة: ﴿ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾. أي: نهاية المواجهة بين جند الحق وأصحاب الباطل هي في إنجاء المتقين، وإهلاك الكافرين، فالعاقبة دائماً للمتقين، يمن الله عليهم بالفرج والنجاة والنصر والتمكين، وعليهم أن يستشرفوا المستقبل بيقين، وينظروا للعاقبة بثقة وأمل، وينتظروا تحقيق ما وعدهم الله به!

سنة الله في الاستخلاف:

ثانياً: عرضت آيات السورة بعض ما جرى بين هود عليه السلام وبين قومه، وسجلت بعض ما قاله هود عليه السلام لهم، ومنه انتظاره إهلاكهم واستخلاف آخرين مكانهم. وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رِئَاسَةً قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ﴾ [هود: ٥٧].

أي: الواجب عليّ تبليغكم الدعوة، وإقامة الحجة عليكم، وقد فعلت ذلك، فإن رفضتم دعوتي، وتوليتهم وأعرضتم، وأصررتم على الكفر والتكذيب والعداء، فأنتم الخاسرون، وبذلك تجنون على أنفسكم، فالله سيديمكم

ويهلككم، كما فعل بقومِ نوحٍ من قبلكم، وأنتم لا تُعجزون الله، ولا تضرّونه شيئاً بكفركم ..

وسيستخلفُ اللهُ قوماً غيركم، يرثونكم، ويأتونَ مكانكم، فهذه سنّة الله التي لا تتخلف .

وقد حقّق اللهُ سنّته، فأنجى هوداً والذين معه، وأهلك قومَه الكافرين . قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ وَذَلِكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ أَلَا بَعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾]هود : ٥٨ - ٦٠[.

العمل المتواصل وارتقَاب الموعود:

ثالثاً: ذكرت آياتُ السورة بعضَ ما جرى من كلامٍ وحوارٍ بين شعيبٍ عليه السلام وبين قومِه مدين . ومن ذلك صبرُ شعيبٍ عليهم وتحذيه لهم . قال تعالى : ﴿ وَيَقَوْمٍ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ كَذِبٌ ۖ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود : ٩٣] .

معنى : ﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ : على طريقتكم وخطتكم وبرنامجكم .

بعدما بَلَغَ شعيبٌ عليه السلام قومَه الدعوة، اتضحَ لهم طريقان : طريقُ الحق وطريقُ الباطل . الحق الذي يمثله شعيبٌ عليه السلام، وأتباعُه المؤمنون، والباطل الذي يمثله المَلَأُ من قومِه، وأتباعُه الكافرون .

ولكلِّ فريقٍ منهما مكانةٌ وطريقةٌ وبرنامجٌ عملي : برنامجٌ عمليٌّ إيجابي، يقومُ على العبادةِ والدعوةِ والعملِ الصالح، يقومُ به شعيبٌ عليه السلام وأتباعُه المؤمنون . وبرنامجٌ عمليٌّ سلبيٌّ خبيث، يقومُ على الكفرِ والبغْيِ والظلمِ والطغيان، ونشرِ الفسادِ والإفسادِ بين الناس، ومحاربةِ الحقِّ وأهله . . . وشتانَ بين العملَيْن والبرنامَجَيْن .

ولذلك تحدّى شعيبٌ عليه السلام قومَه بقوله : ﴿ وَيَقَوْمٍ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ ﴾ .

أي: كلُّ منّا يعمل، وفق خطيئته، وكلُّ منّا يسعى في إبطالِ عملِ الآخر،
فأنتم عاملون على هزيمتي والقضاء على دعوتي، وأنا عاملٌ على نشرِ دعوتي،
وعلى إزهاقِ باطلِكُم، والقضاء على سلطانكم، فاعملوا، وأنا أعمل!.

والمستقبلُ لنا وليس لكم، إننا ننتظرُ ما وَعَدَنَا اللهُ به من النجاةِ والنصر،
وننتظرُ ما توعَّدُكم اللهُ به من العذاب، ونحنُ نوقنُ أنَّ هذا آتٍ لا محالة، وعندما
يحلُّ ذلك بكم ستعلمون: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
كَذِبٌ﴾.

واستمرَّ شعيبٌ عليه السلام في تحذيرهم، فقال: ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ
رَقِيبٌ﴾. أي: ارتقبوا نهايةَ الصراعِ بيني وبينكم، ووقوعَ العذابِ بكم، فأنا رقيبٌ
أرقُبُ ذلك، فالزم من جزءٍ من العلاج.

ولما شاء الله إنهاءَ قصّةِ شعيبٍ عليه السلام مع قومه، حقّق الوعدَ والوعيد.
قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ
ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمًا ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّرِغْنُوهُمْ فِيهَا أَلَا بُعْدَ لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ
نُجُودُ﴾ [هود: ٩٤-٩٥].

سنة الله في أخذ الظالمين:

رابعاً: بعد استعراضِ مصارعِ المكذّبين السابقين، من قوم نوحٍ وعادٍ
وهمودٍ ومدّين وقوم فرعون، جاء التعقيبُ على ذلك بأخذِ العبرة. قال تعالى:
﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا
زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ
شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٣].

تلخصُ هذه الآياتُ ما جرى بين جندِ الحقِّ وجندِ الباطل، على مدارِ التاريخ
البشري، منذ نوحٍ حتى محمد عليهما الصلاة والسلام، وتُبرزُ إهلاكَ الظالمين
الكافرين، وتدعو إلى ملاحظةِ آثارهم، فها هي المدنُ والقرى التي كانوا فيها باقية،
منها ما هو قائمٌ في أطلالِهِ، ومنها ما هو حصيدٌ مدمرٌ، وأهلُها الكافرون هم الذين

ظلموا أنفسهم بكفرهم وطغيانهم، وعَجَزُوا عن دفع عذابِ الله لما وقع بهم .

وهذه سُنَّةُ الله في أَخْذِ الكافرين المعادين للحق، على اختلافِ الزمانِ والمكان، واللهُ منتقمٌ جبار، وأَخْذُهُ للأعداءِ أليمٌ شديد، يَفْصُمُهُم قصماً، ويجعلُهُم عبرةً لمن يَعْتَبِرُ .

ولكن لا يَعْتَبِرُ من ذلك إِلَّا المؤمنون الصالحون، الذين يَخَافُونَ عَذَابَ الآخرة، ويتمتعون ببصائرِ إيمانية هادية . أما الآخرون فإنه مطبوعٌ على قلوبهم، مطموسٌ على أبصارهم، لا يَعْتَبِرُونَ ولا يَتَّعْظُونَ!! .

وهذا التعقيبُ المقصودُ الهادفُ يقدمُ للمؤمنين البشري بانتصارِ الحقِّ وهزيمةِ الباطل، ويدعوهم إلى انتظارِ موعودِ الله لهم، واستشراقِ المستقبلِ المشرق، وإسراعِ السيرِ إليه بثباتٍ ويقين .

ويستفيدُ من هذا التعقيبِ المسلمون الصادقون، على اختلافِ الزمانِ والمكان، لأنهم يعيشون فترة انطباقِ السُنَّةِ الربَّانية على أعدائهم الذين يحاربونهم، ويفرحون بانطباقِ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ على أولئك الأعداء! .

أثر الوعد في تثبيت قلوب المؤمنين:

خامساً: ختمت سورة هودٍ بذكرِ الهدفِ من ذكرِ أنباءِ الرسلِ فيها، وأثر ذلك على الرسول ﷺ والمؤمنين، وتحدي الأعداء، وتهديدهم بالهزيمة، ووعد المؤمنين بالفرج والنصر، ودعوتهم لانتظاره . قال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِذِكْرِ الْوَعْدِ وَأَنزَلْنَا فِي هَذِهِ الْحَقَّ وَمَوْعِظَةً وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٠-١٢٣] .

من فوائدِ ذكرِ قصصِ الأنبياء في القرآن، تثبيتُ فؤادِ النبي ﷺ وقلوبِ المؤمنين، لأنَّ هذا القَصَصَ معرضٌ لتطبيقِ سُنَنِ الله على الواقع، ولأنَّ نهاياتِ القصص تدميرُ الكافرين ونجاةُ المؤمنين، وفي هذا بشري وأملٌ للمؤمنين، تطمئنُّ به قلوبُهم .

وَأَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَتَحَدَّى الْكَافِرِينَ قَاتِلًا لَهُمْ: ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٢٦) وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾.

أي: اعملوا على طريقتكم وبرنامجكم، وابذلوا جهدكم وطاقاتكم في حربي وإبطال دعوتي، ونحن المؤمنون عاملون على مكائبتنا وطريقتنا وبرنامجنا، في الثبات على الحق، والوقوف أمامكم، وإبطال مكائديكم، ونشر الدعوة بينكم. . أنتم تعملون أقصى ما في وسعكم ونحن نعمل أقصى ما في طاقتنا. . والأيام بيننا، والمستقبل لنا، والزمن في صالحنا، لأن الله معنا، وسيهزمكم وينصرنا عليكم.

وانظروا ما سيحل بكم في المستقبل، فنحن منتظرون تحقيق ما وعدنا الله به، من الغلبة عليكم، ونحن موقنون بحصول ذلك، لأنه وعد الله، والله منجز وعده، لا يخلف الميعاد.

وكان الزمن في صالح الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين، فما هي إلا سنوات معدودات، حتى كانت الهجرة إلى المدينة، وما هي إلا فترة قصيرة، حتى بدأت المعارك مع المشركين، وانتهت بانتصار المسلمين، والتمكين لهم، وهزيمة الكافرين، وإذلالهم وخسارتهم.

وعلى المسلمين الصادقين المعاصرين، الذين يلاقون الحرب والعداوة من اليهود والأمريكان أن يقولوا لهم ما قاله الرسول ﷺ لكفار عصره: ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٢٦) وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾.

* * *

الوعد لآني في سورة يوسف

سورة يوسف مكية أيضاً، وأنزلت في الفترة المكية نفسها التي تحدثنا عنها فيما سبق.

ولسورة يوسف طريقة خاصة متميزة، في تثبيت قلوب المؤمنين، وغرس الأمل واليقين فيها، بتحقيق ما وعد الله به. . فالسورة كلها تقوم على قصة واحدة، بدأت بالوعد، وانتهت بتحقيقه في أرض الواقع، وتخللت آيات السورة إشارات عديدة، للتأكيد على الحقائق القاطعة فيها.

بدأت السورة بذكر رؤيا، رآها الطفل الصغير، رؤيا واعدة بتحقيق شيء له في المستقبل، ولما قصَّ الطفل الرؤيا على أبيه بشره بالخير، وجرت للطفل أحداث متتابعة مفاجئة، استمرت سنوات عديدة، وانتهت الأحداث بتأويل عملي لتلك الرؤيا، وتحقيق ما وعده الله به. وفيما يلي إشارة إلى بعض تعقيبات السورة على أحداث القصة.

رؤيا يوسف وهو صغير:

أولاً: رأى يوسف سجود أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له، وقصَّ هذه الرؤيا على أبيه النبي يعقوب عليه السلام، فاستبشر الأب بها خيراً، واعتبرها بشري من الله لابنه بمستقبل مشرق، وأخبر ابنه بذلك ليستشرفه ويسعى إليه. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

اعتبر الأب هذه الرؤيا وعداً من الله، بالمستقبل العظيم لابنه، وألقى هذا الوعد لابنه، الذي استقر في داخله، والأب والابن يوقنان بتحقيق وعد الله، لأنهما يؤمنان أن الله لا يخلف الميعاد.

وعد الله ليوسف:

ثانياً: بدأت الأحداث بدايةً مثيرة، لم يتوقعها الطفل الصغير، حيث فوجئ بحقد إخوته عليه، إذ ألقوه في غيابة الجُب، وبينما كان الطفل يعيش دهشة تأمرهم عليه، أوحى الله له بأنه سينجو من هذه المحنة، ويخرج منها سالماً، وسيأتي يومٌ يُذكر فيه إخوانه بجرمتهم ضده.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٥].

التمكين الصغير ليوسف في بيت العزيز:

ثالثاً: أخرج الله يوسف من محنة غيابة الجُب سالماً، وقدر أن يُباع عبداً في مصر، وأن يشتريه عزيز مصر، الرجل الثاني فيها بعد الملك، وهذا تمهيدٌ للأحداث التي سيمرُّ بها يوسف، والتي ستقودُ إلى تأويل رؤياه، وتحقيق ما وعده الله به.

وقد علقت الآيات على استقرار يوسف عبداً رقيقاً في بيت العزيز. قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢١) ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢١-٢٢].

مكَّن الله ليوسف في الأرض، وهياً له الإقامة في بيت العزيز، حيث أكرمه الأخير، وأوصى به امرأته خيراً، وفعل الله ذلك به، ليعلمه من تأويل الأحاديث، وتعبير الرؤى، وهذا كله تهيئةٌ للأحداث الأخيرة في حياته، التي يتحقق فيها وعدُّ الله له.

والله غالبٌ على أمره، يفعل ما يشاء، ويوجد ما يريد، ويُقدر الأحداث، ويرتب الأمور، لتحقيق أمره، وإنفاذ وعده، ولا يعجزه شيء، ولا يقف أمامه مخلوق. ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقائق الإيمانية.

التمكين الكبير ليوسف على خزائن الأرض:

رابعاً: تعرّض يوسف في بيت العزيز لفتنة امرأته الطاغية، التي طمعت فيه

واشتهته، وراودته عن نفسه، ولكنه استعصم بالله، واستعلى على فتنها، فأدخل السجن ظُلماً، ولبث فيه بضع سنين، وعلمه الله فيه تأويل الرؤيا، وأول لصاحبيه السجينين رؤيا كل منهما، ثم أول الرؤيا المثيرة للملك، الذي أعجب به، وأمر بإخراجه من السجن، والإتيان به إليه، وعندما اطمأن إليه الملك، جعله (عزيراً) لمصر، وسلمه خزائن الأرض. وبذلك صار يوسف الرجل الثاني بعد الملك .

وقد علقت الآيات على ترتيب الأحداث بتقدير الله، لتوصل يوسف عليه السلام إلى ما وصل إليه بتقدير الحكيم الخبير. قال تعالى: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ۚ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ ﴿[يوسف : ٥٥ - ٥٧].

هذا هو التمكين الثاني الكبير، الذي مكّنه الله ليوسف، وقد كان التمكين الأول صغيراً، حيث هيأ له الإقامة في بيت العزيز، أمّا في هذا التمكين فقد جعله الله على خزائن الأرض.

وهذا التمكين تحقيق لما استشرّفه له أبوه من مستقبل واعد مشرق.

وبقي تحقيق وعد الله له بلقاء إخوته، وتأويل رؤياه حول سجود الكواكب له.

يوسف يواجه إخوانه وتحقيق وعد الله له:

خامساً: ساق الله له إخوته العشرة، الذين ألقوه في غيابة الجب، وتعاملوا معه على أنه عزيز مصر، ولا يوجد عند أي واحد منهم احتمال أن يكون هذا العزيز هو أخاهم الصغير. قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [يوسف : ٥٨].

وتتابعت الأحداث بينه وبينهم، حيث طلب إحضار أخيه الصغير، وأخذ أخاه بعد أن اتهمه فتيانه بسرقة صواع الملك، وعاد الإخوة إلى أبيهم بهم وحزن، وطلب منهم أبوهم أن يعودوا إلى مصر، وأن يتحسسوا من يوسف وأخيه، ودخلوا عليه متعبين، فرّق لهم، وذكرهم بما فعلوه به وهو صغير، وتعرفوا عليه، وعفا عنهم.

قال تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (٨٩) قَالُوا أَتُؤْتِكُ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَقٍ وَبَصِيرٍ فَإِنَّكَ اللَّهُ لَا يَظْهِي أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٨٩ - ٩٠].

وعده الله وهو صغير ملقى في غيابة الجب، أن يُخبرهم في المستقبل بجريماتهم معه: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

والآن وبعد سنوات عديدة، لا يعلم مقدارها إلا الله، وبعدما صار الطفل رجلاً كبيراً واعياً ناضجاً، يستلم المركز الثاني في حكم مصر، حقق الله له وعده السابق، في الوقت الذي حدده الله، والذي رتّب الأحداث التي توصل إليه، وها هو ينبئهم بأمرهم السابق، وهم لا يشعرون، ولا يتوقعون أن يكون عزيز مصر، الجالس أمامهم الآن، هو أخاهم الصغير، الذي ألقوه في غيابة الجب، قبل سنين وسنين!! وسبحان الله، الغالب على أمره، الصادق لوعده، المنفذ لإرادته.

الله يحقق ليوسف الرؤيا:

سادساً: بعدما تعرّف الإخوة على يوسف، أعطاهم قميصه بشاراً لأبيه، وأمرهم أن يأتوا بأهلهم أجمعين.. ولما دخلوا جميعاً عليه، خرّوا له سجداً؛ الأحَدَ عشرَ أخاً وأبواه.. وبذلك تمّ تأويل رؤياه، التي رآها قبل سنين عديدة، لا يعلم مقدارها إلا الله.

قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَيُّوبَ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

لقد كانت الرؤيا التي رآها وهو طفل صغير وعداً وبشرى من الله له، وبقي الوعد معلقاً سنين عديدة، ومَرَّ يوسف الموعود بتجاربٍ كثيرة، وأحداث عديدة، قدّرها الله له، وساق خطاه فيها، ورتّب له الأمور، وهيّا له الأسباب، وأخذ بيده حتى المشهد الأخير، مشهد تأويل الرؤيا عملياً، ودخول أهله عليه، وسجودهم أمامه.. وبذلك صدّق الله له وعده، وهو سبحانه لا يُخلف الميعاد.

ثقة يعقوب بتحقيق وعد الله:

سابعاً: كان أبوه النبي يعقوب عليه السلام، يؤمن أن الله سينجز ليوسف ما وعد، من خلال الرؤيا التي أراها إياها، لأنه يوقن أن الله لا يخلف الميعاد، وكان يؤكد أن يوسف آمن في مكان خاص، تحيط به عناية الله ورعايته، لكنه لا يعلم تفاصيل ما جرى له، ولا يقدر على تحديد مكانه ووصفه وتفاصيل حياته. . لا يعلم ذلك لأن هذا من الغيب، والنبي لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله إياه، وشاء الله الحكيم العليم أن لا يخبره عن تفاصيل ذلك.

صحيح أن يعقوب عليه السلام حزن لفراق يوسف، وتألم مما جرى له، وشكا بئس حزنه وألمه إلى الله، وأثر حزنه وألمه وكظم مصابه على عينيه. . لكنه لم يفارقه أمله ويقينه، وجزمه أن ابنه يوسف محفوظ بحفظ الله، آمن برعاية الله، لأن الله وعده بذلك، والله منجز له ما وعد.

ولذلك لما فقد أبناءه الثلاثة كلّف بقية أولاده البحث عنهم في مصر، مع يقينه أنهم سيجدونهم. قال تعالى: ﴿يَبْنِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

النصر بعد الاستيئاس:

ثامناً: كانت الآيات الأخيرة من سورة يوسف تعقياً على القصة، وتأكيداً على بعض عبرها ودلالاتها.

ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾ حتى إذا استيسر الرسل وطئوا أئمنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ [يوسف: ١٠٩-١١٠].

تُخبر الآية الأولى عن جنس الرسل، وأن الله اختارهم رجالاً، فلم يجعل امرأة نبيه. . ثم تلفت الآية أنظار الكافرين، الذين كذبوا محمداً ﷺ، إلى مصارع الكفار السابقين، وتدعوهم إلى السير في الأرض، للوقوف على آثارهم، ومعرفة

ما جرى لهم ، ورؤية عاقبتهم السيئة ، فلعلّ ذلك يدفعهم للتخلي عن ما هم فيه من كفرٍ وتكذيبٍ وعناد .

وهذا تهديدٌ للكفار ، ووعدٌ لهم بالعذابِ القادم ، إن استمروا على ما هم عليه ، وقد حقّق الله في كفارِ قريشٍ وعيده ، بأن هزمهم وأذلّهم على أيدي المسلمين في الغزواتِ الجهاديةِ بعدَ الهجرة .

أما الآيةُ الثانيةُ فإنّها تشيرُ إلى سنّةِ الله في الدعوات ، فقد قدّر سبحانه أن يعيشَ الرسلُ والدعاةُ في شدائدٍ ومحنٍ وابتلاءاتٍ ، وأن يزدادَ ضغطُ الكفارِ عليهم ، وكان الرسلُ يواجهونَ هذا بالصبرِ والثبات ، واليقينَ بالفرجِ والنصرِ ، والتصميمَ على الدعوةِ والمواجهةِ وتحديِ الكفارِ . .

وكان اللهُ الحكيمُ العليمُ يؤخّرُ النصرَ ، فلا يمتنّ به على الرسلِ وأتباعِهِمْ إلا بعد أن «يستئسوا» ويبلغَ بهم الضيقُ والكربُ مداه . . ولكنّ النصرَ كانَ يأتي في النهاية ، حيث كان يُنَجّي المؤمنين ويدمّرُ الكافرين .

وهذا وعْدٌ من الله للرسولِ ﷺ وأتباعِهِ ، يَعِدُهُمْ فيه بزوالِ الكربِ ، وانفراجِ الشدّةِ ، وتحقيقِ النصرِ ، وهو ما حصلَ بعدَ الهجرة .

الآياتُ الأخيرةُ من سورةِ يوسفَ وعُدّ بالمستقبلِ المشرقِ ، والسورةُ كلّها وعُدّ عريضٌ بالمستقبلِ الكبيرِ للإسلام ، وهذا ما استوعبه الرسولُ ﷺ وأصحابُهُ ، وكان زادُ ألهم على تجاوزِ الفترةِ الحرجةِ ، ونيلِ النصرِ الموعودِ بفضلِ الله .

* * *

الوعد لقم رآني في سورة إبراهيم

سورة إبراهيم مكية، أنزلت في الفترة الحرجة نفسها التي تحدثنا عنها من قبل، وهي تهدف إلى ما هدفت إليه السور التي تحدثنا عنها، سور الأنعام والأعراف ويونس وهود ويوسف، ولكن سورة إبراهيم تحقق أهدافها بطريقتها الخاصة، ومن خلال شخصيتها المتميزة!! .

موضوع السورة الأساسي هو المواجهة بين الحق والباطل، الحق الذي يُقدّمه ويحمّله الرسل، ويقودون أتباعهم في الوقوف أمام الباطل وجنّده، وتذكّر بعض ما يقوله الرسل في تحذير الكافرين، وتعرض سنة الله المطردة في الانتقام من الكافرين الظالمين، وتتابع العرض لتقدم صوراً ومشاهد لذلّ وهوان الظالمين في الآخرة.

وتضرب السورة مثلاً لأصالة الحق وقوته ورسوخه، ومثلاً لضعف الباطل وهزله، وتقدم الوعد الجازم بانتصار الحق على الباطل. ونقف الآن مع هذه المجموعات من آيات السورة.

مما جرى بين الرسل وأعدائهم:

أولاً: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيَكُمُ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ تُوجُّ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ

وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَلَنْصِيرَكَ عَلَى مَا أَدَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُلَاقَنَّكَ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَلَنَسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٩﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٠﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَسُقِيَ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿٢١﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٢٢﴾ [إبراهيم: ٩ - ١٧].

هذه آيات تسع، تقدم مشهداً للمواجهة بين الرسل وأقوامهم، وتسجل الحوار بين الطرفين، وتذكر بعض ما يجري بينهما، وتحدد نهاية الكافرين الظالمين في الدنيا، واستقرارهم معذبين في نار جهنم يوم القيامة.

وتعرض سنة الله في إهلاك الظالمين ونصر المؤمنين، وتقدم الوعد المشرق بالنصر والتمكين، والوعيد الشديد للكافرين.

بعض الحقائق التي تقررهما الآيات:

وليس المقام مقام تفسير وتحليل لهذه الآيات، ولذلك نشير إشارة خاطفة إلى ما فيها من حقائق دعوية، ووعد بانتصار الحق.

١ - بعث الله الرسل للأقوام السابقين، وأيدهم بالآيات البينات، الدالة على صدقهم، وقدم الرسل تلك الآيات إلى أقوامهم، وبلغوهم الدعوة.

٢ - كان موقف الأقوام الكفر والعناد، وتكذيب الرسل، ومجاهرتهم بإعلان كفرهم بهم، وشكهم في دعوتهم.

٣ - ردَّ الرسل على تشكك أقوامهم، بأن دعوتهم واضحة مفهومة، يتعامل معها العقل والقلب، ولا يشك بها أي صاحب عقل وبصيرة.

٤ - أثار الكفار شبهة أخرى ضدَّ الرسل، وهي أنهم بشر، ولا يمكن أن يكون الرسل من البشر، فإن كانوا صادقين في دعوى الرسالة، فليقدموا لهم معجزات خارقة! مع أن الرسل قدموا الآيات البينات لأقوامهم.

٥ - ردَّ الرسل على تلك الشبهة بأنهم بشر، ولكن الله اصطفاهم، وجعلهم رسلاً، فهذا ليس باختيارهم، وإنما هو من أمر الله.

٦ - رَدَّ الرُّسُلُ عَلَى طَلَبِ الْمَعْجَزَاتِ الْخَارِقَةِ ، بِأَنَّ هَذَا عِنْدَ اللَّهِ ، لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ ، فَاللَّهُ يُجْرِي عَلَيْهِمْ مَا شَاءَ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ ، وَيُعْطِيهِمْ مَا شَاءَ مِنَ الْآيَاتِ .

٧ - وَاجَهَ الرُّسُلُ أَذَى أَقْوَامِهِمْ لَهُمْ بِالصَّبْرِ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ ، وَصَدَّقِ اللَّجُوءَ إِلَى اللَّهِ ، وَالثَّبَاتِ عَلَى الْمَوَاجَهَةِ ، وَالِاسْتِمْرَارِ فِي تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ .

٨ - لَمْ يُوَافِقِ الْكَافِرُونَ عَلَى مَوْقِفِ الرُّسُلِ ، الْقَائِمِ عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّوَكُّلِ وَالدَّعْوَةِ ، وَلِذَلِكَ صَعَّدُوا فِي مَوَاجَهَتِهِمْ وَإِذْنَانِهِمْ وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِمْ .

٩ - قَدَّمَ الْكَافِرُونَ لِلرُّسُلِ خِيَارَيْنِ لَا ثَالِثَ لِهَمَا ، فإِمَّا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ أَرْضِهِمْ وَيَغَادِرُوهَا إِلَى أَرْضٍ أُخْرَى ، وَإِمَّا أَنْ يَتَخَلَّوْا عَنْ دَعْوَتِهِمْ ، وَيَعُودُوا إِلَى مِلَّةِ أَقْوَامِهِمْ ! أَمَّا أَنْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى دَعْوَتِهِمْ وَيَبْقُوا مُقِيمِينَ فِي بِلَادِهِمْ فَهَذَا لَنْ يَكُونَ ! .

١٠ - لَمَّا وَصَلَتِ الْمَوَاجَهَةُ بَيْنَ الرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ إِلَى ذَوْرَتِهَا ، أَنْهَى اللَّهُ الْأَحْدَاثَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَطَبَّقَ سُنَّتَهُ الْمَطْرَدَةَ ، فَأَوْحَى إِلَى رُسُلِهِ أَنَّهُ مَعَهُمْ ، وَوَعَدَهُمُ النَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ ، وَأَنَّهُ سَيَهْلِكُ الظَّالِمِينَ الْكَافِرِينَ ، وَيَجْعَلُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ وَارِثِينَ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ .

١١ - حَقَّقَ اللَّهُ لِرُسُلِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ وَغَدَهُ ، فَأَنْجَاهُمْ وَنَصَرَهُمْ ، وَأَهْلَكَ الْكَافِرِينَ ، وَدَمَّرَهُمْ ، وَبِذَلِكَ كَانَتْ نَهَايَةُ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ كَافِرٍ هِيَ الْخِيْبَةُ وَالْخُسَارَةُ وَالذَّلَالَةُ فِي الدُّنْيَا ، وَالْعَذَابُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

السُّنَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ فِي إِهْلَاكِ الظَّالِمِينَ وَنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ :

لَقَدْ حَسَمَ اللَّهُ الْمَوَاجَهَةَ بَيْنَ الرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ ، بِإِهْلَاكِ الْكَافِرِينَ ، وَنَصْرِ وَنَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ .

قَالَ تَعَالَى لِرُسُلِهِ : ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝ ﴾ . وَهُوَ وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ لِرُسُلِهِ بِإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمْ ، وَالتَّمْكِينِ لَهُمْ ، وَإِسْكَانِهِمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ .

وَقَدْ صَدَّقَهُمُ اللَّهُ وَغَدَهُ ، عِنْدَمَا اسْتَفْتَحُوا مَعَ أَقْوَامِهِمْ ، وَطَبَّقَ مَا وَعَدَهُمْ عَمَلِيًّا : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ ﴾ .

وقد أخبرنا الله في هذه الآيات عن هذه الحقائق الدعوية، وأعلمنا بذلك الوعد الذي قدمه للرسول، ونفذه لهم، لناخذ من ذلك العبر والعظات، ولنحسن النظر إلى وعد الله، ونثق بانطباقه وتحققه في الواقع.

سنّة الله التي لا تتخلف، أنه إذا قال أصحاب الباطل لأصحاب الحق: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فَإِنَّ اللَّهَ يَعِدُ أَنْصَارَ الْحَقِّ بِالنَّصْرِ، ويقول لهم: ﴿لَتَهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٣٦) وَلَنَسُكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ. .

وينهي الله القويّ الغالبُ المواجهة بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل، على أساس قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

إنّ الخيبة والخسارة هي نهاية كل جبار عنيد، يَغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ، فيستخدمها في حرب الإسلام وجنوده، فيخرج من هذه الحرب بهذه النتيجة السيئة. هذا وعد الله للمؤمنين، الذي لا يتخلف في أي زمان ومكان.

وهذه النهاية السوداء تنتظر الجبارين العنيدون من اليهود والصليبيين، وباقي الكافرين في هذا العصر، وسيرتهم الإسلام العظيم، فهذا وعد الله العليم الحكيم!! .

التمثيل بالكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة:

ثانياً: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُمِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٧].

تضرب هذه الآيات مثل الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، ومثل الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، وذلك ليتفكر الناس في هذين المثلين..

الكلمة الطيبة هي الإسلام، والكلمة الخبيثة هي الكفر.

والهدف من هذا التمثيل، تقرير حقيقة قوة الإسلام وثباته، ورسوخه في الأرض، وتحذيه للكفار، والتمكين له، بحيث يعجز الكفار عن القضاء عليه

واجتثائه، رغم عنف وقوة واستمرار محاولاتهم.. كذلك تقرير حقيقة ضعف الكفر وهزاله، واجتثائه وزواله.

فالإسلام القوي، مثله مثل شجرة قوية معمرة، جذورها ممتدة في أعماق الأرض، ضاربة في أغوارها، متمكنة منها، وجذعها قوي متين على وجه الأرض، ولها فروع وأغصان وأوراق ممتدة إلى أعلى في السماء، وهذه الشجرة مثمرة معطاءة، تُؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وتقدم ثمارها في كل وقت، وينتفع الناس بكل شيء منها.

أما الكفر الضعيف الهزيل، فمثله كمثال شجرة خيشة هزيلة، صغيرة حقيرة، ضعيفة ذاوية، ليس لها جذور في الأرض، وليس لها امتداد في الفضاء، فهي قابعة على سطح الأرض، إذا أتنها عاصفة فإنها تجثها وتطيرها وتذهب بها، فتموت وتبيس، وكأنها لم تكن!.

هذا التمثيل للإسلام والكفر بالشجرة القوية والشجرة المهزوزة، ينطبق على حالتين: الحالة الفردية الخاصة، والحالة الجماعية العامة.

أثر الإسلام والكفر على الإنسان:

الحالة الأولى: الحالة الفردية، على المستوى الشخصي.

تشير هذه الحالة إلى الأثر الإيجابي المؤثر للإسلام على الفرد المسلم، والأثر السلبي للكفر على الفرد الكافر.

فالإسلام يتغلغل في كيان المسلم، ويضرب جذوره القوية في قلبه وروحه ومشاعره، فتثبت وترسخ في أعماقه، ويمتد هذا الإسلام في كيانه، ويتغلغل في حواسه وأجهزته، ومشاعره وأحاسيسه، وتصوّراته وأفكاره، ويوجه له سمعه وبصره، ولسانه وجوارحه، وعقله وفكره، وأحلامه وآماله. وينظم له أعماله ومكاسبه، وعمره وحياته، ويغذي له همته وعزيمته، وتكون النتائج الطيبة، والأعمال الجليلة، والحسنات الكثيرة، ثماراً مباركة لشجرة الإسلام، الراسخة في شخصية المسلم وكيانه.

ويكون مثل الإسلام في كيان المسلم كمثال الشجرة الطيبة في الأرض

الصالحة، فتلك الشجرة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، تُؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

أما الكفر فإنه كلمة خبيثة، وفكرة قاتلة مدمرة، ما أن تدخل كيان الفرد الكافر حتى تشلّه، وتقضي على مواهبه وقدراته، وتعطل أجهزته وحواسه، فلا يسمع ولا يبصر، ولا يعي ولا يفقه، ولا يتعظ ولا يتدبر.

ويكون مثل الكفر في كيان الكافر، كمثّل الشجرة الخبيثة الضعيفة الهزيلة، اجتثت من فوق الأرض، ما لها من قرار.

من أقوال السلف في الكلمة والشجرة:

وقد كانت أقوال الصحابة والتابعين في تفسير الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، تلاحظ أثر الإسلام الإيجابي، وأثر الكفر السلبي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة هي المؤمن، والأصل الثابت هو: لا إله إلا الله في قول المؤمن، والفرع في السماء هو عمل المسلم ورفعُه إلى السماء... والكلمة الخبيثة هي الكفر، والشجرة الخبيثة هي الكافر، واجتثاثها من فوق الأرض هو الشرك، ليس له أصل يعتمد عليه الكافر، ولا بُرهان، ولا يقبل الله منه عملاً.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يعني بالشجرة الطيبة المؤمن، ويعني بالأصل الثابت وبالفرع في السماء المؤمن، يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم، فيبلغ عمله وقوله في السماء، وهو في الأرض. ويعني بتؤتي أكلها كل حين: المؤمن، يذكر الله كل ساعة من الليل والنهار... وضرب الله مثلاً الشجرة الخبيثة كمثّل الكافر، وإنَّ الشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض، وكذلك الكافر لا يقبل عمله، ولا يصعد إلى الله تعالى، فليس له أصل ثابت في الأرض، ولا فرع في السماء، وليس له عمل صالح في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال عطية العوفي: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾: ذلك مثل المؤمن، لا يزال يخرج منه كلام طيب، وعمل صالح يصعد إليه... ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة: ذلك مثل الكافر، لا يصعد له قول طيب، ولا عمل صالح..

وقال الضحاك: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾: تجتمع ثمرتها كل حين . . وهذا مثل المؤمن، يعمل كل حين وكل ساعة من النهار، وكل ساعة من الليل، وفي الشتاء وفي الصيف، بطاعة الله . . وضرب الله مثل الكافر بالشجرة الخبيثة، اجتثت من فوق الأرض، ليس لها أصل ولا فرع، وليست لها ثمرة، وليست فيها منفعة، وكذلك الكافر لا يقول خيراً، ولا يعمل خيراً، ولم يجعل الله له بركة ولا منفعة! [الدر المنثور للسيوطي: ٢٠/٥ - ٢١].

قوة الإسلام والشجرة الطيبة:

الحالة الثانية: الحالة العامة للإسلام والكفر.

للإسلام رسوخٌ مكينٌ في الأرض، وثباتٌ قويٌّ في الحياة، وأثرٌ إيجابيٌّ في الناس، وامتدادٌ متشعبٌ في التاريخ . . أما الكفر فإنه دخيلٌ شاذٌّ غريبٌ على الوجود، وهو ضعيفٌ هزيلٌ في الحياة!

ومثل الإسلام في رسوخه وتمكّنه وأثره واستمراره، كمثّل الشجرة الطيبة القوية الراسخة المثمرة، ومثل الكفر في ضعفه وزواله، كمثّل الشجرة الخبيثة الضعيفة، كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكّرون.

الإسلام أصيلٌ راسخٌ في حياة البشرية، أرساه الله في الأرض، ومكّنه منها، وأصبح شجرة ضخمة معمرة، تعاهاها الرسل، ورعاها أتباعهم، وضربت جذورها في أعماق التاريخ، وكلّما مضى من عمر البشرية قرن، كلما ازدادت جذور الإسلام متانة وقوة، وتغلغلًا في الحياة البشرية.

وفروع شجرة الإسلام وأغصانها منتشرة في مختلف بقاع الأرض، وظلالها وارفّة في كلّ مكان، يفيء إليها الناس، هاربين من شمس الجاهلية، ولهب الكفر الحارق، فيجدون عندها الرحمة والراحة، والألفة والطمأنينة!

وشجرة الإسلام الخضراء النامية المعمرة مثمرة، تقدّم ثمرها للبشرية، وتؤتي أكلها للناس، ويظهر ذلك في النماذج الإسلامية الرائعة الرائدة، من جنود الإسلام ودعايته وأوليائه، من العلماء والمفكرين، والدعاة والمصلحين، والمجاهدين الصادقين، الذين يؤدّون الشهادة لهذا الدين، ويقفون أمام أعدائه الكافرين.

أما شجرة الكفر فإنها خبيثة سامة، والمذاهب الفكرية الضالة مدمرة مخربة، تُخرب المواهب والطاقات البشرية، وتقضي على القلب والروح، وتُعطل السمع والبصر، وتعمي البصيرة، ويكون الكافر معطلاً معوقاً، بدون هدف نبيل أو رسالة سامية.

والكفر دخيل زائف، يدمغه الإسلام ويقضي عليه، إذا وجد رجالاً صادقين، يحملونه ويُجاهدون به.

وكما يُبَيَّن الله المؤمنين على الإسلام بالقول الثابت، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فإنه يُبَيَّن الإسلام في الأرض، ويجعله راسخاً فيها، متمكناً منها، ويمدُّ ظلاله فيها، وينشر رحمته عليها.

وعد الله بالتمكين للإسلام في حياة البشرية:

إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢١﴾ تُوَفَّى أَكْلُهَا كُلِّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا﴾ وعد نافذ من الله، بانتصار الإسلام، والتمكين له في الأرض.

وقد جاء هذا الوعد الرباني في سورة إبراهيم المكية، والمسلمون مُحَارَبُونَ مستضعفون، ولكنهم كانوا موقنين بإنفاذ وإنجاز هذا الوعد. . وقد صدقهم الله وعده، فنصرهم على أعدائهم.

وقويت شجرة الإسلام، ونشرت ظلالها على الجزيرة العربية في حياة رسول الله ﷺ، ثم مدَّت فروعها وأغصانها إلى العالم القديم كله في ذلك الزمان، وعمت بركاتها ورحمتها الشام والعراق ومصر، وآسية وإفريقية وأوروبا، وآتت أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ، في الأجيال المتلاحقة من العلماء والدعاة والربانيين.

فشل الأعداء في القضاء على الإسلام:

واستعصت شجرة الإسلام القوية على محاولات الأعداء لقطعها واجتثاثها. . لقد حاول الفرس والرومان ذلك ففشلوا، وحاول الهنود والترك ففشلوا، وحاول الإسبان والطيالان ففشلوا، وحاول المغول والصليبيون ففشلوا، وحاول الإنكليز والفرنسيون ففشلوا، وحاول الألمان والروس ففشلوا، والآن

يبدلُ اليهودُ محاولاتٍ ضخمةً لقلع الشجرة أو قطعها، وسيفشلون، ويحاولُ الأمريكيانُ بكلِّ ما أوتوا من قوةٍ وسيفشلون. . . وستحاولُ قوى الكفرِ اللاحقةُ في القرون القادمة القضاءَ على شجرة الإسلام، وستفشلُ كما فشلتُ قوى الكفرِ السابقة.

إنَّ التاريخَ بماضيهِ وحاضره، شاهدٌ على صدقِ تحققِ الوعدِ القرآني، بقوةِ شجرة الإسلام في أعماقِ الأرض، وفي أطباقِ الفضاء، وفي وفرةِ ثمارها، وكثرتها وأصلاتها.

تحاولُ القوى الصليبيةُ واليهوديةُ هزَّ شجرة الإسلام واجتثاثها، وتظنُّ أنَّها نجحتُ، وتصبُّ حربها على المسلمين، لكنها تكتشفُ فشلها في النهاية، فهزُّها للشجرة قد يُسقطُ بعضَ أوراقها الصفراء الضعيفة، ولكنها سرعانَ ما تجعلُ مكانها أوراقاً خضراءً يانعة، وقد يمسكُ الأعداءُ بغصنٍ من أغصانِ الشجرة، ويَجذبونه إليهم، آمِلين أن يقتلعوا الشجرة معه، ولكنهم سرعانَ ما يجدونَ بين أيديهم الغصنَ مخلوعاً، بينما بقيت الشجرة ثابتةً! .

ولن يستطيعَ اليهودُ ولا الأمريكيان، الذين يهزُّونَ شجرة الإسلام بعنف، ويشدونَ بعضَ أغصانها إليهم بشدةٍ في هذه الأيام، لن يستطيعوا فعلَ ذلك، وستخرجُ شجرة الإسلام من حربهم أكثرَ قوةً ومتانةً ورسوخاً وثباتاً، وسيُضافُ اليهودُ والأمريكانُ إلى قوائمِ الفاشلين الخاسرين!! .

شباب الصحوة هم ثمار الشجرة:

وشبابُ الصحوة الإسلامية، هم الثمارُ الطيبةُ لشجرة الإسلام المباركة، الذين يُقبلونَ على الإسلام بجدية، ويلتزمونَ به بصدق، ويُجاهدونَ به الصليبيين واليهود، جهاداً كبيراً مبروراً، ويقفونَ المواقفَ الإيمانية الجهادية العظيمة، التي يُغيظونَ بها الكفار.

ويُثبتُ الله هؤلاء الشبابَ على الإسلام، ويجعلهم إسلاماً حياً متحركاً إيجابياً، رغمَ محاولاتِ الأعداءِ الكثيرة لإغوائهم وإضلالهم.

الله ليس غافلاً عن الظالمين:

ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا

يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿١٧﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِبِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ أَسْوَادُ السَّمَاءِ وَالْجَبَلِ مِنْ يَدَيْهِمْ وَأَفْجَاءَ السَّاعَةِ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴿١٨﴾ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ يُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ الْوَحِيدَ أَقْسَمْتُكُمْ مِّن قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿١٩﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٢٠﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَرْزُلُ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٢١﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعِدَّهُ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٢٢﴾ [إبراهيم : ٤٢ - ٤٧].

تعرض هذه الآيات مشهداً للذلّ وهوان الظالمين المجرمين يوم القيامة، ومشهداً لحسرتهم وندمهم، عندما يأتيهم عذاب الله في الدنيا، وتقرر أنّ الله لا يغفل عنهم، ولا يخلف رسله وعده!

عندما يأتي الظالمين الطغاة عذاب الله، يطلبون الإمهال والتأخير، وإعطاءهم فرصة أخرى: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ يُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾.

فتوجه إليهم ملائكة العذاب سؤالاً لتوبيخهم وذمهم، وإشعارهم بمزيد من الذلّ والحسرة والندم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿١٩﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾.

وتُخبر الآيات عن مكرهم ضدّ المسلمين، وحرّهم لهذا الدين: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَرْزُلُ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

لكن ما هي نتيجة مكرهم وحرّهم؟ لقد حاق المكر السيئ بهم، وانقلبت العاقبة السيئة عليهم، حيثُ خرج الإسلام منصوراً قوياً، وباؤوا هم بالهزيمة والذلّ والخسران.

الله لا يخلف أوليائه وعده:

وحتى لا يشك المؤمن، الذي يخوض حرباً شرسةً ضدّ الكافرين الظالمين، فقد نهاه الله عن ظنّ تخلف وعد الله، وظنّ غفلة الله عن الظالمين.

إننا نخاطبُ كلَّ مسلمٍ في هذا الزمان، ابتلي بعداوةِ اليهودِ والأمريكان، وحربهم له ولإسلامه، نخاطبه بما خاطبَ اللهُ بهُ رسولَه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

ونخاطبه أيضاً بقولِ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾. فاللهُ هو الذي يُقدِّرُ كلَّ شيءٍ، وللظالمين اليهودِ والصليبيين يومٌ شديدٌ عند الله، واللهُ لا يُخلفنا وعْدَه، بنصرِ دينه، وإذلالِ أعدائِه، وهذا اليوم آتٍ لا محالة، ونحنُ نوقنُ بذلك، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعاد!.

* * *

الوعد لقرآني في سورة الإسراء

سورة الإسراء مكية، أنزلت في الفترة الحرجة نفسها، التي سبق أن تحدثنا عنها. ولذلك كان هدفها نفس أهداف السور السابقة، ولكنها تحقّق هدفها بطريقة الخاصة، التي تتفق مع شخصيتها المستقلة.

ومن أهم ما وعدت به آيات السورة، حديثها عن الإفساديين اليهوديين الكبريين، المقرونين بالعلو والاستكبار، وتقريرها زهوق الباطل.

إفسادان كبيران لبني إسرائيل:

أولاً: قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۚ﴾ (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۖ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَقْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ﴾ (٦) إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عُلُوًّا تَبَيَّرُوا ۖ﴾ (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۖ﴾ (٨) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٤ - ٩].

تحدثت هذه الآيات الست، عن وعدٍ إلهي، قطعه الله، وأخبر بني إسرائيل عنه، وبما أنه وعد من الله فإنه منجز لا محالة.

أخبر الله بني إسرائيل في كتابه الذي أنزله إليهم (التوراة)، عن إفساديين اثنين، مقرونين بالعلو الكبير: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ .. ومعنى ﴿وَقَضَيْنَا﴾ هنا: أخبرنا وأعلمنا بني إسرائيل.

والمراد بالكتاب هنا: التوراة، وهذا معناه أن الإفساديين المذكورين في

هذه الآيات وكيفية إزالتها، المذكوران في نصوص التوراة، فإن لم نجد في أسفار العهد القديم، الموجودة بين أيدي اليهود الآن، فلائاً أحبار اليهود أضاعوا التوراة، وحرّفوها، ومزجوا كلام الله بكلامهم الكثير الباطل.

وذكرُ الإفسادَيْن وصفاتِهما وكيفية إزالتها في آيات القرآن يوحى بأنهما سيكونان بين اليهود وبين أمة القرآن، فالمسلمون هم الذي سيُبتَلون بهذين الإفسادَيْن اليهوديَّين، وهم الذين سيُريلونهما ويقضون عليهما.

وعد الله بالإفسادين وإزالتها:

وبما أنَّ هذين الإفسادَيْن اليهوديَّين موجَّهان للمسلمين، فالحديثُ عنهما في آيات القرآن وعدُّ، وعدَّ الله به المسلمين أن يواجهوا هذين الإفسادَيْن اليهوديَّين، كما أنه وعدَّهم أن يُريلوهما ويقضوا عليهما.

ولذلك أوردنا الحديث عن الإفسادَيْن ضمنَ الحديث عن الوعود القرآنية التي تحققت، والوعود القرآنية التي لم تتحقّق حتى الآن، ولكنها ستتحقّق حتماً في المستقبل.

ولذلك وردت كلمة (وعد)، في الآيات التي تتحدّث عن الإفسادَيْن، أربع مرات:

الأولى: في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِمَا﴾.

الثانية: في قوله: ﴿وَكَاثَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

الثالثة: في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾.

الرابعة: في قوله: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

كرّر الحديث عن الوعد في وقوع الإفساد الأول مرتين، وعن الإفساد الثاني مرتين أيضاً، وما ذلك إلا لتأكيد تحقّق وقوع ذلك الوعد، وحصول الموعود به من الإفسادَيْن!

وقد اختلف المؤلّفون والباحثون المعاصرون في وقت وقوع الإفسادَيْن،

وتحقق الوعدَيْن، ولكنَّ معظمهم على أنَّ الإفسادَ الأولَ كان في المدينة، وما حولها على عهدِ رسولِ الله ﷺ، وأنا - مسلمي هذا الزمان - نعيشُ الإفسادَ الثاني، وهذا ما نرجِّحه.. ونقدِّم خلاصةَ معنى الآيات التي قدَّمت الوعدَيْن على هذا الأساس!

وقوع الإفساد الأول:

قال تعالى عن الإفساد الأول: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

(أولاهما): بمعنى: المرة الأولى، لأنَّ الله تعالى قال في الآية السابقة: ﴿لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾. فمعنى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾: إذا حانَ وقتُ تحقيقِ وعدِ المرة الأولى، وذلك بوقوع الإفساد الأول.

واللافتُ للنظر أنَّ الآيات لم تتحدَّث عن مظاهرِ الإفسادِ اليهوديِّ الأول، ولم تُبينَ وضعَ اليهودِ خلاله وأثناءه، وإنما تحدَّثت عن العبادِ الربَّانيين الذين يزيلونه!

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ﴾.

الرسول وأصحابه هم الذين أزالوا الإفساد الأول:

الحديث في الآية عن الرسول ﷺ وأصحابه، الذين أزالوا الإفسادَ اليهوديَّ الأول، في المدينة وما حولها، وكان ذلك بعدَ الهجرة.

وقد أخبر الله أنه يبعثُ عباده بعثاً على اليهود، وإسنادُ الفعلِ (بعثنا) إلى الله يدلُّ على تكريم هؤلاء المجاهدين، المبعوثين بعثاً على اليهود.

ووصفَ الله هؤلاء المجاهدين بأنهم عبادُ له: ﴿عِبَادًا لَنَا﴾، أي: تتحقَّق فيهم العبودية المطلقةُ الخالصةُ لله، وهذا تكريمٌ ربَّاني آخر لهؤلاء المجاهدين.

وهؤلاء المجاهدون أقوياء: ﴿أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾. وقوةُ اليهودِ المقرونة بالعلوِّ الكبير تحتاجُ إلى مجاهدين أقوياء، متَّصفين بالبأسِ الشديد.

وَأَعَانَ اللَّهُ الصَّحَابَةَ الْمَجَاهِدِينَ، وَنَصَرَهُمْ عَلَى الْيَهُودِ الْمَفْسُودِينَ،
وَجَاسُوا وَتَحَرَّكُوا خِلَالَ دِيَارِ الْيَهُودِ وَبَسَاتِينِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ، وَأَخْرَجُوا الْيَهُودَ مِنْ
الدِّيَارِ، وَأَوْرَثَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا.

إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ إجمالٌ لحربِ الرُّسُولِ ﷺ وأصحابِهِ
لِلْيَهُودِ.. وقد تَكَفَّلْتُ رَوَايَاتِ السِّيَرَةِ بِالْحَدِيثِ عَنْ إِجْلَاءِ يَهُودِ بَنِي قَيْنِقَاعَ بَعْدَ
غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَإِجْلَاءِ يَهُودِ بَنِي النُّضَيْرِ بَعْدَ غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَقَتْلِ يَهُودِ بَنِي قَرِظَةَ بَعْدَ
غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى يَهُودِ خَيْبَرَ بَعْدَ صَلَاحِ الْحُدَيْبِيَّةِ.

وَحُتِمَتِ الْآيَةُ بِجُمْلَةٍ: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾، وَذَلِكَ لِلتَّأَكِيدِ عَلَى حَقِيقَةِ
تَحَقُّقِ الْوَعْدِ الْقَاطِعِ النَّاجِزِ، فِي جَانِبِيهِ: الْجَانِبِ الْأَوَّلِ تَحَقُّقِ الْوَعْدِ بِحَصُولِ
الْإِفْسَادِ الْأَوَّلِ. وَالْجَانِبِ الثَّانِي: تَحَقُّقِ الْوَعْدِ بِبَعْثِ عِبَادِ اللَّهِ الرَّبَانِيِّينَ الْمَجَاهِدِينَ
الَّذِينَ يُزِيلُونَ ذَلِكَ الْإِفْسَادَ.

أَيُّ: كَانَ الْوَعْدُ بِوُقُوعِ الْإِفْسَادِ الْأَوَّلِ وَعْدًا مَفْعُولًا وَاقِعًا، وَكَانَ الْوَعْدُ
بِإِزَالَتِهِ وَعْدًا مَفْعُولًا وَاقِعًا أَيْضًا.

وَقَدْ تَحَقَّقَ الْوَعْدُ الْقِرْآنِيُّ الْمُتَعَلِّقُ بِالْإِفْسَادِ الْأَوَّلِ، فِي حَيَاةِ الرُّسُولِ ﷺ،
فَمَا قُبِضَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَمَّ إِزَالَةُ الْإِفْسَادِ الْأَوَّلِ، وَتَحْطِيمُ قُوَّةِ
قَبَائِلِ الْيَهُودِ: بَنِي قَيْنِقَاعَ، وَبَنِي النُّضَيْرِ، وَبَنِي قَرِظَةَ، وَيَهُودَ خَيْبَرَ، وَفَدَكَ
وَتِيمَاءَ. وَتَحَوَّلَ الْيَهُودُ إِلَى أَفْرَادٍ مُتَفَرِّقِينَ هُنَا وَهَنَاكَ فِي الْحِجَازِ، وَلَا كَيَانَ لَهُمْ،
وَلَا خَطَرَ مِنْهُمْ!!.

تَحَقُّقُ الْوَعْدِ الْقِرْآنِيِّ بِوُقُوعِ الْإِفْسَادِ الثَّانِي:

أَخْبَرَتِ الْآيَاتُ عَنْ مَظَاهِرِ قُوَّةِ الْيَهُودِ، عِنْدَ الْإِفْسَادِ الثَّانِي الْكَبِيرِ، قَالَ
تَعَالَى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ
نَفِيرًا ۚ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنَكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۚ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾.

وَتَوْحِي الْآيَةُ بِأَنَّ الْيَهُودَ سَيَتَغَلَّبُونَ عِنْدَ إِفْسَادِهِمُ الثَّانِي عَلَى الَّذِينَ أَزَالُوا
إِفْسَادَهُمُ الْأَوَّلَ، وَهَذَا مَا يُؤَكِّدُ أَنَّ فِي هَذَا الزَّمَانِ نَعِيشُ الْإِفْسَادِ الْيَهُودِيِّ الثَّانِي.

(ثم): حَرْفٌ لِلتَّرَاخِي الزَّمْنِي، وَيَدُلُّ عَلَى الْفَتْرَةِ الزَّمْنِيَةِ الطَّوِيلَةِ، الْوَاقِعَةِ

بين الإفسادَيْن، الإفسادِ الأول الذي كان في بداية القرنِ الأول، والإفسادِ الثاني الذي بدأ منذُ بداية القرنِ الرابع عشر الهجري. أي: أنَّ الفترةَ بين الإفسادَيْن كانت ثلاثةَ عشر قرناً!

وعَبَّرَ عن عودةِ اليهودِ للإفسادِ الثاني بلفظ: ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾.

ومعنى: (رددنا) أعَدْنَا وأَرْجَعْنَا. و(الكرَّة) هي العودةُ للإفساد، والضميرُ في (عليهم) يعودُ على العبادِ الرِّبَانِيِّين، أُولي البأسِ الشديد، الذين جاسوا خلالَ ديارِ اليهود، وأزالوا إفسادَهُم الأوَّل.

ونحنُ المقصودونَ بهذا الضمير: «عليهم»، لأنَّنا خَلَفَ لجيلِ الصحابةِ المجاهدين، ولكننا لسنا على طريقِهِم، فنحن «شَرُّ خَلَفٍ لَخَيْرِ سَلَفٍ»، ولذلك تغلَّبَ اليهودُ علينا وهزمونا.

ومن مظاهر قوةِ اليهودِ في إفسادِهِم الثاني المعاصر ما عبَّرت عنه الآية: ﴿وَأَمَدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيكَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

فاللهُ أَمَدَّهُم بالأموالِ الكثيرةِ الطائلة، وأمَدَّهُم بالبنيِّينَ الكثيرين. . وهو الذي جعلَهُم أَكْثَرَ نَفِيرًا وتأييداً، فمعظمُ دولِ العالمِ تنفِرُ معهم وتؤيِّدُهُم، وتقفُ إلى جانبِهِم، وتدافعُ عنهم، وفعلَ اللهُ ذلكَ لهم ابتلاءً وامتحاناً، ليقيمَ عليهم الحُجَّةَ، ويوقِّظَ بِهِم المسلمين، تمهيداً للانتقامِ منهم.

إنَّ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمَدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيكَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾. وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ فيهِمَا وعدٌ قرآنيٌّ بتحقيقِ هذا العلوِّ والإفسادِ والاستكبارِ من قِبَلِ اليهود. وقد تحقَّقَ هذا الوعدُ بعد ثلاثةَ عشرَ قرناً من الوعدِ به والإخبارِ عنه.

الوعد القرآني بإزالة الإفساد الثاني:

وعَدَ القرآنُ وعداً قاطعاً بإزالةِ الإفسادِ اليهودي الثاني، وذَكَرَ كيفيةَ تلكِ الإزالة، وجاءَ ذلك في قولَه تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾.

معنى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾: إذا حَانَ وَقْتُ المَرَّةِ الثانية، وهي المَرَّةُ الآخرة والأخيرة.

والخطابُ في قوله: ﴿وَجُوهَكُمْ﴾ لليهود المتكبرين، المفسدين إفسادهم الثاني. والإخبارُ في قوله: ﴿لِيَسْتَوُوا﴾ عن المؤمنين المجاهدين، الذين هم أحفادُ الصحابةِ المجاهدين، والذين سيعتُهم الله، لِيُزيلوا إفسادَ اليهود الثاني. فهؤلاء العبادُ المجاهدون سيهزمون اليهود، ويذلّونهم، ويُسودّون وجوههم، ويوقعون بهم الحسرةَ والهوان.

وأخبرَ الله عن جهاد هؤلاء ودخولهم المسجد الأقصى بقوله: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والمرادُ بدخولِ المسجدِ أولَ مرة: دخولُ الصحابةِ الأقصى فاتحين، عندما فتحوا بلاد الشام.

وهذا يدلُّ على أَنَّ المعركةَ ضدَّ اليهود عند إفسادهم الثاني هي معركةُ المسجدِ الأقصى، وسيدخله المجاهدون فاتحين، وسيحررون الأرض المقدسة، ويُدْمرون الكيانَ اليهوديَّ عليها: ﴿وَلِيُسْزِفُوا مَا عَلَوْا تَبْسِيرًا﴾.

ونحنُ نوقنُ أَنَّ الوعدَ القرآنيَّ الواردَ في هذه الآيات، والجازمُ بإزالةِ الإفسادِ اليهوديِّ الثاني آتٍ لا محالة، ونعتقدُ أنه لا بدَّ أَنْ يتحقَّقَ بإذنِ الله. فعمُرُ اليهودِ على الأرضِ المقدسةِ قصير، وستعودُ فلسطينُ أرضاً إسلاميةً بإذنِ الله.

وعد الله لرسوله ﷺ أثناء الهجرة:

ثانياً: قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ (٨١) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨٢) وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِيْنَ وَلَا يَزِيْدُ الظَّٰلِمِيْنَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٠-٨٢].

يوجّهُ اللهُ رسوله ﷺ إلى أن يطلبَ منه التوفيقَ والسداد، بأن يُلهمه اختيارَ المكانِ المناسب، والقرارِ المناسب، والتصرفِ المناسب، ويسألُ ربّه أن يُدخله مدخلَ صدق، ويُخرجه مخرجَ صدق، وأن يجعلَ له سلطاناً قوياً، ونصراً كريماً.

ويُشرِّه اللهُ رسوله ﷺ بأنَّ الحقَّ الذي معه سينتصرُ على الباطل الذي عليه قومه، وسيُزهِقه ويقضي عليه، ويُخبره أنَّ الباطلَ ضعيفٌ زائلٌ زهوق، ولا يُمكنُ أن يقفَ أمامَ الحق.

ويُخبره أنه جعلَ القرآنَ شفاءً للمؤمنين، ورحمةً منه سبحانه يرحمهم بها،

أما الكافرون فإنهم يُعرضون عن القرآن، ولذلك لا يُرحمون به، وإنما يزدادون به ضللاً وعمى، وعناداً وخسارة.

وهذه الآيات من سورة الإسراء أنزلت على رسول الله ﷺ عند هجرته من مكة إلى المدينة، ولذلك قُدِّمت له البشرى بالفرج، والوعد بالنصر.

والمراد بمدخل الصدق دخوله المدينة، والمراد بمخرج الصدق خروجه من مكة، والمراد بالسلطان النصير: التمكين والتأييد، الذي منحه الله له في المدينة.

من أقوال السلف في ذلك الوعد:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان النبي ﷺ بمكة، ثم أُمِرَ بالهجرة، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾.

وقال الحسن البصري: لما ائتمر كفارُ مكة برسول الله ﷺ، ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، وأراد الله قتال أهل مكة، أمره الله أن يخرج إلى المدينة، وأن يقول: ﴿رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

وقال قتادة: ﴿رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾: المدينة. ﴿وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾: مكة.

وقال الحسن البصري في تفسير قوله: ﴿وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾: وعد الله رسوله ﷺ، لينزع عن عَزَّ فارس ومُلْك فارس، وليجعلته له، ومُلْك الروم وعَزَّ الروم وليجعلته له.

وقال قتادة في تفسيره: إن رسول الله ﷺ علم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل السلطان نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمة من الله، جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم [تفسير ابن كثير: ٦٣/٣ - ٦٢].

وتشير الآيات إلى حفظ الله لرسوله ﷺ، فهو سبحانه معه بتوقيفه وتأييده، ونصره وتسديده، يأخذ بيده لما هو الخير له، ويعده بالتمكين.

وهذا الوعدُ الصادقُ مهمٌّ، في الحالة التي كان عليها رسولُ الله ﷺ، عند نزولِ الآياتِ عليه، حيث كانَ مطارداً من قِبَلِ قريش، وكانَ عيونُها يراقبونه في كلِّ مكان، وليس معه من البشرِ إلا صاحبه الصديقُ رضي الله عنه، وكلُّ مَنْ حولَه ضدهً.. ومع ذلك يأتِيه الوعدُ من الله بانتصار دينه، وهزيمة أعدائه، ويُنزِلُ اللهُ عليه هذه الآياتِ ليزدادَ أملاً وثقةً وتصديقاً وإيماناً بتحقيقِ وعدِ الله.

وكان ﷺ كلُّه يقينٌ بذلك، ولذلك وعدَ سراقَةَ بنَ مالكٍ بسوارِي كسرى!.

رد الله رسوله إلى مكة:

وأنزلَ اللهُ عليه ﷺ وهو في طريقِ الهجرة آيةً أخرى، يَعِدُه فيها وعداً قاطعاً بالعودةِ إلى مكة، فاتحاً ظافراً. وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما: ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾: لرادك إلى مكة كما أخرجَكَ منها.

وقال الضحاك: لما خرجَ رسولُ الله ﷺ من مكة، فبلغَ الجُحفةَ، اشتاقَ إلى مكة، فأنزلَ اللهُ عليه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾: يعني: إلى مكة.

وقد صدَّقَهُ اللهُ وعْدَه، فأعادَه إلى مكة، بعد حوالي تسعِ سنواتٍ من نزولِ هذه الآية، حيثُ عادَ إلى مكة فاتحاً، وجعلها دارَ إسلامٍ وإيمانٍ.

ماذا قال الرسول ﷺ وهو يحطم الأصنام؟:

ولما صدَّقَ اللهُ رسوله ﷺ وعْدَه، وأعادَه إلى مكة فاتحاً، في رمضان من السنة الثامنة من الهجرة، دخلَ رسولُ الله ﷺ الكعبةَ، وحطَّم الأصنامَ التي فيها، وهو يتلو آياتِ الوعد، التي نزلتْ عليه قبلَ حوالي تسعِ سنواتٍ.

روى البخاري [برقم: ٢٤٧٨]، ومسلم [برقم: ١٧٨١] عن عبدِ اللهِ بنِ مسعود رضي الله عنه قال: دخلَ النبيُّ ﷺ مكة، وحولَ الكعبةَ ثلاثمئة وستون صنماً، فجعلَ يطعنُها بعودٍ في يده، وجعلَ يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ

الْبَاطِلُ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبا: ٤٩].

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثمئة وستون صنماً، تُعْبَدُ من دون الله، فأمر بها رسول الله ﷺ، فَأُكِبَّتْ على وجوهها، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [تفسير ابن كثير: ٦٣/٣].

إزهاق الحق للباطل الزهوق:

واللطيف أن قوله تعالى: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ وعد نظري من الله لرسوله ﷺ، بانتصار الحق وهزيمة الباطل، وقد حقق الله له هذا الوعد بعد سنوات معدودة، عندما فتح له مكة، وحطّم الشرك بها، المتمثل في الأصنام التي كان المشركون يعبدونها!.

متى زَهَقَ الباطل؟ ومتى تحطّمت الأصنام؟ ومتى حقق الله هذا الوعد؟.

لقد تحقّق ذلك بعد سنوات عديدة، أمضاها الرسول ﷺ في مكة، بلغت ثلاث عشرة سنة، كان يرّبي فيها أصحابه، وسنوات في المدينة، قاربت تسع سنوات، قضاها رسول الله ﷺ، في تربية أصحابه ومحاربة أعدائه.

فلما وُجِدَ الجيلُ القرآنيُّ الفريدُ المجاهد، الذي صدّق مع الله، وحمل رسالة الإسلام، وجاهد أعداء الله، أنزل الله عليه نصره، وصدّقه وعده.

عند ذلك تمّ تحطيم الأصنام بسهولة، وبحركة خفيفة من عصا صغيرة، بيد رسول الله ﷺ. . . لقد حطّم الرسول ﷺ الأصنام في قلوب الناس أولاً، واستغرق ذلك سنوات طويلة، وبعد ذلك سهل تحطيم الأصنام داخل الكعبة، حيث لم يستغرق ذلك إلا دقائق!.

إنّ الباطل زهوق زائل، ذاهب هالك مضمحل، لكن بشرط أن يتمثّل الحق في صورة وجود فعلي، مؤثر قوي، يعتمد فيه أصحابه على الله القوي القاهر!!.

* * *

الوعد لقُرْآنِي في سورة الأنبياء

سورة الأنبياء سورة مكية، سُميت بهذا الاسم لأنه ذُكر فيها مجموعة مباركة من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وأشير إلى مشاهد ولقطات سريعة من قصصهم، وهم إبراهيم، ولوط، وموسى، وداود، وسليمان، ويونس، وأيوب، وإدريس، وإسماعيل، وزكريا، ويحيى، وعيسى، عليهم الصلاة والسلام.

وتحدثت آيات السورة عن المواجهة المستمرة بين الحق والباطل، وكان يقود أهل الحق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، بينما يقود أهل الباطل الملأ من الأقوام الكافرين.

وتركز آيات السورة على المواجهة بين خاتم المرسلين محمد ﷺ، وبين الكافرين من قريش، حيث تعرض لشبهاتهم وإشاعاتهم، وترد عليها، وتعرض لحقائق عديدة، تتعلق بمسيرة الحق وانتصاره على الباطل.

وورد فيها وعد قرآني بانتصار الحق على الباطل، وإزهاق الباطل أمام الحق، تلقاها الصحابة وهم مستضعفون معذبون مضطهدون، وتعاملوا معها بيقين وثقة، وأمل وبشرى. وثبتوا على الحق، وواجهوا الباطل، وقطعوا الفترة المكية، وهم موقنون بتحقيق هذه الوعود القرآنية. ولما ذهبوا إلى المدينة جاهدوا في سبيل الله، وهزموا أعداء الله، وحقق الله لهم تلك الوعود المأمولة.

من أهم الوعود القرآنية في سورة الأنبياء ما يلي:

الله صدق رسله وعده:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٧-١٠].

تقدم هذه الآيات خلاصة المواجهة بين الرسل السابقين وبين أقوامهم الكافرين، ليعرفها أعداء النبي ﷺ، ويعيها أتباعه.

فإنه كان يختار رجالاً، ويجعلهم رسلاً، وينزل عليهم وحياً، ويعيهم إلى أقوامهم، فيدعونهم إلى الله، ويُقدّمون لهم الآيات، وكان يستجيب لهم قلائل من أقوامهم، ويكذبهم ويكفر بهم كثيرون، ويؤذونهم وينالون منهم، ويضطهدون ويعذبون أتباعهم، فيصبر الرسل وأتباعهم، ويثبتون على الحق، وينتظرون حكم الله بإنجائهم، وإهلاك الكافرين المكذبين... وعندما تنتهي المدة التي حددها الله بعلمه وحكمته، يُنهي الله قصة الرسول مع قومه، ويُنجي المؤمنين، ويُهلك المسرفين.

والشاهد في الآيات قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾.

الإخبار في الآية عن الرسل السابقين، حيث كان الله يُعدهم وغداً قاطعاً، بأنه سوف يفتح بينهم وبين قومهم الكافرين، ويُنهي المواجهة معهم، ويجعل العاقبة لهم، وكان الرسل واثقين من تحقق وعد الله، منتظرين وقوعه.

وكان الله يُصدقهم الوعد، في الوقت الذي يحدده سبحانه، وبالكيفية التي يختارها عز وجل، فينجيهم هم وأتباعهم، ويُهلك أعداءهم الكافرين المسرفين.

والقصص القرآني معرض لهذه الحقيقة، حيث انطبقت على قصص نوح وهود وصالح وغيرهم، عليهم الصلاة والسلام.

وذكر هذه الحقيقة القرآنية لتبشير أصحاب رسول الله ﷺ، وتوجيه أنظارهم إلى وعد الله القادم، بنصرهم على كفار قريش... وقد وعى الصحابة هذه الإشارة، وتحركوا في دعوتهم صابرين ثابتين، ناظرين إلى تحقق وعد الله، الذي كانوا به موقنين!

وذكر هذه الحقيقة القرآنية لتهديد كفار قريش، وإخبارهم بأن العذاب قادم إليهم، إن لم يتوقفوا عن الكفر والتكذيب، والظلم والتعذيب، ولذلك عرضت الآيات اللاحقة مشهد إهلاك الظالمين السابقين. قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١١) فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَاسِهَا إِذَا هُمْ مِنْهَا

يَرْكُضُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكِلُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا يُبَوِّلُنَا
إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلِيبِينَ ﴿٢٠﴾ [الأنبياء :
١١-١٥].

السنة الربانية في الصراع بين الحق والباطل:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨].

تقرر هذه الآية حقيقة قاطعة، تحدد نهاية الصراع بين الحق والباطل، تلك
النهاية التي يحددها الله بحكمته، في الزمان والمكان والأسلوب المناسب، والتي
يُرْهَقُ فيها الباطل ويُنصَرُ الحق.

وسبق هذه الآية آيتان تتحدثان عن (الجديّة) في أفعال الله، وتنفي عنها
اللعب والعبث. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَْعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ
نَتَّخِذَ لَهُوَ لَا تَخَذُنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٦-١٧].

خلق الله السماوات والأرض لحكمة، ولم يكن لاعباً في خلقه لهما
سبحانه، وأفعاله منزّهة عن اللهو والعبث! ولو أراد أن يتخذ لهواً لاتخذ من
عنده، وما كان ليفعل ذلك.

﴿إِنْ﴾ في قوله: ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ حرف نفى بمعنى (ما). أي: ما كنا
فاعلين ذلك اللهو.

ونفي اللعب واللهو عن أفعال الله، في سياق الحديث عن المواجهة بين
الحق والباطل، مقصود، ليبين أن الله حكيم في توجيه هذه المواجهة، ورسم
خطواتها ومراحلها وأحداثها.

إنّ الصراع بين الحق والباطل سنة ربانية، وإنّ إزهاق الباطل سنة ربانية،
وإنّ انتصار الحق على الباطل سنة ربانية. وقد وعد الله المؤمنين بإنفاذ هذه السنة،
لأنّ سنة الله لا تتغيّر ولا تبدّل، ووعد الله لا يخلف أو يُنقض.

وكلّ قصص القرآن معرض عمليّ لإنجاز هذا الوعد، وتحقيق هذه السنة،
وكلّ حركة للمسلمين الصادقين المجاهدين، على مدار التاريخ الإسلامي،

معرضٌ عمليٌّ إسلاميٌّ لهذه السنة، وتفسيرٌ إسلاميٌّ للوعدِ الجازمِ في هذه الآية: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾.

الحق يدمغ الباطل:

ولنستمتع بالصورة الفنية العجيبة الحية، التي تعرضها الآية، للصراع بين الحق والباطل.

إنها صورةٌ عسكريةٌ صاروخيةٌ متحركة، نتخيلها في خيالنا الفاعل، ونحن نقرأ الآية، وكأننا أمام (فيلم تلفزيوني مصوّر) لمراسل عسكري، يبيته بثاً حياً على القناة الفضائية: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾!

لننظر في (الفيلم) الذي تعرضه علينا الآية: إننا نرى على الشاشة (الباطل) في صورة جسمٍ عسكريٍّ مجسّم، كأن يكون دبابة، أو حاملة طائرات، أو منصّة لإطلاق الصواريخ! ولتفتُ إلى الجانب الآخر، معسكر الحق، فنرى قاعدةً ماديةً مجسّمةً لهذا المعسكر، ونرى مجموعةً من (الصواريخ) جاهزةً للانطلاق لتدمير الباطل.. وما هي إلا لحظةٌ قصيرة، حتى يُصدر الأمرُ أمره بإطلاق (صاروخ الحق) فينطلق الصاروخُ نحو هدفه، ونراه في هذا الفيلم المصوّر متوجّهاً نحو معسكر الباطل.. ونراه وهو يُصيبه إصابةٌ مباشرة، ونراه وهو يدمغه ويدمره ويفجّره.. ونرى الباطل زاهقاً مدمراً هالِكاً، زالَ عنه انتفاشه وأدعاؤه!!

لقد عَرَضَت الآيةُ المعجزةُ انتصارَ الحقِّ على الباطل، في صورةٍ معبرةٍ مؤثرة، على أساس القاعدة الجمالية القرآنية: (التصوير الفني في القرآن)، التي عرضَ بها القرآنُ مختلفَ موضوعاته!

الكفارُ شيطون في نشرِ باطلهم والتمكين له، وينجحون في ذلك إلى حدٍّ ما، حيثُ يقيمون لباطلهم وجوداً كبيراً، متمثلاً في أنظمةٍ وأجهزة، وكيانات ومؤسسات، ويمدّونها بكلِّ وسائلِ القوة، لتستمرَّ وتبقى.. وهم أيضاً جادّون في محاربةِ الحقِّ وأهله، ويستخدمون في ذلك مختلفَ الوسائلِ والأساليب، ويُحقّقون بعضَ النجاح.

ويعجّبُ الكفارُ بجهودهم في التمكينِ لباطلهم، وفي حربِ الحقِّ وأهله، ويظنون أنهم نجحوا في مُرادهم، وحَقّقوا أهدافهم، فيفرحون ويرتاحون..

وفجأةً يأتيهم أمرُ الله، من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون، فيُتَوَي سبْحانه جندُ الحق، وينصرُّهم على جندِ الباطل، ويقذفُ بقذائفِ وصواريخِ الحقِّ على مؤسساتِ الباطل، فيدمغُها ويدمرُها ويهلكُها.

تحققَ هذا في إهلاكِ وتدميرِ قوى الباطلِ قبلَ الإسلام، على يدِ الرسلِ وأتباعِهم، وأنفذَ اللهُ فيها قدرَه وإرادَتَه سبْحانه. . وتحققَ في إهلاكِ وتدميرِ قوى الباطلِ بعدَ الإسلام، وأنفذَ اللهُ فيها قدرَه وإرادَتَه، وقذفَ سبْحانه قذائفَ الحقِّ على الفرسِ والرومِ وأهلكَهم، وقذفَها على الصليبيين والتتارِ وأهلكَهم. .

وها هي قوى الباطلِ في زماننا منتفِسةٌ طاغيةٌ باغيةٌ، تتمثلُ في العالمِ الغربيِّ الصليبي، الذي تقوده أمريكا، وتتمثلُ في اليهودِ المفسدين. وإننا على يقين من أنَّ اللهَ سيقذفُ قذائفَ الحقِّ الإسلامية على هذه القوى الكافرة، فيدمغُها ويزهقُها ويدمرُها. ويقولون: متى هو؟ قل: عسى أن يكونَ قريباً! .

معنى إنقاص الأرض من أطرافها:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١١) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿١٢﴾ [الأنبياء: ٤٤ - ٤٥].

الكلامُ عن كفارِ قريش، وفيه إنذارٌ لهم، وتهديدٌهم بالعقاب، إن لم يتخلَّوا عن الكفرِ والتكذيب، ومعاداةِ رسولِ الله ﷺ.

يُخبرُ اللهُ أنه أنعمَ على كفارِ قريش، ومتَّعهم بمختلفِ أنواعِ المتع، كما أنعمَ على آبائهم ومتَّعهم، ولكنَّهم قابلوا هذا الإنعامَ والإمتاعَ بالجحودِ والكفرانِ والعصيان، واستوجبوا بذلك العقاب.

وسيكونُ العقابُ بإضعافِهم، وإزالةِ سلطانهم، حيثُ سيقصُّ اللهُ عليهم الأرضَ من أطرافِها، وسيقلَّصُ نفوذَهم، وسيضعفُ تأثيرَهم. . وهم ضعفاءُ أمامَ قوةِ الله، مغلوبون أمامَ أمرِهِ، ولن تستطيعَ أيُّ قوةٍ مخلوقةٍ مهما عظمتُ أن تقفَ أمامَ قوةِ الواحدِ القهار.

وأمرَ اللهُ رسولَه ﷺ أن يُنذَرَ الكفارَ العذاب، لعلَّهم يراجعون عن ما هم

فيه، فإذا فتحوا قلوبهم وحواسهم للإنذار استفادوا ونجوا، وإن أغلقوا قلوبهم وحواسهم خسروا وهلكوا.

والشاهد في الآية قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

ويخطئ بعض الباحثين من المسلمين في فهم المقصود من إنقاص الأرض من أطرافها، المذكور في هذه الآية، وفي الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]. فيعتبرون حديث الآيتين عن (شكل) الأرض البيضاوي، فالله أنقص الأرض من أطرافها، بأن صغر حجمها عن القطبين الشمالي والجنوبي، والله مدد الأرض وكبرها عند خط الاستواء!.

ونرى أن هذا فهمٌ مرجوحٌ للآيتين، و(شكل) الأرض قد يكون هكذا، مضغوطاً عند القطبين، و(منبعجاً) عند خط الاستواء، لكن إنقاص أطراف الأرض الذي تحدثت عنه الآيتان إنقاصٌ معنوي، وليس مادياً، وهو يتمثل في إضعاف قوى دول وإمبراطوريات، وتقلص سلطاتها، وخروج بعض البقاع في أطرافها عن سيادتها، وانكماش رقعتها الجغرافية.

الوعد بإزالة دول وإنشاء أخرى:

لقد مكّن الله لبعض الدول في الأرض، في الماضي والحاضر، فنشرت سلطاتها، وبسطت نفوذها، واحتلت بلاداً لغيرها، واستعمرت أقواماً آخرين، وبقيت على هذا فترة من الزمان.

ولكن الله أضعفها، وأنقص أطراف سيادتها، وجعلها تتراجع عن بعض المواقع، وتنسحب من بعض البلدان.

تحقق هذا في إنقاص أطراف الإمبراطورية اليونانية، والإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية الهندية.

وتحقق هذا في العصر الحديث، في الإمبراطورية الإسبانية، ثم الإمبراطورية الفرنسية، والإمبراطورية الألمانية، والإمبراطورية الإنكليزية، وأخيراً الإمبراطورية السوفياتية.

والآن تنشرُ الإمبراطوريةُ الأمريكيةُ سلطانها ونفوذها على العالم، وتطوي دوله تحت أجنحتها، وتخطط أن تبقى هكذا للأبد، ولكن الله سيضعف قوتها، ويقلص نفوذها، وسينقص أطرافها، وتراجعُ إلى ما وراء المحيط، وسيقتُ وحدتها، ويُفترقُ ولاياتها الخمسين، ويقسمها إلى عدة دويلات ! .

إنَّ إنقاصَ أطرافِ الدولِ الكبرى سنَّةً ربانيةً مطردة، فاللهُ هو الذي يُقوي الدولة، ويمكنُ لها، ويكتبُ لها التوسُّعَ والامتداد، وهذه الدولة تُستخدمُ قوتها ومواردها وطاقاتها في استعبادِ الآخرين واستعمارهم، وتظلمُ وتطغى وتتجبر، وبذلك تستقدمُ عذابَ الله وبأسه؛ ويكونُ عقابه لها بإنقاصِ أطرافها، وانفصالِ أجزائها، واستقلالِ الأقطارِ المستعمَرة، وتحريرِ البلدانِ المحتلة . . . ولن تبقى دولة ظالمة قوية غالباً أبداً: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ؟ .

وراثه الأرض في التوراة والزبور:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرُثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَصِيدِينَ ﴿ ١٠٦ ﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ - ١٠٧] .

الكلامُ في هذه الآياتِ عن وراثه الأرض، ومستقبلِ عبادِ الله الصالحين، وعمومِ بعثةِ الرسول ﷺ للعالمين .

وتتضمنُ الآياتُ وعداً قرآنياً بالتمكينِ للإسلام، ونصرِ أتباعه الصالحين . وهذا الوعدُ ليس خاصاً بالقرآنِ فقط، فقد وردَ في كتبِ الله السابقة، وأنزلَ على رسلِ سابقين .

تخبرُ الآيةُ أنَّ هذا الوعدَ مذكورٌ في الزبور، وهو كتابُ الله الذي أنزلَه على داودَ عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ .

والمرادُ بالذكرِ في الآيةِ التوراة، التي أنزلها اللهُ على موسى عليه السلام، وصفها اللهُ بهذه الصفةِ في هذه السورة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨] .

وقد كتبَ اللهُ في التوراة والزبور أنه يورثُ أرضه لعباده الصالحين ، ويجعلُ العاقبة للمتقين .

وقد وردَ هذا الوعدُ صريحاً ، في حديثِ سورة الأعرافِ عن ما جرى بين موسى عليه السلام وبين فرعون . وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿ [الأعراف : ١٢٨-١٢٩] .

الإيمانُ بالله ، والاستعانةُ به ، والصبر ، طريقٌ وسبيلٌ لوراثَةِ الأرض ، لأنَّ الأرضَ لله ، يورثُها عباده المؤمنين الصابرين ، ويجعلُ العاقبة للمتقين .
هذا وعدُ الله الذي كتبه في التوراة ، وهو وعدُه الذي كتبه في الزبور ، وكتبه في القرآن .

لماذا الوعد في الزبور؟

وذكرُ الزبورِ في الآيةِ مقصودٌ ومراد ، لأنه أنزله اللهُ على داودَ عليه السلام ، وكان داودُ ملكاً على بني إسرائيل ، ورسولاً لهم ، وأنشأَ لهم مملكةً كبيرة ، زادت امتداداً وقوةً في فترةِ حكمِ ابنه الرسولِ الملكِ سليمان ، عليهما السلام ، وكان حكمُهما في الأرضِ المقدسة .

ويتباهى اليهودُ ويتفاخرونَ في فترةِ مُلكِ سليمانَ وداودَ عليهما السلام ، ويرغمونَ أنهما أقاما في الأرضِ المقدسةِ حكماً يهودياً ، وأنَّ اللهَ أعطى الأرضَ المقدسةَ (فلسطين) لليهود إلى الأبد! .

وآياتُ سورة الأنبياءِ تكذبُهم ، حيثُ تذكرُ بعضَ ما كتبه اللهُ في الزبور ، النازلِ على داودَ عليه السلام ، وهو يتناقضُ مع ما يزعمُه اليهود .

الأرضُ لله ، هو الذي يملكُها في الحقيقة ، ويملكُها لمن يشاءُ من عباده ، وفقَ إرادته وحكمته ، ويورثُها عباده المؤمنين المتقين الصالحين ، فيأخذونها من أيدي الآخرين .

وراثه الأرض للعابدين:

وهذا الوعد في الآية بلاغ لقوم عابدين متقين، يسمعون ويبلغونه، ويتقون به، ويحققون شروطه لينالوه.

وقد تلقى الصحابة هذا الوعد القرآني، وهم مستضعفون معذبون في مكة - لأن سورة الأنبياء مكية - فوثقوا به، وأيقنوا أنه لا بد من تحقيقه وإنجازه، ولهذا كانوا يستقبلون أذى واضطهاد الكافرين، وهم على يقين من وراثتهم للأرض، وأنه لا بد من أن يزول الكفر عن مكة وغيرها، ولا بد من أن ينتشر فيها الإسلام، ويرثها المسلمون الصالحون. . وهذا ما تحقق بعد أكثر من عشر سنوات من نزول هذه الآيات.

ثم قام الصحابة المجاهدون بجهادهم الكبير، في بلاد الشام والعراق ومصر وفارس وغيرها، ونشروا فيها الإسلام، وورثوها بأمر الله، وتحقق على أيديهم الوعد القرآني الناجز: ﴿أَنْتَ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٠) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَكِيدٍ ﴿١٠١﴾.

وبمناسبة الحديث عن وراثه عباد الله الصالحين للأرض، يأتي تقرير عموم رسالة الرسول محمد ﷺ للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. وهذا وعد قرآني آخر، بانتشار رسالته في العالمين، واستمتاع الناس برحمة الله.

وتقرير هذا الوعد والمسلمون مستضعفون في مكة، ملأ قلب الرسول ﷺ ثقةً و يقيناً بنصره وانتشار دينه.

والآيات الأخيرة من سورة الأنبياء تأكيد قاطع على إنجاز هذا الوعد القرآني، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٠) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنِ آذَيْتَ أَخْرَبُ أَمَ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَإِنِ آذَيْتَ لَعَلَّكُمْ فَتَنَةً لِّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٠٣﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٨ - ١١٢].

* * *

الوعد لقمر آني في سورة الروم

سورة الروم مكية، كان نزولها في منتصف عمر الدعوة الإسلامية في مكة، التي استمرت ثلاث عشرة سنة، وسُميت بهذا الاسم لورود كلمة (الروم) فيها. وهي دولة (الروم) القوية، التي كانت أقوى دولة في العالم عصر نزول القرآن، وتتنازع السيطرة على العالم القديم مع دولة الفرس المجاورة لها.

وتحدثت الآيات الأولى من السورة، عن الحرب بين الفرس والروم، وأشارت إلى هزيمة الروم أمام الفرس في جولة سابقة، وأخبرت عن انتصار الروم على الفرس، خلال بضعة سنين.

وقد تحدثنا عن جزم آيات السورة بنبأ مستقبلي، حدثت له بضعة سنين، وقد وقع في نهاية المدة التي حددتها الآيات، وأشرنا إشارة سريعة إلى ذلك، في مبحث (تحقق الأخبار المستقبلية في القرآن).

وحديثنا هنا عن تحقق الوعد القرآني الذي قرره مطلع السورة، وعن الوعد القرآني في آخر السورة.

الوعد بانتصار الروم على الفرس:

أولاً: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا بِرُومٍ ۖ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَافِلُونَ ۚ﴾ (٢) في بضع سنين ۖ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ ۚ﴾ (٤) يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۚ﴾ (٥) وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ﴾ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ۚ﴾ [الروم: ١-٧].

المعنى الإجمالي لهذه الآيات هو: أخبرت الآيات عن هزيمة الروم أمام خصومهم الفرس، في المعارك التي وقعت في أدنى الأرض، وأقربها إلى الجزيرة

العربية . . ثم جزمت الآياتُ أنَّ الرومَ سيهزمونَ الفرسَ، بعد انهزامهم أمامهم، وأنَّ انتصارَ الروم على الفرسِ سيكونُ في بضعِ سنين، وأقصى مدّةٍ لها ستكونُ تسع سنوات، لأنَّ البضعَ من الثلاث إلى التسع .

وفي الوقتِ الذي سينتصرُ فيه الرومُ على الفرس، سينصرُ اللهُ المسلمينَ أيضاً، وبذلك سيفرحون بنصرِ الله الذي مَنَّ به عليهم . وهذا وعدٌ قاطعٌ نافذٌ من الله، لا بدَّ أن يتحقّق، لأنَّ الله لا يُخلفُ وعده .

وقد كانت الحروبُ طاحنةً مستمرةً بين الدولتين القويتين: الروم والفرس، وكان من أعنفها الحربُ التي وقعتَ بعدَ بعثةِ رسولِ الله ﷺ .

ففي منتصفِ عهدِ الدعوةِ في الفترةِ المكية، شنَّ الفرسُ حرباً قويةً ضدَّ الروم، حيثُ توجهوا غرباً فاحتلّوا بلادَ الشام، ودخلوا بيتَ المقدس سنة (٦١٤م)، وتوجَّهوا شمالاً فاتحين مختلفَ المدنِ الرومية، حتى حاصروا العاصمةَ القسطنطينية .

وسمِعَ العربُ أخبارَ هزيمةِ الرومِ أمامَ الفرس، وكان هذا في السنةِ السادسةِ للبعثة، فحزنَ المسلمونَ لهزيمةِ الروم، لأنَّهم أهلُ كتاب، بينما فرحَ المشركونَ لانتصارِ الفرس، لأنَّهم مثلهم يعبدون الأوثانَ والنار، ويُشركونَ بالله .

وأَنزَلَ اللهُ في تلكِ السنةِ سورةَ الروم، وفيها الخبرُ بانتصارِ الفرس، والوعدُ بانتصارِ الروم عليهم في بضعِ سنين . ولم يكنْ في الأفقِ ما يدلُّ على قربِ انتصارِ الروم على الفرس، فالرومُ مهزومون، وجيشُهم محطَّم، والفرسُ يحاصرونَ القسطنطينية، فكيفَ يجزمُ القرآنُ أنَّ الرومَ المغلوبين سينتصرون على الفرس، الغالبين في بضعِ سنين؟ .

مراهنة أبي بكر للمشرك على انتصار الروم:

تلقَى المسلمون هذا الوعدَ القرآنيَّ باليقين، وصاروا ينشرونَه بين المشركين، وكانَ من أكثرهم فَرَحاً أبو بكر الصديق، الذي صارَ يُنادي في شوارعِ مكة أنَّ الرومَ سينتصرون على الفرسِ في بضعِ سنين .

واستبعدَ المشركونَ ذلكَ وأنكروه، وأمامَ جزمِ أبي بكر بتحقيقه جاءَ أحدُ

المشركين لمراهنته، فراهته أبو بكر، على أن الروم سينتصرون على الفرس بعد خمس سنين، فإن لم يتحقق ذلك، دفع أبو بكر لصاحبه عدداً من الإبل، وكان هذا قبل تحريم الرهان في الإسلام، لأنه حُرِّمَ بعد الهجرة.

وانقضت السنوات الخمس، ولم ينتصر الروم، وجاء الرجل يطالب بالرهان، وأخبر أبو بكر رسول الله ﷺ بالأمر، فأمره أن يجعل المدة تسع سنين، لأن الآية حدّتها ببضع سنين، والبضع من الثلاث إلى التسع، ففعل أبو بكر رضي الله عنه.

وفي السنة التاسعة لنزول الآيات، قام هرقل قيصر الروم بحرب عنيفة، هزم فيها الفرس، ودخل عاصمتهم المدائن، وبذلك تحقق الوعد القرآني، وكسب أبو بكر الرهان، وكان هذا سنة (٦٢٣م).

لقد حدّدت الآيات موقع المعركة، التي هُزمت فيه الروم: ﴿عُلِبَتْ
الرُّومُ ۚ فِي آدْنَى الْأَرْضِ﴾.

والأدنى هو الأقرب، والمراد به الأرض الأقرب إلى أهل مكة، الذي أنزل الله إليهم الآيات. والأرض الأدنى إلى أهل مكة هي بلاد الشام، والمتاخمة للجزيرة العربية. . وقد احتلّ الفرس الأرض الأدنى للجزيرة العربية، ودخلوا القدس سنة (٦١٤م).

في الآيات وعدان تحققاً:

ونرى أن الآيات الأولى من سورة الروم تضمّنت وعدين اثنتين، وليس وعداً واحداً، وهذان الوعدان تحققاً في سنة واحدة.

الوعد الأول: انتصار الروم على الفرس، بعد بضع سنين من هزيمتهم أمامهم. وهو ما جزم به قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَاقِلُونَ﴾ (٤) في بضع سنين^{*}.

وقد تحقق هذا الوعد في السنة التاسعة لنزول الآيات، وكان ذلك سنة (٦٢٣م)، حيث دخل هرقل المدائن عاصمة الفرس.

الوعد الثاني: انتصار المسلمين على المشركين، في المعركة الأولى

الفاصلة، في غزوة بدر، وهو الذي أخبر عنه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرِّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ① ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

لقد كانت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، بعد تسع سنوات من نزول سورة الروم، الذي كان في السنة السادسة من البعثة .

بين الغلبة والنصر:

لا تسمى غلبة الروم على الفرس نصراً من الله، لأن نصر الله كرامة وتشريف منه، ولا يكون هذا النصر إلا لعباد الله المؤمنين الصالحين، والروم ليسوا عباداً مؤمنين صالحين! صحيح أنهم نصارى أهل كتاب، وأنهم أقرب للمسلمين من الفرس عبدة النار، لكنهم ليسوا مؤمنين، ولذلك أخبرت الآيات عن كسبهم المعركة بلفظ الغلبة: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَبْعِلَاوَنَ﴾ ② ﴿فِي ضِعْفِ سِنِينَ﴾ . وفرق بين الغلبة والنصر، لأن للنصر ظلال التكريم والتشريف من الله، وهذا خاص بالمؤمنين الصالحين! .

إن قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرِّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ① ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ﴾ ينطبق على نصر الله للمؤمنين في غزوة بدر، ولا ينطبق على غلبة الروم على الفرس .

وهو يتفق مع قوله تعالى في غزوة بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣] .

ومن تقدير الله الحكيم العليم، أن يتحقق الوعدان في سنة واحدة، هي سنة (٦٢٣م)، وهي السنة الثانية للهجرة، تغلب فيها الروم على الفرس، وانتصر فيها المسلمون على المشركين في غزوة بدر .

واللطيف في الآيات التي تحدّثت عن الوعدتين أنها ربطت الأمور كلها بيد الله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ . فالله يدبر أمر الكون كله، ويُقدر كل شيء يجري فيه، ولا يقع حدث سياسي أو عسكري إلا بأمر الله، ولا تنشب معركة إلا بأمر الله، ولا تغلب دولة غيرها إلا بأمر الله .

نظرة المؤمنين والكافرين إلى وعد الله:

ونصت الآيات على أن غلبة الروم للفرس، وانتصار المسلمين على

المشركين، وعُدَّ من الله الحكيم الخبير، والله لا يُخلف وعده: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾. والمؤمنون يتعاملون مع وعد الله باليقين والثقة، ويجزمون بأن الله منجز وعده.

أما الآخرون فإنهم يشكون في وعد الله، لأنهم لا يعلمون قدرة الله المطلقة، وأنه سبحانه فعال لما يريد، ولا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ.

لقد كان المشركون في مكة يستبعدون انتصار الروم على الفرس في بضع سنين، لأنهم حللوا الأحداث تحليلاً مادياً بشرياً، وهذا التحليل المادي يجعل من المستحيل انتصار الروم بعد تسع سنين، وهم الدولة المهزومة، التي تحطم جيشها، واحتلت بلادها، وحوصرت عاصمتها!

لكن المسألة في التحليل الإيماني لها بُعد آخر، فإذا أراد الله تقوية الروم المهزومين في بضع سنين فعل، وهياً لذلك الأسباب، وإذا وعد بذلك أنجز وعده!

وكان المشركون في مكة يستبعدون انتصار الصحابة المستضعفين عليهم، لأن قوة الصحابة لا تُذكر أمام قوتهم، وذلك وفق التحليل المادي البشري القاصر. أما في التحليل الإيماني فليس الأمر مستبعداً أو مستحيلاً! لأن الله إذا أراد شيئاً فعله، وإذا وعد بشيء أنجزه، ولذلك نصر الصحابة في بدر، مع كونهم أذلة: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

الصبر على انتظار تحقق وعد الله:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِبَيِّنَاتٍ لِّيقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْعَمُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٥٨ - ٦٠].

ذكر الله أمثلة عديدة متنوعة في القرآن، وفصل فيه الآيات، ونوع فيه الحجج والأدلة والبراهين، ليفهمها الناس ويعوها، ويحسنوا التعامل معها.

ولكن الكفار جاهلون، مطبوع على قلوبهم، يقابلون الأمثال والآيات

القرآنية بالعناد والإصرار والتكذيب! وإذا قُدمت لهم خوارق ومعجزات لا يُصدقون بها، ويتَّهمون الرسول ﷺ بأنه ساحرٌ سحرهم، وأنَّ المسلمين على باطل: ﴿وَلَيْنَ حِجَّتِهِمْ بَيِّنَةٌ يَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.

وقد أمر الله رسوله ﷺ بالصبر على عناد وتكذيب المشركين، وحرِّبهم وعداوتهم له، فالصبرُ زادٌ عظيم، يتزوَّد به الرسول ﷺ، إلى أن يحكم الله بينه وبين أعدائه.

عدم استعجال تحقيق وعد الله:

وبعد الأمر بالصبر، تؤكد الآية تحقيق وعد الله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ والمرادُ بوعد الله هنا، وعده سبحانه بانتصار الحق وأهله، وهزيمة الباطل وأهله. ومعنى أنه حق، أنه سيتحقق في عالم الواقع، وسيرى الناس انتصار المؤمنين، وهزيمة الكافرين.

واللطيف أنه بعد تقرير تحقيق وعد الله بالنصر، جاء التحذير من الذين لا يوقنون بهذه الحقيقة: ﴿وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾. فالذين يشكون بوعد الله، أو يستبعدون وقوعه، قد (يستخفون) بالمؤمنين، ويقذفون في قلوبهم اليأس، أو يدفعونهم لبعض الأعمال والتصرفات المرتجلة المندفعة، التي تقود إلى نتائج خاطئة، والسبب في ذلك هو استعجال تحقيق وعد الله.

على المؤمن أن يوقن بأن وعد الله حق، وأنه لا بد أن يتحقق، وأن يصبر على انتظار تحقيقه، وأن لا يتعجل وقوعه، وأن لا يستخفه أو يستفزه المتعجلون، وأن يدع الأمر إلى حكمة الله الحكيم الخبير، الذي يحققه متى شاء سبحانه!.



الوعد لقمر آني في سورة القمر

سورة القمر مكية، نزلت في جَوْ اشتداد أذى قريش للمسلمين، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ. وكان المسلمون في مكة قلائل مستضعفين، يستقبلون أذى واضطهاد وتعذيب الكفار بصبر وثبات.

وكان من أهداف سورة القمر تثبيت المؤمنين على الحق، وتعريفهم بطريق الدعوة، ودعوتهم إلى الصبر، وتبشيرهم بالفرج، وملء قلوبهم ونفوسهم بالأمل الكبير بالنصر. . وتهديد الكافرين الظالمين بالعذاب، عن طريق عرض بعض النماذج والأمثلة، لمن سبقهم من الكافرين، ليغْتَبَرُوا وَيَتَّعِظُوا، ويتخللوا عن ما هم فيه من كفر وطغيان.

موضوع السورة:

بدأت السورة بالحديث عن معجزة باهرة، معجزة انشقاق القمر أمام المشركين، وتكذيبهم بها، وزعيمهم أنها سحْرٌ لا حقيقة له، وتهديدهم بالعذاب.

ثم عرضت مشاهد سريعة من قصص الأنبياء السابقين، مع أقوامهم المكذبين، كان التركيز فيها على كفرهم وتكذيبهم واستهزائهم، ثم إهلاكهم وتدميرهم.

والأقوام الذين تحدثت عنهم آيات السورة: قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون.

وعقبت السورة على إهلاك كل قوم منهم بآية: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ التي ذكرت أربع مرات [آيات: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

والتعقيب بهذه الآية على القصص الأربع مقصود، الهدف منه تقرير حقيقة

تيسير القرآن للذكر، وهذه من أهم خصائص القرآن، فالله يُسَرِّ تِلاوته وفهمه وحفظه وتطبيقه، كما يُسَرِّ التذَكُّرَ والعبرة والعظة، بما يعرض فيه من قصص وأمثله، ونماذج وحوادث، وسنن وحقائق.

وتحث الآية على التذَكُّر والاعتبار: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾. أي: هل يوجد شخص واع بصير، يقف عند العظائم القرآنية متدبراً متذكراً؟! .

و﴿مُدَكِّرٍ﴾: اسم فاعل على وزن (مُفْتَعِل)، فعله الماضي خماسي هو: (ادَكَّرَ) على وزن (افْتَعَلَ). وقد ورد هذا الفعل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٤٥].

وأساسُ: (ادَكَّرَ): ادَتَكَرَّ، على وزن: افْتَعَلَ.

الثلاثي منه: ذَكَرَ. أَذْخَلَتْ تاءُ الافتعالِ لمزيد من التأكيد، فصَارَ ادَتَكَرَّ، وأبدلت التاء دالاً للتسهيل، فصارت: ادَتَكَرَّ. وأدغمت الدال في الدال إدغام المتقاربين، فصارت: ادَتَكَرَّ. واسمُ الفاعل منها: مُدَكِّرٍ، على وزن: مُفْتَعِل! .

تهديد الكفار بالهزيمة:

وبعدما انتهت آياتُ السورة من الحديث عن الهالكين، انفتحت إلى كفار قريش، وهددتهم بالعذاب، وتوعدهم بالهزيمة أمام المسلمين، ووعدت المسلمين بالنصر عليهم، قال تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَنْ لَكُمْ بِرَأَةٍ فِي الرَّبِّ (٤٣) أَنْ يَقُولُوا نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيَرْحَلُونَ الذَّبْرُ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الرَّبِّ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٤٣ - ٥٣].

الخطابُ في قوله: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ﴾ لكفار قريش، والهمزة في ﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ للاستفهام الإنكاري، والآية تُنكرُ على كفار قريش عدم اعتبارهم بما جرى للكافرين السابقين.

و﴿أُولَئِكَ﴾: اسمُ إشارةٍ للبعيد، والمرادُ به الكفار السابقون المذكورون

في ما سبق من آياتِ السورة، وهم قومُ نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وآل فرعون.

تَسْأَلُ الْآيَةَ كَفَارَ قَرِيشٍ: لقد سمعتم عن إهلاكِ الكفارِ السابقين، فلماذا لم تتعظوا وتعتبروا؟ هل كفاركم خيرٌ من أولئك الكفارِ السابقين؟ وهل أنتم أقوى منهم؟ لستم خيراً منهم، ولستم أقوى وأكثر أموالاً وأولاداً منهم!.

وقد ذَكَرَتْ هذه الحقيقةَ آياتٌ عديدة، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

وبما أنَّ الكفارَ السابقين أقوى من كفارِ قريش، ولم تدفعْ عنهم قوتهم العذابَ، فإنَّ كفارَ قريش أكثرُ ضعفاً وعجزاً عن دفعِ العذاب، فلماذا لا يعتبرون ويتخلَّون عن كفرهم؟.

وتسألهم الآيةُ سؤالاً ثانياً: ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ والمرادُ بالزُّبُرِ هنا: الكتبُ الربانيةُ التي أنزلها اللهُ على رسله، مفردةً (زبور) بمعنى كتاب.

والمعنى: لماذا أنتم آمنون من العذابِ مع كفرِكم وتكذيبِكم؟ هل أعطاكم اللهُ أماناً وبراءةً في كتبه؟. . الجوابُ بالنفي، فلا يملكون تلك البراءة، لأنَّ الله لا يُقرُّ في كتبه كافرًا على كفره، ولا يُعطيه الأمانَ بالنجاةِ إن وقع به عذاب!.

وتوجَّهْ لهم الآياتُ سؤالاً ثالثاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾. أي: هل يظنُّ كفارُ قريش أنهم متفقون مجتمعون، وأنَّ تجمُّعهم وتعاونهم واتفاقهم يحققُ لهم النصر؟ ويدفعُ عنهم العذاب؟.

وتقدِّفُ الآياتُ الرعبَ في قلوبهم، وتهدِّدهم بالهزيمة: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّوا الدُّبُرَ﴾. أي: سيهزمُ جمعُ الكفارِ المجتمعين في المستقبل، عندما تنشبُ المعاركُ بينهم وبين المسلمين، وسيولُّون الأدبارَ منهزمين.

وبعدَ جزمِ الآيةِ بهزيمةِ الكفارِ في الدنيا، توعدَّتْهم الآيةُ التاليةُ بالعذابِ الشديدِ في الآخرة: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾.

وقدِمتْ لهم الآياتُ التاليةُ مشهداً لذلِّهم وعذابهم في الآخرة: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضُلْكِ وَسْعٍ (١٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

نصرُ المؤمنين وهزيمةُ الكافرين بقدر من الله:

وفي هذا السياق وما فيه من الوعدِ للمؤمنين، والوعيدِ للكافرين، تقررُ آيةٌ محكمةٌ حقيقةُ القَدَر. قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

فكلُّ شيءٍ في هذا الكونِ مخلوق، خلقه اللهُ بقَدَره، وأوجدَه في الزمانِ المحدَّد، والمكانِ المحدَّد، بحكمتهِ سبحانه، فهو الذي يُقدِّرُ الأشياءَ ويوجدُها.

ومن ذلك تحقُّقُ الوعدِ بهزيمةِ الكفار، وانتصارِ المسلمين عليهم في الدنيا، فاللهُ الذي يحدِّدُ الزمانَ والمكانَ والكيفيةَ، بحكمتهِ وقَدَره سبحانه.

وإذا جاءَ الوقتُ المحدَّد، فإنه سبحانه يحقِّقُ قَدَره ويُمضي إرادته، والأمرُ حينَ عليه سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾. أي: نحققُ أمرنا بكلمةٍ واحدة، هي كلمة: (كُن) فيوجدُ الشيءُ الذي أردناه كلمحِ البصر. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وعادت الآياتُ إلى تهديدِ كفارِ قريش: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَكِرٍ﴾. أي: أهلكنا أشباهكم وأمثالكُم من الكفار السابقين، كعادٍ وثمودَ ومدين، فهل منكم مَنْ يتذكَّرُ ويتعظُّ ويعتبر؟.

وتستمرُّ الآياتُ في تهديدِ كفارِ قريش، بإخبارهم أنَّ كلَّ شرٍّ وسوءٍ وكفرٍ وتكذيبٍ حصلَ من الكفار وصدَرَ عنهم، فإنَّ اللهَ قد سجَّله وأحصاه، وأثبتَه في الزبرِ والكتب، التي يُثبتُ فيها أفعالُ الناس، صغيرها وكبيرها: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزَّبْرِ﴾ (٥٧) ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾.

وعد المؤمنين بالنصر على الكافرين:

والتهديدُ الصريحُ للكفار في قوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. وهذا وعيدٌ لهم، بهدفِ قتلِهم، وإضعافِ عزائمهم، وتحطيمِ معنوياتهم، وهو ضمنُ (الحربِ النفسية) التي يشنُّها القرآنُ على الأعداءِ بقوةٍ وجدارة، ويهزُّ فيها نفسياتهم، ويقضي على إراداتهم!.

وتقدِّمُ هذه الآيةُ وعداً قرآنياً للمؤمنين، بأنهم سوفَ يهزمون جمعَ قريشٍ في المستقبل، بحيثُ يولي الكافرون الأدبار.

وهدفُ هذا الوعدِ هو رفعُ معنوياتِ المؤمنين، وملءُ نفوسِهِم أملًا بالمستقبل، وتبشيرُهُم البشرى المشرقةَ العظيمة، وبذلك يزدادون ثباتاً على الحق، وتصميماً على تحدي الباطل، وثقةً بأنَّ المستقبلَ لهم، وإعداداً للمرحلة القادمة من الصراعِ مع الكفار، وهي مرحلةُ قتالِهِم وهزيمَتِهِم.

ولا ننسى أنَّ الصحابةَ تلقَّوا هذا الوعدَ القرآني: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُونَ الدَّبْرَ﴾ وهم مُستضعفون في مكة، معذبون مضطهدون فيها.

لقد كانت القوة والغلبةُ وقتَ نزولِ الآيةِ التي أطلقت ذلك الوعدَ للكفار، الذين هم قادةُ مكة وزعمائُها، ويبيدهم الأُمُ والمالُ والجاهُ والقرار، والناسُ أتباعُ لهم. . بينما كان المسلمون في مكة أقليةً ضعفاء، لا يملكون مالاً ولا سلطاناً ولا متاعاً، إلا القليلَ من ذلك الذي لا يكاد يُذكر.

وفي هذا الجوِّ الخاصِّ، الذي لم تكن فيه القوتان متكافئتين - قوةُ الكفار وقوةُ المسلمين - حيث كانت قوةُ الكفار غالبيةً مستعلية، وقوةُ المسلمين مبتدئة، تشقُّ طريقَها بصعوبة، وسطَ العقباتِ والحواجزِ التي يضعُها الكفارُ أمامَها.

في هذا الجوِّ ينزلُ اللهُ آيةً تقدِّمُ وعداً لهذه القوةِ الإسلاميةِ النامية، بأنها سوفَ تقوى وتشتدَّ، وتقفُ أمامَ قوةِ الكافرين، وتحطِّمُها وتهزِّمُها! .

إنَّ الجزمَ بهذا الوعدِ القرآنيَّ يدلُّ على أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، لأنه لا يجزمُ بشرُّ بهذا الجزم، لعدمِ وجودِ مؤشرٍ ماديٍّ على هزيمةِ جمعِ الكفار، في تلك الفترة الزمنية المتقدمة، من بداياتِ عمرِ الدعوةِ الإسلاميةِ في مكة! .

ولما سمعَ الكفارُ الوعيدَ والتهديدَ في الآية، والجزمَ بأنهم سينهزمون أمامَ المسلمين ويولونهم الأدبار، صاروا يسخرون ويستعزِّون ويتنذرون، ويعتبرون ذلك مستحيلاً! .

أما المؤمنون فإنهم تلقَّوا عن الآيةِ وغدَّها، واستبشروا به، وأيقنوا أنه سيتحقَّقُ لا محالة، وإنَّ لم يعرفوا كيفَ ولا متى ولا أينَ سيتحقَّقُ؟ .

وثقوا بتحقيقِ الوعد، وتركوا كيفيةَ إنجازه وإمضائه إلى الله الحكيم الخبير.

متى حقق الله لهم وعده؟:

ومضت السنواتُ المكيَّةُ من عمرِ الدعوةِ الإسلاميَّةِ تبعاً، وانتهت الفترةُ المكيَّةُ والقوَّةُ الماديَّةُ الغالبةُ لكفارِ قريشٍ . . وهاجرَ المسلمون إلى المدينة، وأقاموا فيها كيانههم . .

وبعدَ سنتين من الهجرة، جاءَ وقتُ إنجازِ الوعدِ القرآنيِّ الذي أطلقته آيةُ سورةِ القمر، قبلَ أكثرَ من تسعِ سنواتٍ .

كان ذلك في غزوةِ بدر، في شهرِ رمضان من السنةِ الثانيةِ من الهجرة، وهي أوَّلُ مرةٍ يلتقي فيها الجمعان، جمعُ المؤمنين بقيادةِ رسولِ الله ﷺ، وجمعُ المشركين بقيادةِ أبي جهلٍ .

وكُلُّنا يعرفُ نتائجَ غزوةِ بدر، التي نصرَ الله فيها المسلمين، وهزمَ جمعَ الكافرين القرشيين، الذين قُتِلَ منهم سبعون رجلاً، في مقدمتهم زعيمهم أبو جهل وأسرَ سبعون آخرون، وفرَّ الآخرون من الميدان، مولين الأدبار .

ولتقفُ أمامَ موقفِ الصحابةِ الإيجابيِّ من هذا الوعدِ القرآنيِّ، وإخبارِهم عن تحقُّقه على أرضِ بدر .

الرسول يسأل ربَّه إنجازَ وعده:

روى البخاري [برقم: ٤٨٧٧] عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قال - وهو في قبَّةٍ له يومَ بدر: «اللهمَّ إِنِّي أَنشُدُكَ عهدَكَ ووعدَكَ، اللهمَّ إِن شئتَ لم تُعبَدْ بعدَ اليومِ أبداً» . . فأخذَ أبو بكر رضي الله عنه بيده، وقال: حسبكَ يا رسولَ الله، فقد ألححتَ على ربِّكَ! وهو في الدرع، فخرجَ وهو يقول: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيَوْلُونَ الدُّبُرَ﴾ (٤٩) **يَا أَيُّهَا الْمَوْعِدُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ** .

يُخبرُ ابنُ عباس رضي الله عنهما في هذا الحديث: أنَّ رسولَ الله ﷺ دعا الله وتضرَّعَ إليه واستغاثه، قبيلَ خوضِ المعركة، ونشَدَ الله إنجازَ وعده، ونصَّرَ العبادِ المؤمنين المجاهدين، لتستمرَّ عبادته في الأرض .

وأكثرَ الرسولُ ﷺ من تضرُّعه ودعائه، حتى أشفقَ عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقالَ له: حسبكَ يا رسولَ الله، فإنَّ اللهَ منجزٌ لك ما وعد .

وعندما رجا الرسول ﷺ رَبَّهُ إِنْجَازَ وَعْدِهِ . كان يتذكَّرُ آيَةَ سُورَةِ الْقَمَرِ ، التي نَزَلَتْ قَبْلَ بَضْعِ سَنَوَاتٍ ، بِدَلِيلٍ أَنَّهُ بَعْدَ تَضَرُّعِهِ ، خَرَجَ مِنْ قُبَيْتِهِ ، وَهُوَ يَثْبُثُ فِي الدَّرْعِ وَيَتْلُو الْآيَةَ نَفْسَهَا : ﴿ سُبْحَنَ الْمَجْمَعِ وَيُولُوكُنَ الدُّبُرِ ﴾ . وَهُوَ مُسْتَبْشِرٌ بِتَحْقِيقِ وَعْدِ اللَّهِ ! .

وَقَدْ فَصَّلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَضَرُّعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ بِالْفَاطِظِ أُخْرَى .

رَوَى مُسْلِمٌ [بِرَقْمٍ : ١٧٦٣] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، قَالَ : «لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ ، نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَهُمْ أَلْفٌ ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِئَةٍ وَتِسْعَةُ عَشَرَ رَجُلًا ، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ ، فَجَعَلَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ : «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ آتِنِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ» .

فَمَا زَالَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ ، مَاذَا يَدِينَهُ ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ ، حَتَّى سَقَطَ رِداؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ .

فَأَنَاهُ أَبُو بَكْرٍ ، فَأَخَذَ رِداَّهَ ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ ، وَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ : كِفَاكَ مَنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ ، فَإِنَّهُ مَنْجُزٌ لَكَ مَا وَعَدَكَ . .

فَأَنزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَوِّفِينَ ﴾ [الأنفال : ٩] . فَأَمَدَهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ .

الرَّسُولُ ﷺ - مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ - يَهْتَفُ بِرَبِّهِ ، وَيَدْعُوهُ وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ ، وَيَرْجُوهُ أَنْ يُنْجِزَ لَهُ مَا وَعَدَهُ ، وَيُؤْتِيَهُ مَا وَعَدَهُ ، وَهُوَ الْوَعْدُ الَّذِي قَرَّرْتَهُ آيَةُ سُورَةِ الْقَمَرِ وَأَمْثَالِهَا ، بِانْتِصَارِ الْمُؤْمِنِينَ وَهَزِيمَةِ الْكَافِرِينَ .

وَقَدْ أَشْفَقَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَطَمَأَنَّهُ أَنَّ اللَّهَ مَنْجُزٌ لَهُ مَا وَعَدَهُ .

لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ اللَّهَ سَيَنْجِزُ لَهُ مَا وَعَدَهُ ، وَلَمْ يَشْكُ فِي ذَلِكَ لِحِظَةً ، لَكِنَّ دَعَاءَهُ وَتَضَرُّعَهُ مِنْ بَابِ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ ، وَالِدَعَاءُ إِلَى اللَّهِ ، لِاسْتِجْلَابِ مَوْعِدِ اللَّهِ .

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى يَقِينٍ ، بِأَنَّ اللَّهَ سَيَنْجِزُ وَعْدَهُ ، لِأَنَّهُ لَا يُخْلَفُ الْمِيعَادُ ، وَيُوقَنُ بِالنَّصْرِ فِي الْمَعْرَكَةِ ، رَغْمَ عَدَمِ تَوَازُنِ وَتَكَافُؤِ الْجَمْعَيْنِ ! .

عمر يخبر عن إنجاز الوعد في بدر:

واللطيفُ أنَّ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه صرحَ عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما، بما حدثَ به نفسه، عند نزول الآية المذكورة، حاملةً ذلك الوعدَ الرباني.

قال السيوطي في [الدر المنثور: ٦٨١/٧]: «أخرج ابنُ أبي حاتم والطبراني وابنُ مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أنزل الله على نبيه بمكة قبل يوم بدر: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. فقال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله! أيُّ جمع سيُهْزَمُ؟»

فلما كان يومُ بدر، وانهمت قريش، نظرتُ إلى رسولِ الله ﷺ في آثارهم مُضِلِّتاً بالسيف، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. وكانت ليوم بدر».

وأخرج ابنُ جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ جعلتُ أقول: أيُّ جمع سيُهْزَمُ؟

حتى كان يومُ بدر، رأيتُ النبي ﷺ يثبُ في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، فعرفتُ تأويلها يومئذٍ.

يخبرُ عمرُ رضي الله عنه أنه لما أنزلت الآية في مكة عرفَ معناها، وأيقنَ بما فيها من وعدٍ ربانيٍّ قادم، وأنه لا بدَّ أن يتحقَّقَ. لكنَّهُ لم يعرف كيف ولا متى ولا أين! فأمنَ بالوعد، وتركَ وقتَ تحقيقه لحكمة الله.

وبعدَ سنوات، وفي معركة بدر، سمعَ الرسول ﷺ يتلو الآية وهو يلاحقُ الكفارَ المنهزمين، فعرفَ أنَّ تحقيقَ ذلك الوعدِ كان في بدر.

واللطيفُ في كلامِ عمر رضي الله عنه، أنه اعتبرَ تحققَ الوعدِ النظريِّ في صورته العملية التطبيقية: (تأويلاً) للآية، لأنَّ التأويلَ هو بيانُ النهايةِ والمآلِ والمصير: «فعرفتُ تأويلها يومئذٍ!».

* * *

القِسْمُ الثَّالِثُ
الوَعُودُ لِقِرْآنَيْتِهِ فِي سُورِ الْمَدِينَةِ

الوعد القرآني في سورة البقرة

الأمة الوسط الشاهدة على باقي الأمم:

ذكرت آيات سورة البقرة وعوداً قرآنية، وتحققت تلك الوعود؛ من تلك الآيات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

أخبر الله المسلمين في هذه الآية أنه جعلهم الأمة الوسط، والحكمة من ذلك أن يكونوا شهداء على الناس والرسول ﷺ شهوداً عليهم.

وتظهر (وسطية) الأمة في كل شيء. وسطية المكان والموقع الجغرافي، فهي في وسط الكرة الأرضية، وسطية الزمان، فهي بعد اليهود والنصارى، والأهم من هذا وسطية المنهج والرسالة، فالإسلام هو الدين الوسط، والمراد بوسطية الإسلام (التوازن) بين مناهجه، والاعتدال في تشريعاته، والكمال بين توجيهاته، فلا إفراط فيه ولا تفريط، ولا مبالغة ولا تفلت، ولا غلو ولا تهاون.

ووسطية الأمة في مناجاتها ورسالتها جعل لها مهمة حضارية كبيرة، ومسؤولية عالمية خطيرة.

لقد جعل الله الأمة الوسط شاهدة على باقي الأمم، وهي المرجع الأساسي للأمم، والحكم لما ينشأ بينها من خلاف، والأصل في هذه الأمة الوسط أن تؤدي شهادتها، وتقوم برقابتها، وتحقق ريادتها وأستاذيتها.

وقد تحقق هذا الوعد القرآني في عالم الواقع، عندما عاشت الأمة بإسلامها، وتحركت بقرآنها، واستقامت على طريقها، فقدمت للعالم النور والهدى، والمدنية والحضارة، والمنهج والريادة.

وكانت الحواضر الإسلامية مراكز إشعاع وهدى، في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغيرها، وكان الخليفة القوي مرهوب الجانب، مسموع الكلمة، وكان قادة العالم يتقربون إلى النظام الإسلامي القوي.

ولم تتحول الأمة في هذا الزمان إلى ذيل القافلة، إلا بعدما ابتعدت عن إسلامها، وقلدت الأمم الأخرى في انحرافات وسيئاتها.

وما تعيشه الأمة الوسط الآن من ذل وضعف وتبعية، لا يعني تخلف الوعد القرآني لها، بالوسطية والأستاذية والشهادة والريادة، لأن السبب في ما تعانيه هو قصورها وانحرافها. والوعد القرآني ما زال قائماً وجاهزاً، ولكنه لا يعمل في حياة المسلمين، ولا يتحقق فيهم، إلا إذا أوفوا هم بالعهد، وحققوا الشرط، وأدوا الواجب!

المؤمنون فوق الكفار إلى يوم القيامة:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَسَخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

تُعرفنا الآية على حقيقة ما عليه الكافرون، فهم لا يؤمنون بالآخرة، ولذلك زُينت لهم الحياة الدنيا، وهم يؤمنون بها، ويعملون لها، وهي هدفهم وسعيهم، ومحط اهتمامهم، تجدهم حريصين عليها، مُقبلين على ملذاتها ومُتبعيها وشهواتها.

ونظرتهم للمؤمنين تقوم على السخرية والتهكم والاستهزاء، لا يعجبهم المؤمنون في ترفعهم عن متع وشهوات الدنيا، وفي نظرتهم للآخرة، وفي سعيهم لها، وفي خوفهم من الله، الذي يدفعهم إلى ترك ما حرم الله.

وشتان بين المؤمنين والكافرين، فالفرقان لا يستويان، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وذكرت الآية حقيقة قرآنية قاطعة، وقدمت وعداً قرآنياً مُنجزاً: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

المؤمنون المتقون فوق الكافرين، ويبقون فوقهم إلى يوم القيامة. هذا ما

قَدَرَهُ اللهُ وَأَرَادَهُ، وَلَا رَادَّ لَأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ.

والمرادُ بالفوقية هنا فوقيةٌ معنويةٌ نفسية، وليست فوقيةً مكانيةً مادية. إنها فوقيةٌ تملأُ شعورَ المؤمنين، فهم المتميزون على الكافرين في كلِّ شيء، متميزون بدينهم ومنهجهم، ومتميزون بمهمتهم ووظيفتهم ودورهم، متميزون بأفكارهم وتصوراتهم، وبسلوكهم وتصرفاتهم، وبآمالهم وتطلعاتهم واهتماماتهم. متميزون في دنياهم وآخرتهم. . . ولهذا يوقنُ المؤمنون أنهم أفضلُ من الكافرين، وأنهم الأعلى المتفوقون. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وشعورُ المؤمنين بأنهم الأعلى، وأنهم فوقَ الذين كفروا إلى يومِ القيامة لا يعني تكبرهم على غيرهم، لأنَّ التكبرَ محرَّمٌ في دينِ الله.

إنما يعني اعتزازهم بالإسلام، وافتخارهم بالانتسابِ إليه، وشكرهم لله على ما ميَّزهم به، وحرصهم على الالتزام به، وقيامهم بواجبِ الدعوةِ إليه، وتقديمِ نوره إلى الذين يتخبَّطون في ظلماتِ الكفرِ والجاهلية.

كما يعني هذا استغناؤهم بالإسلام، واكتفاؤهم به، ويقينهم بعدمِ حاجتهم لغيره، ولذلك لا يأخذونَ من الكافرين شيئاً من أفكارهم ومذاهبهم، وقوانينهم وتشريعاتهم، وقيمهم وعاداتهم، وسلوكياتهم وتصرفاتهم، لأنَّ هذا كلُّه نتاجُ كفرهم، وانغماسهم في الحياةِ الدنيا وإنكارِ الآخرة.

لا بدَّ أن يشعرَ المؤمنون بأنَّهم فوقَ الذين كفروا، فلا يجبنوا ولا يضعفوا أمامهم، ولا يذلّوا لهم.

وقد حقَّقَ اللهُ للمسلمين وعدّه، فجعلهم فوقَ الذين كفروا، حيث نصرهم عليهم، ومكَّن لهم في الأرض.

شرط كون المؤمنين فوق الكفار:

وكون المسلمين فوق الذين كفروا مشروطٌ بالتزامهم الصادقِ الجادِّ بالإسلام، وتطبيقه والحركة به، فإن أخلّوا بهذا الشرطِ فقدوا هذه الصفة، ونزلوا عن هذه المنزلة، ولا يرتقون إليها إلا إذا عادوا إلى إسلامهم.

والمسلمون في هذا الزمان ليسوا فوق الذين كفروا، وإنما صاروا في أوضاعهم العامة دون الذين كفروا، وهم الذين جنّوا بذلك على أنفسهم، وهم السبب في ما أصابهم، لأنّه انفكّت صلة كثيرين منهم بالإسلام، وضعفت صلة آخرين به، وبذلك لم يلتزموا بشرطِ الفوقية المشروط.

ونحنُ على يقين أنّ المسلمين سيعودون عودةً جادةً للإسلام، وبذلك يعودون إلى المنزلة العالية التي وضعهم الله فيها، ورفعهم إليها، وجعلهم فوق الذين كفروا.

نحن جازمون أنّ هذا الوعد القرآني سيتحقّق لهم في المستقبل، عندما يُغيّرون ما بأنفسهم من سوء، كما تحقّق هذا الوعد لآبائهم الصالحين!

إصابة المؤمنين بالبأساء والضراء:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

تحدّث الآية عن طريق الدعوة، وضريبة الإيمان والالتزام والسير في الطريق الموصّل إلى الجنة.

والخطاب في الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ للمسلمين، وإنّ الآية تُعرّفهم على ما ينتظرهم من الابتلاءات والمحن، في طريقهم إلى الجنة، فطريق الجنة ليس مفروشاً بالورود والرياحين، وهو ليس سهلاً معبداً، إنّهُ مليءٌ بالعقبات والأخطار والمفاجآت، وكلُّ مَنْ سار فيه لا بدّ أن يُصيبه الأذى والألم.

وللمسلمين في ذلك قدوة وأسوة بالمؤمنين الذين خلّوا من قبلهم، من أتباع الرسل السابقين، فقد عاشوا كثيراً من الابتلاءات والمحن، أخبر الله عنها بقوله: ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا﴾.

البأساء هي الشدة، والضراء هي الضرّ والألم، والزلازل قائم على الإيذاء والابتلاء، والتهديد والتخويف، والحصار والمعاناة.

لا بدَّ أن يمرَّ المؤمنون بهذا الطريق، وأن يذوقوا هذه الابتلاءات والمحن، وأن يدفعوا هذا الثمن.

وأكدت على هذا آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۖ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

معنى التساؤل: متى نصر الله؟

وبلغ من شدة ما أصاب المؤمنين السابقين قبل الإسلام أن الرسول وأتباعه كانوا يقولون: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟﴾ فيأتيهم الجواب محققاً ومؤكداً قرب وقوعه: ﴿آلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

وقول الرسول وأتباعه المؤمنين: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟﴾ ليس شكاً منهم، ولا إنكاراً لنصر الله لهم، ولا يأساً أو ظناً أن الله تخلى عنهم، فهم موقنون بأن الله معهم، وأنه سينصرهم ويهزم أعداءهم.

إن تساؤلهم ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟﴾ تضرعٌ ودعاءٌ إلى الله، واستجلابٌ واستقدامٌ لنصره، وإعلانٌ بأنه قد أصابهم الكثير، وقد تحملوا الكثير، ودفعوا الكثير، وأنهم صابرون محتسبون، لكنهم يريدون أن ينعموا بالنصر.

الوعد بقرب نصر الله:

وقد علم الله صدقهم، في بذلهم وصبرهم وتساؤلهم، فبشّرهم بقرب وصول النصر إليهم: ﴿آلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

وقد أكدت هذه الحقيقة بعدة مؤكدات في الآية. وهي: حرف الاستفتاح: (ألا). وحرف التوكيد: (إن). والجملة الاسمية بعدها: ﴿نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾. وإضافة النصر إلى الله إضافة تشريف له. وصيغة المبالغة: ﴿قريب﴾.

وهذا وعدٌ قاطعٌ من الله، صيغ هذه الصياغة، وأكّد بهذه المؤكدات.

وكان الرسل السابقون وأتباعهم واثقين من نصر الله ، وموقنين بقرب تحققه وقدمه ، وقد أنجز الله لهم وعده ، في الوقت الذي اختاره سبحانه بحكمته ، فأنجاهم من الهلاك ، ودمر أعداءهم الكافرين .

وبمعنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ حَقَّ إِذَا أَستَيْسَرَ الرُّسُلُ وَطَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠] .

وهذا وعد من الله بنصر عباده المؤمنين ، الصابرين المجاهدين الصادقين ، وهذا الوعد ليس مقيداً بزمان ، ولا خاصاً بمكان ، ولا محصوراً بالرسل السابقين وأتباعهم ، إنما هو وعد مطلق عام شامل ، للمؤمنين المجاهدين الثابتين على اختلاف الزمان والمكان .

نصر الله قريب من الرسل السابقين وأتباعهم ، وقد صدقهم الله وعده وأنزل عليهم نصره ، ونصر الله قريب من رسوله محمد ﷺ وأصحابه ، وقد صدقهم الله وعده ، وأنزل عليهم نصره .

وإن نصر الله قريب من المؤمنين المجاهدين من هذه الأمة ، وسيصدقهم الله وعده ، ويمن عليهم بنصره ، في الوقت الذي يحدده ، والكيفية التي يختارها .

ومن الواجب أن نوقن أن الله لا يحجب نصره عن عباده المؤمنين المجاهدين الصادقين ، لأنه جعل ذلك حقاً عليه ، فقال : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] . ولكن صور النصر وألوانه عديدة ، وليس محصوراً بالغلبة المادية والانتصار العسكري . قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ [غافر : ٥١] .

استمرار قتال الكفار للمسلمين:

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

الآية نازلة في معالجة آثار قتل مجموعة من المجاهدين الصحابة رجلاً مشركاً في الشهر الحرام ، وكان قتلهم له خطأ ، وذلك في سريّة عبد الله بن جحش

رضي الله عنه . . وقد أثار كفار قريش حرباً إعلامية دعائية ضخمة ضد المسلمين ، وأنهموهم فيها بانتهاك حرمة الشهر الحرام ، فأنزل الله آية في ردّ شبهاتهم وإشاعتهم ، وتسجيل جرائمهم ، وختمها بتقرير حقيقة استمرار حربهم وقتالهم للمسلمين . قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْسِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَظَلَعُوا ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

وليست وقفتنا أمام الآية بكاملها ، وبيان معناها ، واستخراج دلالاتها ، لأنّ هذا لا يتفق مع موضوع هذا البحث ، إنما وقفنا مع الجزء من الآية الذي يتحدث عن استمرار الحرب والمواجهة بين المسلمين والكافرين .

الخطاب في قوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقْسِلُونَكُمْ ﴾ للمسلمين ، والإخبار في الجملة عن الكفار .

وتخبر الآية عن استمرار قتال الكفار للمسلمين بفعل ﴿ لا يزالون ﴾ ، الدالّ على الاستمرار ، وعدم التوقّف والانقطاع . وإذا ما أعلن الكفار رغبتهم في وقف القتال ، وحرصهم على تحقيق «السلام العادل والشامل والدائم !» ، فإنهم كاذبون في هذا الإعلان ، يريدون منه خداع المسلمين ؛ فالسلام الذي يريده الكفار هو الذي يضمن لهم إخضاع وإذلال واستعباد المسلمين ، واحتلال بلادهم ، ونهب خيراتهم ومواردهم وثرواتهم ، وإبعادهم عن إسلامهم وقرآنهم .

وهدف الكفار من قتال المسلمين محدّد في الآية : ﴿ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَظَلَعُوا ﴾ فإذا ما حقّقوا هدفهم ، وأبعدوا المسلمين عن دينهم ، توقّف قتالهم لهم .

وعاش المسلمون في مختلف فترات تاريخهم مصداق هذا الوعد القرآني ، وابتلوا بقتال الكافرين المستمرّ لهم . . ويعيش مسلمو هذا الزمان أمثلة حادة واضحة من استمرار قتال اليهود والصليبيين لهم . ولن يتوقّف ذلك القتال إلّا باستيقاظ الإيمان والجهاد في نفوس وحياة المسلمين ، عند ذلك ينصرهم الله على أولئك الكافرين ! .

* * *

الوعد لقرآني في سورة آل عمران

خسارة وحسرة الكفار:

في سورة آل عمران عدة آيات، تتضمن وعداً بهزيمة الكفار وانتصار المسلمين. من هذه الآيات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُوتٌ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّ السَّيْلُ إِلَىٰهَا ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ لِمَتْ فِي ذَلِكَ لَعْنَةُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠-١٣].

تقرر هذه الآيات حقيقة قرآنية قاطعة، هي خسارة الكفار وحسرتهم، فهم لا يُفْلِحُونَ ولا يَنْجِحُونَ، لا في الدنيا ولا في الآخرة. إنهم في الدنيا مهزومون مغلوبون هالكون، لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ولا تدفع عنهم عذاب الله، وفي الآخرة هم وَقُودُ النَّارِ، مخلدون فيها.

وتقدم الآيات نموذجين من الكفار، تمثلت فيهما هذه الحقيقة: نموذج آل فرعون، ونموذج كفار قريش.

آل فرعون والذين من قبلهم، كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وحاربوا رسل الله، وأشركوا بالله، وحاربوا دين الله، فخابوا وخسروا، وأخذهم الله بذنوبهم، وأهلكهم ودمرهم، ولم تُغْنِ عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً.

هزيمة الكفار في بدر عبرة:

أما كفار قريش، فإنهم يعلمون ماذا جرى لهم على أرض بدر. ولذلك أَمَرَ

اللهُ رُسُولُهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: أَيُّهَا الْكَافِرُ! لَا جَدْوَى مِنْ مُحَارَبَتِكُمْ لِلْحَقِّ، فَالْحَقُّ مُنْصُورٌ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ غَالِبُونَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ مَهْزُومُونَ فَاشْلُوكَ، وَمَغْلُوبُونَ خَاسِرُونَ، وَفِي الْآخِرَةِ سَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ، وَبُئْسَ الْمِهَادُ وَالْمَصِيرُ وَالْقَرَارُ.

وَتَذَكُّرُ الْآيَاتِ مَا جَرَى فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ الْكَافِرِينَ، وَتَجْعَلُ ذَلِكَ آيَةً وَعِبْرَةً، وَتُخَاطَبُ النَّاسَ قَائِلَةً: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْفِتَّةِ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

التَّقَاتِلُ الْفِتَّتَانِ عَلَى أَرْضِ بَدْرٍ، وَوَقَعَتْ بَيْنَهُمَا أَوَّلُ مَعْرَكَةٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ. فِئَةُ الْمُسْلِمِينَ بِقِيَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْفِئَةُ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَفِئَةُ الْكَافِرِينَ بِقِيَادَةِ أَبِي جَهْلٍ (عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ)، وَكَانَتْ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ.

وَكَانَ الْكَافِرُونَ مِثْلِي عِدَدِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾. أَيْ: يَرَى الْمُسْلِمُونَ الْكَافِرِينَ مِثْلَيْهِمْ، عِنْدَمَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بَعْيُونَهُمْ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ عِدَدَ الْكَافِرِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ كَانَ ضِعْفِي عِدَدِ الْمُسْلِمِينَ، فَبَيْنَمَا كَانَ عِدَدُ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثُمِئَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، كَانَ عِدَدُ الْكَافِرِ حَوَالِي أَلْفٍ رَجُلٍ.

وَمَعَ قَلَّةِ عِدَدِ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ نَصَرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وَعَدَ اللَّهُ بِنَصْرِ عِبَادِهِ الْمَجَاهِدِينَ:

وَمِنْ سُنَّةِ اللَّهِ الْمَطْرَدَةِ، أَنَّهُ يَنْصُرُ عِبَادَهُ الْمَجَاهِدِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمُ الْكَافِرِينَ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَاتِ، وَلَا يَعْتَبِرُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ، إِلَّا أَصْحَابُ الْبَصَائِرِ الْإِيمَانِيَّةِ.

وَنَأْخُذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ وَعِدًّا إِيمَانِيًّا قُرْآنِيًّا، بِنَصْرِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَجَاهِدِينَ، فِي آيَةٍ صَوْرَةٍ مِنْ صُورِ النَّصْرِ، الَّتِي يَخْتَارُهَا بِحِكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ

وتعالى . وتعاملُ مع الكافرين من اليهودِ والصليبيين وغيرهم على ضوءِ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ . ونوقنُ أنهم خاسرونُ في النهاية، في أيِّ معركةٍ يخوضونها ضدَّ إسلامنا العظيم .

ونخاطبُ هؤلاء اليهودِ والصليبيين بما أمَرَنا اللهُ أَنْ نخاطبهم: يا أيها الذين كفروا: سَتُغْلِبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبَشِ الْمَهَادِ، ولا فائدةَ لكم من محاربةِ الإسلامِ، فقد حاربَه كفارٌ قبلَكم، ففشلوا في القضاءِ عليه، واقروا التاريخَ لتعتبروا .

اتباع عيسى فوق الكفار:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ [آل عمران: ٥٥] .

وهذا وعدٌ آخرُ لنصيرِ المؤمنين، والتمكينِ لهم في الأرض، وَعَدَهُ اللهُ عيسى ابنَ مريم عليه السلام، عندما كان عيسى عليه السلام يعيشُ الخطرَ المباشرَ من قِبَلِ اليهودِ والرومانِ، حيثُ أرادوا قَتْلَهُ وصلبَهُ، فأنقذه اللهُ ونجَّاهُ منهم .

وقبلُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللهُ منهم أوحى إليه أنه سيحميه ليطمئنَ ويأمنَ، حيثُ قال له: يا عيسى إني سأتوفاك، بأنْ أُلْقِيَ عليك النومَ، وعندما تنامُ سأرفعُك إليَّ، وأُصْعِدُكَ إِلَى السَّمَاءِ، وَأَنْتَ نائمٌ، وبذلك سَأُحْمِيكَ وَأُطَهِّرُكَ مِنَ الْكَافِرِينَ، الذين أرادوا قَتْلَكَ وصلبَكَ .

وأنجزَ اللهُ لعيسى عليه السلام ما وَعَدَهُ، فأنجاهُ وطَهَّرَهُ من أيدي الكافرين اليهودِ والرومانيين .

وَوَعَدَ اللهُ عيسى عليه السلام أَنْ يجعلَ الذين اتَّبَعوه فوقَ الذين كفروا إلى يومِ القيامة: ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ .

من هم الذين اتبعوا عيسى عليه السلام:

والذين اتبعوه هم الحواريون والنصارى، الذين دَخَلُوا فِي دِينِهِ، وكانوا مسلمين خاضعين لله، الذين قَالَتْ عنهم الآياتُ السابقة: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢] .

هم الذين آمنوا أنَّ عيسى عليه السلام هو عبدُ الله ورسولُهُ، وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، وصدَّقوا ما عاهدوا اللهَ عليه، وصَبَرُوا على كُلِّ ما صَبَّ عليهم من صورِ العذابِ والاضطهادِ.

وليس الذين اتَّبَعوه الذين كفروا بالله، وألَّهوا عيسى عليه السلام، وقال فريقٌ: إنَّه إله، وقال آخرون: إنَّه ابنُ الله، وقال آخرون: إنَّه ثالثُ ألَهة ثلاثَةٍ، الأبِ والابنِ والروحِ القدُّس. هؤلاء كفارٌ بالله، وعيسى عليه السلام يتبرأُ منهم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ۖ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

والذين اتَّبَعوه حقًّا وصدِّقاً أمةٌ محمدٍ ﷺ، الذين آمنوا أنَّ عيسى عليه السلام هو عبدُ الله ورسولُهُ، وأنزلَ اللهُ عليه كتابَه الإنجيل، وأحبَّوه ووقَّروه، ودافعوا عنه ونزَّهوه، ونظروا له نظرةً إيمانيةً إيجابية، كنظرتهم إلى كلِّ أنبياءِ الله ورسله، عليهم الصلاةُ والسلام.

هؤلاء هم الذين اتَّبَعوه حقًّا، وهؤلاء أعزَّهم اللهُ وأيدَّهم، وجعلهم فوق أعدائِهِ الكافرين، من اليهودِ الذين حاولوا قتله، والنصارى الذين ألَّهوه وغالوا فيه، وبقيَ هؤلاء المؤمنون الصالحون الأعلى إلى يومِ القيامة. كما قال اللهُ عنهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا نَ تِلْكَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيْدِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبِرُوا لَظُهُورِ﴾ [الصف: ١٤].

وَوَعَدُ اللهُ مَنْجَز، فالمسلمونُ أتباعُ عيسى عليه السلام الحقيقيون فوق الكافرين، ظاهرونٌ عليهم بالحجَّة والمنطق، والإسلام ظاهرٌ بأدلَّته وبراهينه، ولا تقفُ أمامه فكرةٌ أو دعوة. والداعيةُ العالمُ المفكرُ غالبٌ ظاهر، في أيِّ حوارٍ أو نقاشٍ أو ندوة، لأنَّ الحقَّ واضحٌ غالب، والباطلُ ضعيفٌ مغلوب.

الأمة المسلمة خيرُ الأمم:

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُواكُمْ يُولُواكُمْ أَدْبَارًا ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١٢﴾ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَنْ مَاتُوا قَتْلًا إِلَّا يَحْيِي مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَعْضٌ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِمَا بَاتَ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٣﴾ [آل عمران: ١١٠-١١٢].

تبدأ الآيات بتقرير حقيقة قاطعة، حول خيرية هذه الأمة، والخطاب في الآية للأمة المسلمة، بجميع أجناسها وشعوبها، فالله الحكيم أخرج هذه الأمة للناس إخراجاً، وأنشأها على إسلامها، الذي ميزها به، وعلق قوتها وعزتها على التزامها به.

الأمة المسلمة هي خير الأمم وأفضلها، وهي الأمة الوسط، الشاهدة على ما سواها من الأمم، المتميزة عنها بالمنهج والرسالة. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وذكرت الآية وظيفة الأمة، التي تميزت بها، فكانت خير أمة، وذلك في قولها: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. فهي خيرية ووظيفة ومهمة، تقوم على الالتزام بالإسلام، والحركة به، والدعوة إليه، من خلال الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

حاجة الأمم المعاصرة لمنهاج الأمة المسلمة:

وأوضح ما تكون خيرية الأمة المسلمة في هذا الزمان، الذي شهد إقصاء الإسلام عن الوجود الفعلي المؤثر في بلاد المسلمين، وإزاحة الأمة المسلمة عن مكانتها العالمية الحضارية، والذي شهد سيطرة الكفار على العالم، وقيادة الجاهلية للبشرية!

رأينا في هذا الزمان الأفكار والمذاهب الجاهلية الكافرة، وسيطرتها على الناس، في أفكارهم وتصوراتهم، ومشاعرهم وخواطيرهم، وأقوالهم وأفعالهم، وتصرفاتهم وسلوكياتهم، واهتماماتهم ورغباتهم. رأينا السوء والخبث في ما تفرزه وتنتج الحياة الغربية الجاهلية، في الفكر والعلم، والإنتاج والصناعة،

والمال والاقتصاد، والسياسة والاجتماع، والخُلُق والسلوك.. رأينا القيم والمبادئ الشيطانية تُغرِق البشرية في أوحال الإباحية والشهوات.. وتُحوِّل الرجال والنساء إلى حيوانات، عبيد للشهوة والهوى والشذوذ!!.

لقد حوِّل الجنس والمخدراتُ الأمم إلى (شر) أمم عاشت على وجه الأرض، ومسخت فيها إنسانية الإنسان، وسحقته إلى أدنى من مرتبة الحيوان.. وصار البقية من العقلاء عند الغربيين يبحثون عن الرصيد المتبقي من الإنسانية عند الإنسان الغربي الكافر المعذب، فلا يجدون لها أثراً.

مما جعل البشرية بأمس الحاجة إلى هذه الأمة المسلمة، الخيرة الفاضلة، المتميزة بأخلاقها ورسالتها، لتعيد للبشرية المعذبة إنسانيتها المسلوكة.

هدف الكفار القضاء على المسلمين:

وأهل الكتاب من اليهود والنصارى يحسدون هذه الأمة، ويحقدون عليها بسبب خيريتها، ولذلك كفروا بدينها، ولو آمنوا به وكانوا مسلمين لكان خيراً لهم: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

ولم يكتفوا بالكفر، وإنما أعلنوها حرباً شرسةً عنيفةً ضدَّ هذه الأمة، على مدارِ قرونٍ التاريخ الإسلامي، بهدفِ ردة المسلمين عن دينهم، كما قال الله عنهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقد جزم الله أنهم لن يحققوا هدفهم هذا ضدَّ المسلمين، ولن ينجحوا في القضاء عليهم، وستبقى الأمة في مواقعها، تواجههم وتصدُّ كيدهم، وكلُّ ما يمكن أن يقدروا عليه هو (إيذاء) المسلمين. قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾.

أي: لن ينجح الأعداء في تحقيق أهدافهم ضدكم، ولن يوصلوا الضرر إلى دينكم، ولن يقتلعوه منكم، وسيبقى قوياً راسخاً ثابتاً، كالشجرة الصلبة الممتدة، وهي التي شئت الله بها قوة الإسلام ورسوخه، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢١) تَوَاتَى أَكْلُهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

ضر الكفار مجرد أذى سطحي:

إنَّ الكفار سيؤذونَ المسلمين، مجردَ أذى، وهو أذى سطحيٍّ خارجيٍّ، يُصيبُ الجانبَ الماديَّ من الإنسان، كأعضاءِ جسمِهِ، بحيثُ يعضُّونَ بعضَ المسلمين، وقد يقطعونَ بعضَ أطرافِهِم، وقد يأخذونَهُم أسرى ويضعونَهُم في السجون، ويحكمونَ عليهم بأكثرَ من سجنٍ مؤبَّد، وقد يحاربونَهُم في أموالِهِم وممتلكاتِهِم، وتجارَاتِهِم وأعمالِهِم، ولكنَّ هذا كلُّه مجردُ (أذى) خارجيٍّ سطحيٍّ، سرعانَ ما يزال، حتى لو طالَ فترةٌ من الزمانِ فإنَّه يمكنُ تحمُّله واحتمالُهُ، والصبرُ عليه، واحتسابُ آلامِهِ.

أما الإيمانُ في القلب، واليقينُ والثقة، وقوةُ العزيمة والإرادة، والتصميمُ على التحديِّ والمواجهة، والصبرُ والثباتُ، فإنَّ الأعداءَ لن يصلوا إليها في كيانِ المؤمنين الصادقين المجاهدين الثابتين.

وكَلَّما ازدادتْ هجمةُ الأعداءِ على الأمةِ شدةً وعُنفًا، كلما ازدادَ المؤمنونَ المجاهدونَ الثابتونَ عزيمةً وهمةً وتصميمًا وجهاداً ومواجهةً.

ونرى في أيامنا مصداقَ هذا الوعدِ القرآنيِّ في عجزِ اليهودِ والصليبيين عن القضاءِ على إرادةِ الجهادِ والمواجهةِ في نفوسِ المجاهدين الصادقين، وكلُّ ما يقدرون عليه إصابةُ أبدانِهِم وممتلكاتِهِم بالأذى!!.

هزيمة الكفار أمام المجاهدين الصادقين:

وتقدِّمُ الآياتُ وعداً قرآنياً آخر، بهزيمةِ الكفارِ أمامَ المؤمنين الصادقين: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ أَلَذَّابَارٌّ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾.

وعندما كان الكافرون يواجهونَ جيوشَ المؤمنين الصادقين كانوا يَنْهزمونَ أمامَهُم، ويتحقَّقُ هذا الوعدُ القرآنيُّ القاطع.

ولا قياسَ على الفترةِ الحرجةِ التي يعيشُها المسلمون المستضعفون في هذا الزمان، والتي انهزمَ فيها المسلمون أمامَ الكافرين، وولَّوا أذبارَهُم أعداءَهُم، وانتصرَ الأعداءُ في حروبِهِم المستمرةِ ضدهم. فهذه فترةٌ خاصة، ولا يتحمَّلُ الوعدُ القرآنيُّ مسؤوليتها، ولم يتخلَّفَ هذا الوعدُ بسببِها، لأنَّ المسلمين

المعاصرين هم السبب في ما أصابهم ، لأنهم أخلوا بشرط النصر الذي شرطه الله عليهم : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَضُرَّكُمْ وَبَيَّتَ اقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] .

وسيعودُ المسلمونَ إلى دينهم، وسيعودُ هذا الوعدُ القرآنيُّ إلى التحققِ في حياتهم، وسيروْنَ انهزامَ الأعداءِ أمامهم، هذا عندنا يَقين، وهو قادمٌ بإذنِ الله.

ذلة اليهود والحبال الممدودة لهم:

وَأَخْبَرَنَا اللَّهُ عَنِ الذَّلَّةِ الَّتِي أَوْقَعَهَا بِالْيَهُودِ بِالذَّاتِ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَتَيْنَ مَا نَفُسُهُمْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾.

ولا يتعارض ما عليه اليهود في هذه الأيام من مظاهر قوة وتمكين، وهيمنة وسيطرة على العالم، مع الوعد القرآني بإيقاع وضرب الذلة والمسكنة عليهم.

فقد نصّت الآيةُ على استثناء ذلك من حالة الذلّة العامة، وجعلته فترة قصيرة، وجعلته حبلاً ممدوداً إليهم من الله: ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ﴾، لكنه حبْلٌ قصير، سرعانَ ما يُقَطَّع، ولكنها فترة قصيرة لن تزيدَ عن عشرات السنين، وماذا تُساوي عشرات السنين أمامَ عشرات القرون، التي عاشها اليهودُ في الماضي، بالذلّةِ والمسكنةِ واللعنِ والغضب؟ وإنَّ اليهودَ الملعونين ينتظرونهم مستقبلُ أسودّ مظلم، يعيشونه بالذلّةِ والمسكنةِ، والضعفِ والعجزِ والهوان، على أيدي المؤمنين الصادقين المجاهدين، الذين سيصدّقهم اللهُ هذا الوعد، ويمكنهم من أعدائهم! .

عداوة الأعداء للمسلمين:

رابعاً: قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَئَانَتْ أَوَّلَآءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَهْدَكُمْ عَلَيْهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْفِتْنَةِ قُلْ مُوتُوا يَعِظُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١٢٠].

تنتهي هذه الآيات المؤمنين عن موالاة الأعداء واتخاذهم بطانة وخبراء

ومستشارين للمؤمنين، وتُرِينَا شِدَّةَ عداوتِهِمْ لَنَا، وتُقَدِّمُ لَهُمْ صَوْرًا كاشِفَةً، وتحليلاتٍ صائِبةً.

الأعداءُ الكافرونَ لَا يُقَصِّرونَ فِي إصَابَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخَبَالِ وَالضَّعْفِ والعجزِ، وَهُمْ حَرِيصُونَ عَلَى إصَابَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعَنْتِ وَالشَّدَةِ وَالْمَشَقَّةِ وَالْأَذَى.

ومَهْمَا حَاولُوا إِخْفَاءَ عداوتِهِمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَالتَّحْلِيَّ بِالْدَبْلُوْمَاسِيَّةِ وَالْخِدَاعِ تَجَاهَهُمْ، فَإِنَّ أَلْسِنَتَهُمْ تَخُونُهُمْ أحيانًا، فَتَكَلِّمُ بَعْضُ الْكَلِمَاتِ وَالْعِبَارَاتِ، الَّتِي تُصَرِّحُ بِالْكَرَاهِيَةِ وَالْبَغْضَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَالَّتِي تُشِيرُ إِلَى مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنْ ذَلِكَ. . إِنْهُمْ حَاقِدُونَ كَارِهُونَ، مَبْغُضُونَ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَلَنْ يَنْجَحَ الْمُسْلِمُونَ فِي إِزَالَةِ الْعداوَةِ وَالْبَغْضَاءِ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَصُدُورِهِمْ، وَإِذَا حَاولُوا حَسْنَ التَّعَامُلِ مَعَهُمْ وَمَحَبَّتَهُمْ، وَالنَّظَرَ إِلَى إِنْسَانِيَّتِهِمْ، فَإِنَّ الْأَعْدَاءَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْبُوهُمْ، وَأَنْتَى يَوْجِدُ مَكَانًا صَغِيرًا لِلْحُبِّ فِي قَلْبٍ امْتَلَأَ حِقْدًا وَكَرْهًا وَعداوَةً وَبَغْضَاءً؟! .

تحليل قرآني لنفسيات الكفار:

وهؤلاء الأعداء المَبْغُضُونَ يَحاولُونَ التَّجَمُّلَ وَالتَّمثِيلَ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ، فإِذَا لَقَوْهُمْ زَعَمُوا اتِّفَاقَهُمْ مَعَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالتَّعَاوُنِ لخدمَةِ الْأَذْيَانِ، وَالتَّنسيقِ لِمُحَارَبَةِ الْفَسَادِ وَالْإِلْحَادِ. وَلَكِنَّهُمْ إِذَا خَلَوْا بَعْضُهُمْ صَرَحوُا بِكَرْهِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَضُّوا عَلَيْهِمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغِيظِ.

وَمِنْ بَغْضِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَحَقْدِهِمْ عَلَيْهِمْ، أَنَّهُمْ لَا يَحْبُونَ أَنْ يَنَالَ الْمُسْلِمُونَ خَيْرًا، وَلَا أَنْ تَحَسَّنَ أَحْوَالُهُمْ، أَوْ تُحَلَّ مُشْكَلاتُهُمْ، وَإِنْ أَصَابَتِ الْمُسْلِمِينَ حَسَنَةٌ اسْتَأْوُوا وَتَأَلَّمُوا، وَإِنْ أَصَابَتْهُمْ سَيِّئَةٌ فَرِحُوا وَاسْتَبَشَرُوا بِهَا!! .

لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ صَادِقَةً فِي تَحْلِيلِهَا لِنَفْسِيَّاتِ الْكَافِرِينَ، وَكَشَفِهَا لَعداوتِهِمْ وَبَغْضِهِمْ وَكَرْهِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ. وَهِيَ لَا تَحَدِّثُ عَنْ فَرِيقٍ خَاصٍّ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَلَا عَنْ صَنْفٍ خَاصٍّ مِنْهُمْ، عَاشُوا فِي زَمَانٍ مُعَيَّنٍ، أَوْ مَكَانٍ مُعَيَّنٍ! إِنَّهَا تَنْطَبِّقُ عَلَى الْكَافِرِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ. وَابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ فِرَاقٍ تَارِيخِيهِمُ الْمَاضِي وَالْحَاضِرُ بِهِؤْلَاءِ الْكَافِرِينَ الْحَاقِدِينَ! .

وصدقَ اللهُ العظيم، فإننا نرى هذه الآيات، تتحدثُ حديثاً تحليلياً كاشفاً، عن الكافرينَ الحاقدينَ علينا في هذا الزمان، من اليهودِ والهنودِ والروسِ والأمريكان، وغيرهم من الأعداءِ الحاقدين المحاربين.

الصبر والتقوى لمواجهة الكفار:

وبعدما قدّمت الآياتُ هذه الصورَ الكاشفةَ للكفار، دلّت المسلمين على الطريقة التي يُبطلون بها كيدهم، وذلك في قولها: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾.

وهذا وعدٌ قرآنيٌّ قاطع، يجبُ على المؤمنين أن يأخذوه بيقين، وأن يتعاملوا معه بثقة، وأن يلتزموا بالشَّرْطِ لينالوا الجزاءَ والنتيجة.

الخطةُ القرآنيةُ المضمونةُ لإبطالِ كيدِ الأعداءِ تقومُ على عنصرين:

الأول: الصبرُ المطلَق، بمعناه العامّ الشامل، باعتباره زاداً إيمانياً ضرورياً، للثباتِ على الحق، والتصميمِ على استمرارِ التحدي للباطل.

الثاني: التقوى المطلقةُ لله، بمعناها العامّ الشامل، باعتبارها حالةً إيمانيةً دائمةً، لا تفارقُ المسلمَ في أيِّ لحظةٍ من حياته.

بالصبرِ والتقوى يواجهُ المسلمونَ الكافرين، ويُبطلونَ عداوتهم، ولا يضُرُّهم كيدُهُم شيئاً، وبذلك يفشلُ الكافرونَ في حربِهِم ضدَّ المسلمين، وعند ذلك يمكنُ للمسلمين أن يُخاطبوا الكافرين المغتاضين بما أمرهم اللهُ به في قوله: ﴿قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ﴾.

ولا بدّ أن يتزوّدَ المسلمونَ المعاصرونَ بزادِ الصبر، وأن يعيشوا دائماً حالةَ التقوى، وأن يلتزموا بكلِّ أحكامِ الإسلام، ويُحقّقوا كلَّ شروطه، ليواجهوا بذلك حقّده وكرهيةَ كفارِ هذا الزمان، الذين صعدوا حربهم ضدَّ المسلمين، وعمّقوا حقدهم عليهم.

وعندما نقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ نتذكّرُ ونستحضرُ الوعدَ القرآنيَّ القاطع في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١].

ونتذكّر قوله تعالى في أواخر سورة آل عمران: ﴿لَتُجْلِبُنَّ فِي
 آمَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ
 الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَلَئِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾
 [آل عمران: ١٨٦].

وعندما تشتدُّ عداوةُ كفار هذا الزمان، نتذكّر هذه الآياتِ الكاشفة، ونقول:
 هذا ما وَعَدَنَا اللهُ ورسولُه، وصدقَ اللهُ ورسولُه. ونلتزمُ بالخطّةِ القرآنيّةِ حتى ننالَ
 النتيجة: ﴿وَلَئِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾!

* * *

الوعد لقرآني في سورة المائدة

البشرى بإكمال الدين وإتمام النعمة:

من الآيات التي وعدت المسلمين بالنصر والتمكين، وإظهار إسلامهم، ويأس الكافرين من القضاء عليه، واستمرار حربهم للمسلمين، هذه الآيات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

تقدم هذه الآية بشرى للمسلمين بإكمال دينهم، وإتمام نعمة الله عليهم، كما تقدم لهم وعداً قاطعاً برسوخ أمر دينهم، وقوته واستقراره، بحيث ينس الكفار من القضاء عليه.

وقد عرف المسلمون قيمة وعظمة معنى هذه الآية، وجعلوا يوم نزولها عيداً!.

روى البخاري [برقم: ٤٥]، ومسلم [برقم: ٣٠١٧] عن طارق بن شهاب: «أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرُؤُونَهَا، لَوْ عَلَيْنَا - مَعَشَرَ الْيَهُودِ - نَزَلَتْ، لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا!.

قال له عمر: أي آية؟.

قال: قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، نزلت عليه وهو قائم بعرفة يوم الجمعة.

يريد ذلك اليهودي أن (يتعالم) على عمر رضي الله عنه، ويظهر له معرفته

بالقرآن، ولذلك قال له: إِنَّ آيَةَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ عظيمة، ولو أنها أنزلت علينا نحن اليهود، لاتخذنا يوم إنزالها عيداً.

فردَّ عليه عمر رضي الله عنه، وبَيَّنَّ له أَنَّ المسلمين يَعْرِفُونَ معنى هذه الآية وعظمتها ودلائلها، وَأَنَّ اللهَ أنزلها في أعظم أيام السنة، وهو يومُ عرفة، وقد كان يومُ عرفة يومَ جمعة، وكان رسولُ الله ﷺ واقفاً بعرفات يوم أنزلها الله عليه.

ويريدُ عمرُ رضي الله عنه أن يقولَ لليهودي: لقد جعلنا يومَ نزولها عيدين، وليس عيداً واحداً، فيومُ الجمعة الذي أنزلت فيه عيدُ أسبوعي للمسلمين، ويومُ عرفة الذي أنزلت فيه عيدُ سنوي للمسلمين.

وقد امتنَّ اللهُ على المسلمين في هذه الآية بالمتة العظيمة، وهي متة إكمال دينهم، وإتمام نعمته عليهم، حيثُ رضيَ لهم الإسلام ديناً، فاكْتَفَوْا واستغنوا به، ولم يعودوا محتاجين إلى استعارة أو استيراد غيره.

ووقفنا مع قوله: ﴿الْيَوْمَ يَسَّرَ الْإِيمَانُ لَكُمْ دِينَكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَا﴾. إِنَّ هذه الجملة تقدِّم لنا حقيقتين عظيمتين:

يأس الكفار من القضاء على الإسلام:

الحقيقة الأولى: يأسُ الكافرين من القضاء على الإسلام، الذي رضيَه اللهُ ديناً للمسلمين، رغم إعلانهم الحرب الطاحنة ضده، واستخدامهم كل الأسلحة الممكنة فيها، ورغم استمرار هذه الحرب طيلة تاريخ المسلمين، على اختلاف أزمانهم وأوطانهم.

منذ بعثة رسولِ الله ﷺ، والكفار يُعادونه ويُحاربونه، وطيلة الفترة المكية من عمر الدعوة الإسلامية، التي استمرت ثلاثة عشر عاماً، والكفار يُحاربون رسولَ الله ﷺ حرباً شرسة، ليس فيها قتالٌ وإطلاق نار، لكنها حربٌ بمختلف الأسلحة الأخرى، بهدف قتلِ دعوته، والقضاء على دينه، ولكنهم فشلوا، وعجزوا عن تحقيق هدفهم!

ولما هاجر الرسول ﷺ، اجتمعت أحزابُ الكفر من اليهود والمنافقين والمشركين، للقضاء على دينه، وحاربه المشركون حرباً عسكرية، بالإضافة إلى

الأساليب الأخرى، واستمرت هذه الحرب عشر سنوات.. ولم يُقَصِّرُوا في استخدام كل ما يُقدِّرون عليه.. ولكنهم فشلوا وخسروا، وانهزموا أمام الإسلام. وقبل أن يُقبَضَ رسولُ الله ﷺ نصرَ الله دينه، وأقرَّ عينه بدخول كل الجزيرة العربية في الإسلام، وفي الشهور الأخيرة من حياته ﷺ حجَّ حَجَّةَ الوداع، وأنزل الله عليه وهو واقفٌ بعرفة هذه البشرى، التي فيها الإخبارُ عن يأس الكافرين من القضاء على هذا الدين.

استمرار حربهم الفاشلة ضده:

ومنذ نزول هذه الآية وحتى اليوم، أمضت الأمة المسلمة أربعة عشر قرناً من عمرها الممتد حتى قيام الساعة، ولم تتوقف محاولات الأعداء على اختلاف أصنافهم للقضاء على الإسلام، فماذا كانت النتيجة؟ عرف كل فريق من الكافرين يأسه من القضاء على هذا الدين، بعد أن ظنوا أن القضاء عليه قريبٌ سهلٌ ميسور، وشنوا عليه حرباً شاملة طاحنة، عرّفوا في نهايتها عجزهم وفشلهم، وخرج الإسلام من المعركة قوياً عزيزاً منصوراً.

وأجزم أنه لم يحارب أي دين كما حُورِبَ الإسلام، ولو أن الحرب التي شُنَّت عليه شُنَّت على أي مذهبٍ آخر، لأبادته ودفنته، ولكن الإسلام القوي الحي كان يخرج من كل معركة قوياً غالباً منصوراً بإذن الله.

ويشهد الإسلام اليوم حرباً صليبية عالمية، يقودها اليهود والأمريكان، بهدف اجتثاثه والقضاء عليه! ولن يكونوا أحسن حالاً ومآلاً من الكافرين السابقين، بل سيُنْتَهون إلى ما انتهى إليه من سبقوهم من العجز المهزومين، وسيبقى الإسلام قوياً محفوظاً، وسيخرج من هذه الحرب الصليبية غالباً ظافراً منصوراً بإذن الله.

ويبقى الوعد القرآني الذي يقطعُه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَبِّئُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ نافذاً مُنْجِزاً، ويبقى ماضياً محققاً، على اختلاف الزمان والمكان.

لا يخشى المسلمون الكافرين:

الحقيقة الثانية: بما أن الكافرين يائسون مهزومون، فلماذا يخشاهم

المسلمون، وَيَخَافُونَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ؟ لَا يَجُوزُ أَنْ يَخْشَوْهُمْ، لِأَنَّ الْعَاجِزِينَ لَا يَخْشَاهُمْ أَحَدٌ، وَالْكَفَّارُ عَاجِزُونَ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾.

صَحِيحٌ أَنَّ حَرْبَ الْكَفَّارِ لِلْمُسْلِمِينَ مُسْتَمِرَّةٌ، لَكِنَّهَا حَرْبٌ يَأْتِسِينَ عَاجِزِينَ، وَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُوَاجِهُوهَا وَيَخُوضُوهَا، مَعَ يَقِينِهِمْ أَنَّهُمُ الْغَالِبُونَ الْمَنْصُورُونَ فِيهَا. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَتُنَا لِإِِبَادِنَا الْمُؤْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْفَالِقُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

إِنَّ الْآيَةَ تُقَوِّي الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُوَاجَهَةِ وَتَحْدِي الْكَافِرِينَ، وَتَرْفَعُ نَفْسِيَّاتِهِمْ وَهَمَمَهُمْ وَمَعْنَوِيَّاتِهِمْ أَمَامَهُمْ، وَتَدْعُوهُمْ إِلَى إِحْسَانِ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ. . . إِنَّهُمْ لَيْسُوا غَالِبِينَ قَاهِرِينَ، قَادِرِينَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، كَمَا يُحَاوِلُونَ أَنْ يُوْهِمُوا الْمُسْلِمِينَ بِذَلِكَ، وَإِنَّهُمْ مَهْمَا مَلَكَوا مِنْ قُوَّةٍ لَنْ يَجَاوِزُوا قُدْرَهُمْ، وَلَنْ يَزِيدُوا عَنْ حُجْمِهِمْ، فَهَمْ يَأْتَسُونَ عَاجِزُونَ! وَكَيْفَ يَخْشَى الْمُسْلِمُونَ عَاجِزِينَ يَأْتَسِينَ؟! .

ردة معاصرة عن الإسلام:

ثَانِيًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَتَذَكَّرُ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوِيٍّ يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُونَهُ أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَفٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يَمْجِدُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَضَافُونَ لَوْمَةً لِأَيِّ ذَلِكَ فَضَّلَ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلَّيْنَاكُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِرْبَ اللَّهِ هُمْ الْفَالِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٦].

تَحَدَّثَ الْآيَةُ عَنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ، الَّذِينَ يَحْمِلُونَ هَذَا الدِّينَ، إِذَا تَخَلَّى بَعْضُ أَهْلِهِ عَنْهُ، وَهَذَا وَعْدٌ صَادِقٌ مِنَ اللَّهِ، بِاسْتِمْرَارِ وَجُودِ الدِّعَاءِ الصَّالِحِينَ، الَّذِينَ يَحْمِلُونَ لَوَاءَ الْإِسْلَامِ، وَيَدْعُونَ إِلَيْهِ، وَيُوَاجِهُونَ أَعْدَاءَهُ.

إِذَا ارْتَدَّ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ دِينِهِمْ فَهَمْ الْخَاسِرُونَ، وَلَنْ يَتَأَثَّرَ الْإِسْلَامُ بِهِمْ، وَإِذَا تَخَلَّى بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَالْحُرْكَةِ بِهِ وَرَفَعِ رَأْيَتَهُ، فَهَمْ الَّذِينَ يَخْسِرُونَ، وَلَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا.

لَقَدْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْقَى عِلْمُ الْإِسْلَامِ مَرْفُوعًا، وَأَنْ تَبْقَى مَهْمَتُهُ قَائِمَةً، وَأَنْ يَبْقَى أَثَرُهُ فِي الْحَيَاةِ مُسْتَمِرًّا، وَإِذَا تَخَلَّى أَنَاسٌ عَنْهُ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِآخَرِينَ أَفْضَلَ مِنْهُمْ يَحْمِلُونَهُ وَيَتَحَرَّكُونَ بِهِ.

ونعترف أنه قد ارتدَّ كثيرٌ من ملايين المسلمين عن إسلامهم، في صورةٍ من صورِ الردِّ الكثيرة، وأنه قد ابتعدَ كثيرٌ من المسلمين عن إسلامهم، وقد تخلَّى كثيرٌ من المسلمين عن إسلامهم، وتأثَّرَ كثيرٌ منهم بالحياةِ الغربيةِ الجاهليةِ المخالفةِ للإسلام.

لكن هل توقَّفت مهمةُ الإسلامِ ودوره في حياةِ البشرية؟ وهل توقَّفت المسلمون جميعاً عن التوجُّه إلى الإسلام والحركة به؟.

شباب الصحوة المجاهدون:

لقد وعدَ الله أن يأتيَ بقوم ربّانيين، دعاةٍ مجاهدين، يحملون الإسلام إذا تخلَّى عنه بعضُ أهله، ووعدَهُ نافذٌ ماضٍ، لأنه سبحانه لا يخلفُ الميعاد.

وفي الوقتِ الذي ظنَّ فيه اليهودُ والصليبيُّون، أنهم تمكَّنوا من إماتةِ الإسلام، في بلادِ ونفوسِ المسلمين، وفي الوقتِ الذي يشنُّ فيه كثيرٌ من المسلمين من العودةِ إلى الإسلام، في هذا الوقتِ العصيبِ المعاصر، حقَّقَ الله وعده الذي جزمَ به في هذه الآيات، فألهمَ مجموعاتٍ مباركةً من الشبابِ الإسلاميِّ التوجُّهَ إلى الإسلام، ووفَّقَهم إلى حمليهِ والدعوةِ إليه والحركةِ به، ووُجِدَتْ صحوةٌ إسلاميةٌ مباركة، في الربعِ الأخيرِ من القرنِ العشرين المنصرم، وقامتْ حركاتٌ وجماعاتٌ إسلامية في مختلفِ بلادِ العالم، وسجَّلتْ ظاهرةُ العودةِ إلى الإسلامِ كثيراً من الظواهرِ والأمثلةِ والنماذج.

وانتشرتْ ثقافةُ الجهادِ والاستشهادِ عند الشبابِ الإسلامي، ونشأتْ حركاتٌ جهاديةٌ في المناطقِ الجهاديةِ الساخنةِ في بلادِ المسلمين، في فلسطينَ والشيشان، والبوسنة وأفغانستان وكشمير، والعراق ولبنان، وغيرها من بلاد المسلمين.

وسوفَ تستمرُّ هذه الصحوةُ الإسلاميةُ المباركةُ بإذنِ الله، حتى تصحوَ قطاعاتٌ كبيرةٌ من المسلمين، وتُعيدَ بلادَ المسلمين إلى الحكمِ بالإسلام، وجهادِ أعداءِ الإسلام!.

فقد رأينا في حياتنا تحقُّقَ الوعدِ القرآنيِّ بالإتيانِ بهذا القومِ الصادقين، والحمدُ لله على فضله وإنعامه.

وقد صَبَّ اليهودُ والصليبيُّونَ حربَهُمَ وغَضِبَهُمَ على شبابِ الصَّحوةِ الإسلامية، ورجالِ الانتفاضةِ المجاهدةِ، بحجةِ مقاومةِ الإرهابِ، وهَيَّجُوا العالمَ ضَدَّهُمَ، ولكنَّ ذلكَ لا يُضِيرُهُمَ شيئاً، ويَكْفِيهِمُ أَنَّ اللهَ معهم.

صفات حزب الله الغالبين:

إنَّ صفاتِ شبابِ الصَّحوةِ الإسلامية، ومجاهدي الانتفاضةِ الإسلامية المذكورة في الآيات هي:

١ - اللهُ يُحِبُّهُمْ، ومن محبَّتِهِ لَهُمُ أَنَّهُ أَلْهَمَهُمُ حَمَلَ الإسلامِ والحركةَ به، في وَقْتٍ تَخَلَّى عنه كثيرٌ من أبنائِهِ، وحاربَهُ كثيرٌ من أعدائِهِ، وقد حَقَّقَ هؤلاءُ الرِّبانيُّونَ العِزَّةَ والسَّعادةَ والخيرَ كُلَّهُ بِمَحَبَّةِ اللهِ لَهُمُ، وماذا عَلَيْهِمُ لو كَرِهَهُمُ الآخرونَ وحاربوَهُمُ، وَيَكْفِيهِمُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُمْ، وَمَنْ أَحَبَّهُ اللهُ لَمْ يَخْسَرْ شيئاً، ولو لم يملكْ شيئاً من الدُّنيا، وَمَنْ خَسَرَ محبةَ اللهِ لَمْ يَرْبَحْ شيئاً ولو ملكَ كُلَّ شيءٍ في الدُّنيا.

٢ - هم يحبونَ اللهَ، وَمِنْ مَظَاهِرِ محبَّتِهِمُ لَهُ إِكثارُهُمُ من ذِكْرِهِ وشُكْرِهِ، وحُسْنِ عبادَتِهِ، والتزامُ طاعَتِهِ، وتركُ مخالفتِهِ، واستمرارُ صَلَاتِهِمُ بِهِ، وَمِنْ محبَّتِهِمُ اللهُ محبَّتُهُمُ لرسولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، واقتداؤُهُمُ بِهِ، ومحبَّتُهُمُ لدينِهِ، والغيرةُ عَلَيْهِ، والانتصارُ لَهُ، والدعوةُ إِلَيْهِ، والتصدي لأعدائِهِ.

٣ - هم أذلةٌ على المؤمنين، لأنَّهُمُ يجتمعونَ معهم على عبادَةِ اللهِ والأخوةِ فِيهِ، والتعاونِ على الدعوةِ إِلَيْهِ وجهادِ أعدائِهِ.

٤ - أَعِزَّةٌ على الكافرين، والعِزَّةُ هنا معناها قوَّةُ البراءَةِ والمفاصلةِ من الكافرين، إنَّهُمُ يَكْرَهُونَ الكافرينَ وَيُبْغِضُونَهُمُ، لكُفْرِهِمُ وحربِهِمُ للمسلمينَ، وَيَحْرِصُونَ على عدمِ موالائِهِمُ ومحبَّتِهِمُ، وعلى الشَّدَّةِ عَلَيْهِمُ، فليس في قلوبِهِمُ مودةٌ ولا رحمةٌ بِهِمُ.

٥ - هم مجاهدونَ في سبيلِ اللهِ، جهاداً ربَّانياً شاملاً مبروراً، في مختلفِ صورِ الجهادِ وميادينِهِ وأَساليهِ، لأنَّهُمُ يَعْلَمُونَ خطورةَ الهجمةِ الشرسةِ التي يَشْتَعُها اليهودُ والصليبيُّونَ على الإسلامِ والمسلمينَ، وَأَنَّهُ لا يَصُدُّهَا ويرُدُّها إلا الجهادُ الكَبِيرُ المُستمرُّ المتواصلُ !.

٦ - هم لا يَخَافُونَ لَوْمَةً لائِمَةً، لأنَّهم يَسْتَمِدُّونَ عِلْمَهُمْ وَثِقَاتَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَيَحْتَكُمُونَ إِلَيْهِ، وَيَعْتَبِرُونَهُ الْمَرْجِعِيَّةَ الْأُولَى لَهُمْ، وَيَحْرُصُونَ عَلَى عَدَمِ مَخَالَفَتِهِ، وَالْمَهْمُ عِنْدَهُمْ أَنْ لَا يَغْضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. . . وَعَلَى الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا السَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ. فَلَا يَحْسِبُونَ لِلْآخِرِينَ حِسَابًا، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَتَهُمْ وَاعْتِرَاضَهُمْ وَإِدَانَتَهُمْ وَذَمُّهُمْ، لِأَنَّهُ لَا قِيَمَةَ لِلْآخِرِينَ الْكَافِرِينَ عِنْدَهُمْ، وَلَا وَزْنَ لَاعْتِرَاضِهِمْ أَوْ لَوْمَتِهِمْ أَوْ إِنكَارِهِمْ.

٧ - هم مُوَالُونَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ الْعَابِدِينَ، مُتَبَرِّئُونَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَمِنْ مَظَاهِرِ مَوَالِيَتِهِمُ لِلْمُؤْمِنِينَ مُحِبَّتُهُمْ وَالدَّلَّةُ عَلَيْهِمْ، وَمِنْ مَظَاهِرِ بَرَاءَتِهِمْ مِنَ الْكَافِرِينَ جِهَادُهُمْ، وَالْوُقُوفُ أَمَامَ مَخْطَطَاتِهِمْ وَمَكَائِدِهِمْ.

٨ - هم عَابِدُونَ لِلَّهِ، مُسْتَمْتِعُونَ بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ، يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيَكُونُونَ مَعَ الرَّكَاعِينَ السَّاجِدِينَ، يَلْتَزِمُونَ بِالْإِسْلَامِ، وَيَتَحَرَّكُونَ بِهِ، وَيَدْعُونَ إِلَيْهِ، بِذَلِكَ صَارُوا أَوْلِيَاءَ لِلَّهِ.

٩ - هم حِزْبُ اللَّهِ الْغَالِبُونَ، فَالْصِّفَاتُ الْإِيمَانِيَّةُ السَّابِقَةُ أَوْصَلَتْهُمْ إِلَى هَذِهِ النَتِيجَةِ الْمَشْرُوقَةِ. إِنَّهُمْ غَالِبُونَ لِأَنَّ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَنُصْرَتُهُمْ فِي جِهَادِهِمْ لِأَعْدَائِهِمْ.

إِنَّمَا نَرَى هَذِهِ الْإِيجَابِيَّةَ، فِي شِبَابِ الصَّحْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالِانْتِفَاضَةِ الْجِهَادِيَّةِ، الَّذِينَ أَتَى اللَّهُ بِهِمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَوَفَّقَهُمُ لِلْقِيَامِ بِوُجُوبِهِمْ، وَالْمُسْتَقْبَلُ الْإِيمَانِيُّ الْمَشْرُوقُ لَهُمْ بِعَوْنِ اللَّهِ.

وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَالِحٍ يَحِبُّ الْإِسْلَامَ، وَيَحِبُّ لَهُ النُّصْرَ وَالتَّمَكِينَ، أَنْ يَكُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الرَّبَّانِيِّينَ، وَأَنْ يَحَقِّقَ فِي نَفْسِهِ الصِّفَاتِ الْجَلِيلَةَ الَّتِي ذَكَرْتُهَا هَذِهِ الْآيَاتُ، لِيُقَرَّبَ وَعَدُ اللَّهِ بِالْغَلْبَةِ وَالنُّصْرِ، الَّذِي هُوَ آتٍ لَا مُحَالَةَ بِإِذْنِ اللَّهِ.

* * *

الوعد لقرآني في سورة الأنفال

أُنزلت سورة الأنفال في أعقاب غزوة بدر، في السنة الثانية من الهجرة، وقد عرضت مشاهد من أرض المعركة، وقدمت حقائق إيمانية قاطعة، في المواجهة بين الحق والباطل، ووعود قرآنية منجزة، في انتصار الحق وهزيمة الباطل.

من آياتها التي قدمت الحقائق وقطعت الوعود ما يلي:

استجابة دعاء قريش سخريه بهم:

أولاً: قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِئُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

تحدث الآية عن غزوة بدر، وتشير إلى بعض ما قاله مشركو قريش، وتهذؤهم وتوعدّهم، وتحطّم معنوياتهم، وترفع معنويات وعزائم المجاهدين، فالخطاب في الآية لكفار قريش.

قال الإمام الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: «يقول الله للكافرين: إِنْ تَسْتَفِئُوا وَتَسْتَنْصِرُوا وَتَسْتَفْضُوا اللَّهَ، وَتَسْتَخِمْوهُ أَنْ يَفْصَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ جَاءَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ.

كما قال ابن إسحاق وغيره عن عبد الله بن ثعلبة: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: اللَّهُمَّ أَيُّنَا كَانَ أَقْطَعَ لِلرَّحِمِ، وَأَتَانَا بِمَا لَا يُعْرَفُ، فَأَخْبَهُ الْغَدَاةُ! وَكَانَ ذَلِكَ اسْتِفْاحًا مِنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ: ﴿إِنْ تَسْتَفِئُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾.

وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة، فاستنصروا الله، وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين، فقال الله: ﴿إِنْ تَسْتَفِئُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾. أي: قد نصرت ما قلتم، وهو محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾: عما أنتم فيه من الكفر بالله، والتكذيب لرسوله ﷺ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: في الدنيا والآخرة.. وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعَذِّبْكُمْ﴾ أي: وإن تعودوا إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نَعَذِّبْكُمْ بمثل هذه الواقعة.. وقوله: ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولو جمعتُم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإنَّ مَنْ كَانَ اللهُ معه فلا غالبَ له. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي...» [تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٩٧-٢٩٨].

فَسَّرَ الإمامُ ابنُ كثير الآيةَ على أساسِ خطابها لكفارِ قريش، وتهديدها ووَعِيدها لهم، وتحطيمها لنفسياتهم وعزائهم، وتيئيسهم من إمكانية الانتصار على المؤمنين، وهذا كلامٌ صحيح، متفقٌ مع سياقِ السورة، وسببِ نزولِ الآية.

ولكنَّ الآيةَ ليستَ خاصةً فيما جرى للمُشركينَ يومَ بدر، والخطابُ فيها ليسَ خاصاً بأبي جهلٍ ومَنْ معه من المُشركين، ومن بدهياتِ أسبابِ النزولِ أنَّ «العبرةَ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السببِ». أي: لا يجوزُ قَصْرُ معنى الآيةَ على سببِ نزولها، والواجبُ الانطلاقُ من سببِ النزولِ إلى الدلالةِ العامةِ للآية، وبيانِ شمولها للحوادثِ المشابهةِ لسببِ النزول.

والآيةُ التي أَمَامَنَا، يجبُ أنْ نبينَ معناها من خلالِ نزولها، وحديثها عن المُشركين في بدر، كما فعلَ الإمامُ ابنُ كثير، ثم تعميمُ معناها ودلالاتها، لتشملَ كلَّ حربٍ يعلنها الكفارُ على المسلمين المجاهدين الصادقين، في أيِّ زمانٍ ومكان.

الآيةُ تخاطبُ الكفارَ، في أيةِ حربٍ يشنونها على الإسلام والمسلمين، وتُهدِّدُهم وتوَعِّدُهم بالهزيمة، وتقذفُ في قلوبهم اليأسَ من إمكانية تحقيقِ أهدافهم، في القضاء على الإسلام والمسلمين.

ولذلك نستشرفُ من الآيةِ وعداً قرآنياً للمؤمنين بالتمكين، ووعداً وتهديداً للكفار بالهزيمة في النهاية.

ونرى أنَّ هذا الوعدَ القرآنيَّ قد تحقَّقَ في فتراتِ التاريخ الإسلامي المنصرمة، وما زالَ الوعدُ قائماً، يملأُ قلوبَ المسلمين المجاهدين المعاصرين بالثقة والأمل، كما يملأُ قلوبَ الأجيالِ القادمةِ من المسلمين بذلك!.

ما نقوله لأعدائنا المعاصرين:

ونعتبرُ هذه الآيةَ الواعدةَ المتوقعة، خطاباً من الله الواحدِ القهارِ إلى اليهودِ والصليبيين، يهدّدهم فيه بالهزيمةِ والخسارةِ في النهاية. ونقولُ لهؤلاءِ الأعداءِ المحاربين المعاصرين: كان عليكم أنْ تعتبروا بما جرى لمن سبقكم من الكفار، الذين خَسِرُوا وانهزموا في حربهم لهذا الدين، فَإِنْ تَسْتَفْتِحُوا اللَّهَ وَتَدْعُوهُ أَنْ يَهْزِمَ الْكُفَّارَ - لأنكم تعتبرون المسلمين هم الكفار - فقد جاءكم الفتحُ، واستجابَ اللهُ لكم، وسيرتدُّ دعاؤكم عليكم، لأنكم أنتم الكفارُ في الحقيقة.

ونقولُ لليهودِ والصليبيين: إِنْ تَنْتَهَوْا وَتَتَوَقَّفُوا عَنْ حَرْبِ الْإِسْلَامِ والمسلمين فهو خيرٌ لكم، لأنكم بحربكم لنا تقدّمون الخيرَ لنا، حيثُ تفتحونَ عيونَ أبنائنا على عداوتكم، فيختارونَ الإسلامَ، ويصمّمونَ على مواجهتكم، وعندما تتوقفون عن حربنا تُريحون أنفسكم.

ونقولُ لهم: إِنْ لَمْ تَسْتَمْعُوا النَّصِيحَةَ، وَعُدْتُمْ إِلَى الْحَرْبِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعُودُ إِلَى إِذْلَالِكُمْ، وتطبيقِ سُنَّتِهِ المطرّدةِ عليكم، فقد شاءَ سبحانه أَنْ يحفظَ دينه، وينصرَ أوليائه، ويهزمَ أعداءه.

يطمئنُّ المؤمنون المجاهدون الصادقون، ويتوكّلون على الله، ويثقون بوعْدِ الله، وأنّه معهم سبحانه بتأييده وعونه ورعايته، ولهذا يقولون للكافرين المعاصرين: لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ. . فمهما ملكتُم من أموالٍ وأسلحةٍ متطورةٍ متقدّمة، ومهما جندتُم من الجنود، وعقدتُم من التحالفات واستنقّرتُم من الناس، فلن ينفعكم هذا في النهاية!.

إنكم قد تهزموَنَ مسلمين ضعفاء، وقد تَنَجَّحُوا فِي احتلالِ بلاد، كما حصلَ مع اليهودِ في فلسطين، ومع الروسِ في الشيشان، ومع الأمريكان في العراق وأفغانستان، لكنْ مَنْ يضمنُ لكم الاستمرارَ فِي احتلالِ البلادِ واستعمارِها، ونهبِ خيراتها وثرواتها، واستعبادِ أهلها؟.

لن تستمرّوا في جرائمكم، وَإِنَّ يَوْمَ الْجِهَادِ والتحريرِ قادم، وعند ذلك لن تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ، لأنَّ اللَّهَ مع المؤمنين، فلا تنخدعوا باحتلالكم واستعماركم، لأنَّ العبرةَ إنما هي بالخواتيم، والعاقبةُ دائماً للمؤمنين المجاهدين الصادقين!!.

خسارة الكفار في حربهم للمسلمين:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٦-٣٧].

تحدث الآيتان عن حرب كفار قريش للمسلمين، ورصدهم الأموال لقتالهم، والثار لما جرى لهم في غزوة بدر.

قال الإمام ابن كثير في معناهما ومناسبة نزولهما: «قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري وغيره، قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجعوا منهزمين إلى مكة، ورجع أبو سفيان بالعر، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، في رجال من قريش، أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم ببدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب، ومن كانت له في تلك العير تجارة، وقالوا: يا معشر قريش: إنَّ محمداً قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حرب، لعلنا أن ندرك منه ثاراً، بمن أصيب منا! ففعلوا. . ففيهم أنزل الله الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما: نزلت الآية في أبي سفيان، ونفقت الأموال في أحد، لقتال رسول الله ﷺ.

وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر.

وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر الله أنَّ الكفار يُنْفِقُونَ أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ثم تكون عليهم حسرة وندامة. لأنهم أرادوا إطفاء نور الله، وظهور كلمتهم على كلمة الحق. . والله متم نوره، وناصر شرعه، ومعلن كلمته، ومظهر دينه على كل دين. جعل الله الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، ومن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه، ومن قتل منهم أو مات، فإلى الخزي الأبدي، والعذاب السرمدي. . .» [تفسير ابن كثير: ٣٠٨/٢].

الآية نازلة في جمع قريش الأموال، وإنفاقها على حرب الإسلام، والصد

عن سبيلِ الله، وذَكَرَتْ أَنَّهُمْ لَنْ يَنْجَحُوا فِي هَدْفِهِمْ، وَأَنَّهُمْ سَيُغْلَبُونَ وَيَنْهَزَمُونَ، وَسَيُخْسَرُونَ تِلْكَ الْأَمْوَالَ، وَيَنْدَمُونَ وَيَتَحَسَّرُونَ عَلَيْهَا.

وَوَقَعَ مَا جَزَمَتْ بِهِ الْآيَةُ، فَقَدْ خَسِرَتْ قَرِيْشٌ فِي مَعَارِكِهَا ضِدَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي أُحُدٍ وَالْخَنْدَقِ وَغَيْرِهِمَا، وَخَسِرُوا أَمْوَالَهُمُ الَّتِي رَصَدُوهَا وَأَنْفَقُوهَا، وَانْتَهَتْ الْحَرْبُ بِإِزَالَةِ الْكُفْرِ، وَفَتْحِ مَكَّةَ، وَإِسْلَامِ أَهْلِهَا.

كَذَلِكَ فَعَلَ الْيَهُودُ وَالْمَنَافِقُونَ فِي الْمَدِينَةِ، حَيْثُ رَصَدُوا وَأَنْفَقُوا الْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ، وَبَذَلُوا كُلَّ جَهْدِهِمْ لِلْقَضَاءِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، لَكِنَّهُمْ فَشَلُوا فِي مَسْعَاهُمْ، وَلَمْ يَخْرُجُوا إِلَّا بِخَسَارَةٍ تِلْكَ الْأَمْوَالَ الَّتِي أَنْفَقُوهَا.

وَالْآيَةُ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِالْكَافِرِينَ أَمْوَالَهُمْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّمَا هِيَ عَامَّةٌ، تَنْطَبِقُ عَلَى الْكُفَّارِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَتَجْزُمُ بِخَسَارَتِهِمْ وَحَسَرَتِهِمْ.

الأموال المعاصرة المرصودة لحرب الإسلام:

الْكُفَّارُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَوْضَحُ مَا يَكُونُ هَذَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، حَيْثُ مَنَحَ اللَّهُ الْكُفَّارَ الْمَعَاصِرِينَ أَمْوَالًا طَائِلَةً، امْتِحَانًا وَابْتِلَاءً لَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ اسْتَخْدَمُوا تِلْكَ الْأَمْوَالَ فِي الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَفِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

الدُّوَلُ الْغَرِبِيَّةُ الْغَنِيَّةُ، وَضَعَتْ الْكَثِيرَ مِنَ الْخَطَطِ وَالْبَرَامِجِ لِإِفْسَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَنَشْرِ الْإِنْحِلَالِ بَيْنَهُمْ، وَلِمُحَارَبَةِ الْإِسْلَامِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى جُنُودِهِ وَرِجَالِهِ، وَرَصَدُوا لَتِلْكَ الْخَطَطِ وَالْبَرَامِجِ الْمِيزَانِيَّاتِ الضَّخْمَةَ، الَّتِي تُقَدَّرُ بِعَشْرَاتِ الْمِلْيَارَاتِ مِنَ الدُّوَلَارَاتِ، وَقَدَّمُوا لَهَا مَا اسْتَطَاعُوا مِنَ الطَّاقَاتِ وَالْجُهُودِ، وَاسْتَخْدَمُوا فِيهَا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْلِحَةِ، وَحَقَّقُوا بَعْضَ الْإِنْجَازَاتِ!.

لَكِنَّهُمْ لَمْ يَتِمَكَّنُوا مِنْ تَحْقِيقِ هَدْفِهِمُ الْكَبِيرِ، فِي الْقَضَاءِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَنْ يَتِمَكَّنُوا مِنْ ذَلِكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا!.

إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ تَقْدِّمُ لَنَا وَعِدًا قَرَأْنِيًّا، بِانْتِصَارِ الْإِسْلَامِ فِي مَعْرِكَتِهِ مَعَ الْبَاطِلِ، وَبَعْدَ نَجَاحِ الْكُفَّارِ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، رَغْمَ إِنْفَاقِهِمْ أَمْوَالَهُمُ

الطائفة، وهذا الوعدُ القرآنيُّ يتحقَّقُ في كلِّ جولةٍ من جولاتِ المواجهةِ بين الحقِّ والباطل، وتتجلَّى فيه نتيجةُ كلِّ خطيةٍ من خطيِّ الكفار، وتَوَلُّ إليه كلُّ ميزانيةٍ ضخمةٍ من ميزانياتِ الكفار.

اسألوا الفرنسيين والإنكليز، عن مصيرِ ميزانياتهم الضخمةِ لحربِ الإسلام، والصدِّ عن سبيلِ الله، واسألوا اليهودَ والأمريكان، عن مصيرِ عشراتِ الملياراتِ من الدولارات، التي رَصَدوها لحربِ الإسلامِ والصدِّ عن سبيلِ الله! وانظروا إلى قوَّةِ الإسلامِ الزاحف، وتمكُّنه من قلوبِ وحياتِ كثيرٍ من المسلمين الصالحين.

كلما نقفُ على خطيةٍ شيطانيةٍ كافرةٍ لحربِ الإسلام، نتذكَّرُ هذه الآية، وكلِّما نطلعُ على ميزانيةٍ ضخمةٍ لتمويلِ تلك الخطية، نتذكَّرُ هذه الآية، ونعيشُ معناها، ونثقُ بالوعدِ القاطعِ المنجزِ الذي تُقدِّمه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

* * *

الوعد لقرآني في سورة التوبة

سورة التوبة من آخر ما نزل من القرآن، وكان نزولها في التعقيب على أحداث غزوة تبوك، في السنة التاسعة من الهجرة، وفيها تقرير الأحكام النهائية، للمواجهة بين الحق والباطل.

وقدّمت آيات السورة وعوداً قاطعة، لانتصار الحق وهزيمة الباطل، وفق سنة الله التي لا تبدل. من هذه الآيات:

وجوب قتال الكفار:

أولاً: قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣].

تُخبر الآية عن جهود الكافرين، على اختلاف الزمان والمكان، في محاربة دين الله، وعدم نجاحهم في تلك الجهود. وتقدم وعداً قاطعاً من الله بإظهار الإسلام على ما سواه من الأديان، رغم أنف الكافرين.

والآيتان في سياق آيات تتحدث عن المشركين، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، تُعرّف المسلمين عليهم، وتأمرهم بقتالهم، وتبين سبب اعتبار أهل الكتاب كافرين.

المشركون أعداء نجس، لا يجوز للمسلمين أن يأذنوا لهم بالاقتراب من المسجد الحرام. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس فلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كفرون أعداء، ويجب على المسلمين

قتالهم، حتى يُذِلّوهم، ويأخذوا منهم الجزية، وتُبين الآياتُ الأسبابَ التي تدعو المسلمين إلى قتالهم. قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

ورغم أنَّ أهل الكتاب يملكون كتباً من عند الله؛ التوراة والزبور عند اليهود، والإنجيل عن النصارى، إلّا أنهم ألّهُوا غيرَ الله، وزعموا لله ابناً، وعبدوا أبحارهم ورهبانهم. قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَن يُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠ - ٣١].

حرص الكفار على إطفاء نور الله بأفواههم:

وتنتقل الآيات من بيان فساد عقيدة المشركين وأهل الكتاب، وبيان كفرهم والدعوة إلى قتالهم، إلى الحديث عن عداوتهم لهذا الدين، وسعيهم للقضاء عليه: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾.

الكلام في الآية على أصناف الكفار الثلاثة، المذكورين في الآيات السابقة، وهم: المشركون، واليهود، والنصارى.

والمصدر من ﴿ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ﴾ في محل نصب مفعول به لفعل ﴿ يُرِيدُونَ ﴾. أي: يريدون إطفاء نور الله.

والمراد بنور الله: الإسلام. الذي ختم الله به الأديان، وجعله الدين الوحيد المقبول عنده حتى قيام الساعة، وهو نورٌ ينبئ للناس طريقهم، وهدى يهديهم إلى الحق، ويدلّهم على ما يريدُه الله منهم.

والكفار على اختلاف أصنافهم، يكرهون هذا النورَ الكاشفَ الهادي، ولذلك يحرصون على القضاء عليه.

صورة مضحكة للكفار في حربهم:

وترسم الآية صورةً ساخرةً لهؤلاء الكفار، في محاولاتهم اليائسة

المتعددة لحرب الحق: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾. . . إننا نتخيل بخیالنا منظرًا مضحكاً، نرى فيه مجموعة من الناس، لم يُعجبهم ضوء الشمس وقت الظهر، في يوم صيفي حار، وأرادوا القضاء على الشمس وضياؤها! ولكن كيف؟ صاروا ينفخون على ضوء الشمس بأفواههم، ويُخرجون الهواء من صدورهم، ويوجهونه للشمس لإطفائها!! .

وعندما نراهم على هذه الصورة المضحكة، نعجب من بلاهتهم وسذاجتهم، ولو أنَّ البشرية كلها قامت بالنفخ على الشمس لما أطفأتها، وأنفاسهم لا تمتد لأبعد من أمتار قليلة، فضلاً عن أن تمتد إلى الشمس! فلينفخوا ماشاؤوا أن ينفخوا!! .

وهكذا محاولات الكافرين جميعاً للقضاء على الإسلام، إنها لا تخرج عن هذه الصورة البلهاء الساذجة، ولن تكون محاولاتهم اليايسة أحسن من نفخات سُذَج لإطفاء ضوء الشمس! .

إننا نعترف أنَّ كفارَ هذا الزمان من اليهود والصليبيين والأمريكان، يشنون على الإسلام حرباً شرسةً فظيعةً عنيفة، يستخدمون فيها مختلف الأسلحة والأساليب والوسائل، ليس السلاح العسكري المتطور إلاً واحداً منها، ونعترف أنَّ هؤلاء الأعداء نجحوا في تحقيق بعض المكاسب في بلاد المسلمين . .

لكننا نَجْزُمُ أنهم لن ينجحوا في القضاء على الإسلام، ولن يتمكنوا من إطفاء نور الله، لا بأفواههم ولا بأيديهم ولا بأموالهم، ولا بغير ذلك. وهم في هذه الحرب الشرسة، كتلك المجموعة التي تنفخ على الشمس لإطفاء ضوئها.

يأبى الله إلا أن يتم نوره:

إنهم لن ينجحوا في ذلك لأنهم يحاربون الله، ويقفون أمام إرادته، وقد أراد الله إتمام نوره، وأبى إلا أن يفعل ذلك: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُسَمَّرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ .

وكل كلمة في هذه الجملة تؤكد على إتمام الله لنوره، وعبرت عن ذلك بالإباء، والإباء دالٌّ على الرفض والامتناع، فالله يرفض عدم إتمام نوره، ويمنع أعداءه الكافرين من تحقيق مرادهم ضده، ولذلك لن يحققوا ما يريدون.

والمراد بتمام نوره انتصار دينه الإسلام وانتشاره، وظهوره والتمكين له،
فالله متم نوره، وناصر دينه، حتى لو كره الكافرون ذلك، ولو حاولوا تعطيل إرادة
الله، فمحاولاتهم فاشلة، وكرهتهم لا قيمة لها، ولا وزن لهم ولا اعتبار عند الله،
فلا يهم كرههم أو رضاهم.

وجواب الشرط في قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ محذوف، دل عليه
ما قبله. والتقدير: ولو كره الكافرون إتمام النور وانتصار الدين، فله متم نوره
وناصر دينه.

الإسلام وحده دين الحق وما سواه باطل:

وتخبر الآية الثانية عن إظهار الإسلام، والتمكين له: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

أرسل الله رسوله محمداً ﷺ بالهدى، وقصر الهدى على دينه، فلا هدى في
غيره من الأديان والأفكار. وجعل الله دينه الإسلام هو الدين الحق، أي الدين
الوحيد المقبول عند الله، وهو الدين الحق لأنه محفوظ بحفظ الله، لا يمكن أن تمتد
إليه يد بشرية بالتحريف أو التزوير، وكل ما فيه حق وصواب، لأنه من عند الله.

وإذا كان الإسلام وحده هو الدين الحق، الذي يدين به المسلم لله، فإن
الأديان الأخرى كلها أديان باطلة، لأنها طالت بها يد التحريف والتبديل.

وبما أن الإسلام هو الدين الحق، وغيره أديان باطلة، فإن الإسلام سينتصر
عليها، لأن سنة الله تقرر انتصار الحق على الباطل.

وصف الإسلام في هذه الآية بأنه: ﴿دِينِ الْحَقِّ﴾ هو نفسه وصفه بآية سابقة
بأنه دين الحق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾، فأهل الكتاب
من اليهود والنصارى، يدينون بدين، أصله سماوي من عند الله، ولكنهم عدوا
على ذلك الدين فحرّفوه وغيّروه وبدّلوه، وبذلك صاروا يدينون دين الباطل،
وليس دين الحق.

دين الحق في قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾
هو نفسه دين الحق، المذكور في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ

وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. . . وهذه لفظة مقصودة في كتاب الله .

إظهار دين الله على الدين كله:

وقد قدَّرَ اللهُ الحكيمُ إظهارَ الإسلامِ على الدينِ كُلِّهِ : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

اللامُ في ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ لامُ العاقبة ، التي تدلُّ على العاقبةِ والنتيجة ، فعاقبةُ ونتيجةُ إرسالِ الرسولِ ﷺ بالدينِ الحق ، هي إظهارُ هذا الدينِ على الدينِ كله ، فالهاءُ في ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ تعودُ على الإسلامِ الدينِ الحق . والمرادُ بالدينِ كُلِّهِ أيُّ دينٍ آخر غيرِ الإسلام ، ويدخلُ فيه الأديانُ ذاتُ الأصلِ السماوي ، كاليهودية والنصرانية .

لقد كانت اليهوديةُ في الماضي السحيقِ دينَ الحق ، الذي أرسلَ اللهُ به رسالَهُ إلى بني إسرائيل ، ولما حَرَفَهَا اليهودُ بعدَ ذلك لم تُعَدِّ دينَ الحق ، وأصبحتُ بذلك التحريفُ الدينَ الباطل . . وكانت النصرانيةُ زمنَ عيسى عليه السلام دينَ الحق ، ولما حَرَفَهَا النصارى بعدَ ذلك لم تُعَدِّ الدينَ الحق .

سيُظْهِرُ اللهُ الإسلامَ الدينَ الحق ، على الدينِ الباطلِ كُلِّهِ ، ولو كرهَ المشركونَ المُتَّبِعُونَ للدينِ الباطل ، فكراهيتُهُمْ لا قيمةَ لها عندَ اللهِ ، فسواءَ كَرِهُوا أو رَفَضُوا ، وسواءَ وافقُوا أو عارضُوا ، فلا وزنَ لهم عندَ اللهِ .

وجوابُ شرطِ قولِهِ تعالى : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ محذوف ، دلَّ عليه ما قبله ، أي : لو كرهَ المشركونَ إظهارَ الإسلامِ على الدينِ كُلِّهِ ، فإنَّ اللهُ سيُظْهِرُهُ .

مظهران لإظهار الإسلام على غيره:

وإظهارُ الإسلامِ على الدينِ كُلِّهِ له مظهران :

المظهرُ الأول : مظهرٌ معنوي ، إظهارُ الإسلامِ فيه بمعنى وضوحِ حججهِ وأدلتهِ وبراهينه ، وقوةِ منطقهِ ، وصدقِ حقائقهِ وموضوعاتِهِ ومضامينهِ .

المظهرُ الثاني : مظهرٌ ماديٌّ ؛ يقومُ على انتصارِ الإسلامِ على الكفر ، وانتصارِ المسلمين على الكافرين في الجهادِ والقتال ، وفتحِ البلدانِ والممالك ، ودخولِ الناسِ في الإسلام .

وهذا وَعْدٌ صادقٌ من الله، يتعاملُ معه المؤمنُ بثقةٍ ويقين، ويعتقدُ أنه لا بدَّ من أن يتحقَّقَ، لأنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعادَ.

وقد تحقَّقَ المظهرانِ المذكورانِ لإظهارِ الإسلامِ على الدينِ كُلِّه، في عهدِ رسولِ الله ﷺ وأصحابِه، فكانت حجةُ الإسلامِ بالغةً، وآيأتهُ ساطعةً، وفتحُ اللهُ له البلادَ، في الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر وغيرها، ودخلت الشعوبُ المختلفةُ في هذا الدين . . وعاش المسلمون سعداءَ بالإسلامِ قروناً عديدةً.

ولكنَّ المسلمين في هذا العصرِ تخلَّوا عن الإسلامِ، ولم يلتزموا بما أمرهم اللهُ به، فذلَّوا وضعُفوا، وهزمهم الأعداءُ، وطمعوا في بلادهم وثرواتهم.

الإظهار الفكري المعاصر للإسلام:

ورغمَ انحسارِ الإسلامِ عن الوجودِ الماديِّ المؤثِّر، وعدمِ تحقُّقِ المظهرِ الماديِّ لإظهاره على الدينِ كُلِّه، بسببِ تقصيرِ المسلمين، وإخلالهم بشروطِ هذا التمكينِ المادي، فإنَّ الإظهارَ المعنويَّ متحقِّقٌ، ومستمرٌّ طيلةَ قرونِ التاريخِ الإسلامي.

لقد أظهرَ اللهُ الإسلامَ على الكفر، المتمثِّل في دينِ المشركين واليهودِ والنصارى، على عهدِ رسولِ الله ﷺ، وأيَّدَه بالحججِ والآياتِ والبراهين، كما أظهرَه على كُلِّ الأديانِ والأفكارِ والمبادئِ الكافرة، طيلةَ قرونِ التاريخِ الإسلامي.

وإننا نرى تحقُّقَ هذا الوعدِ القرآنيِّ الحق في عصرنا الحاضر، الذي شهدَ هجمةً يهوديةً صليبيةً شرسةً ضدَّ إسلامنا، ومع ذلك فإنَّ إسلامنا ظاهرٌ غالبٌ بفضلِ الله، ونوره منتشرٌ في مختلفِ البقاع، ولا يقفُ أمامَ منطقهِ المقنعِ أيُّ دينٍ أو مذهب، ويفتحُ اللهُ له قلوبَ كثيرين من الباحثين والمفكرين، في الشرقِ والغرب.

وإننا نوقنُ أنَّ المستقبلَ إنما هو للإسلام، وسيزيدهُ اللهُ إظهاراً دعويّاً وإعلامياً، وسيكونُ هذا تمهيداً لإظهاره الماديِّ القادم، حيث سيحكمُ الأرضَ كُلُّها من جديدٍ!

المسلمون يناولون إحدى الحسينيين:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

هذه الآية في سياق آياتٍ تتحدث عن المواجهة بين المسلمين والكافرين، من المشركين واليهود والمنافقين، تُعلمُ المسلمين كيف يتحدّون الأعداء ويواجهونهم، ويصمدون أمامهم، ويثبتون على الحق.

يشنُّ الأعداءُ حربهم الطاحنة على المسلمين بهدف قتالهم وقتلهم والتخلص منهم، ولكنَّ المسلمين لا يخافون منهم، ولا من حربهم، لأنَّهم يؤمنون بالقدر، ويوقنون أنَّه لا يقعُ بهم إلا ما قدره الله لهم أو عليهم، وأنَّ ما قدره الله واقعٌ لا محالة، ولذلك يرضون به، ويشكرون الله عليه إنَّ كان خيراً، ويصبرون عليه إنَّ كان شراً، ويصارعون الكفار بهذه الحقيقة. قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

بهذا الإيمان واليقين يواجهُ المؤمنون مؤامراتِ الكفار ضدَّ الإسلام، وتخطيطهم للقضاء عليه، ويأمرهم الله أن يقولوا لهم: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾. والتربُّص هو الانتظار!

أي: ماذا تنتظرون أن يصيبنا من مؤامرتكم ومخططاتكم وحروبكم؟ إنكم قد تنجحون في إيذاؤنا وقتلنا، ولا تظنُّوا أننا خسرنا بذلك، فنحن قد نلنا الحسنى، وهي الشهادة في سبيل الله، لأنَّ الشهداء ليسوا أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يُرزقون، والشهادة في سبيل الله أقصى أمانينا، ومن نالها نال الخير كله، ولم يخسر شيئاً، حتى لو فاتته الدنيا كلها.

وإذا نحنُ غلبناكم وهزمناكم وانتصرنا عليكم، كنا نحنُ الفائزين، وكنتم أنتم الخاسرين، وهذه حسنى نالها، حسنى النصر والظفر والتمكين في الأرض.

فأنتم لا تتربصون بنا إلا إحدى الحسينيين، حسنى النصر في الدنيا، أو حسنى الشهادة في سبيل الله، فأنتم أعداء، ولكن لا يصيبنا منكم إلا الخير بفضلِ الله، لأنَّ الله لا يريدُ بنا إلا الخير، حتى الضر والأذى خيرٌ لنا في النهاية.

ماذا ينتظر الكفار من المسلمين؟

لكن ماذا نتربصُ بكم؟ وماذا ينتظرُكم من السوء والشرِّ والعذاب؟ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ .

إنكم كفار، والكفرُ شرٌّ وخرابٌ وهلاكٌ لأصحابه، وليس للكفارِ عند الله إلا العذابُ والعقابُ والهلاكُ! وإنَّ سنَّةَ الله هي إهلاكُ الكافرين وتعذيبُهم .

نحنُ نتربصُ بكم أن يُصيبكم اللهُ بعذابٍ من عنده، إما بزلزالٍ أو بركانٍ، أو عاصفةٍ أو صاعقةٍ، أو طوفانٍ أو جَدبٍ ومَحَلٍ، أو ذهابِ أموالٍ وتدميرِ مزروعاتٍ، أو ارتفاعِ الأسعارِ وتفشي البطالة، أو انتشارِ الأمراضِ والهمومِ والآلامِ والأحزان، أو أيِّ صورةٍ من صورِ العذابِ لا تخطرُ ببالكم .

وإما أن يعذبكم اللهُ بأيدينا، بأن يُقدَّرَ نشوبُ الحربِ بيننا وبينكم، ويوقعَ فيكم القتلى والجرحى والدمارَ والهلاكَ، وينصرنا عليكم! .

إنَّ المستقبلَ ليس لكم، لأنَّ الكفرَ لا يأتيكم إلا بالشرِّ والعذاب، وإنه ينتظرُكم مستقبلٌ مظلم، مليءٌ بالعذابِ والضَّرِّ! .

ويقولُ المؤمنون للكافرين: ﴿فَرَبِّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ : أي : تَرَبَّصُوا بنا إحدىِ الحسنيين، النصرَ أو الشهادة، فالمستقبلُ لنا، وفيه التمكينُ لإسلامنا، ونحنُ معكم متربصون، ننتظرُ أن يأخذكم اللهُ بأحدِ العذابين، إما عذابٌ من عنده، وإما عذابٌ بأيدينا .

تحذِي الكفار بأن المستقبل للمسلمين:

وهذا التحذِي للكافرين يدلُّ على أنَّ المستقبلَ المشرقَ للإسلام والمسلمين، والمستقبلَ الأسودَ المظلمَ للكافرين، كما يدلُّ على النظرةِ الآملَةِ التي ينظرُها المؤمنون للمستقبل، وهي نظرةٌ مليئةٌ بالثقةِ واليقينِ والأملِ، فهم يوقنون أنه لا مستقبلٌ لأعدائهم الكافرين، وإنما هو لهم، فهم مفلحون فائزون، رابحون كاسبون، لا ينتظرُهم عندَ الله إلا الخير .

وتقدِّمُ الآيةُ وعداً حقاً للمسلمين، ووعداً وتهديداً للكافرين . . وقد حقَّقَ اللهُ وُعدَهُ للمسلمين السابقين، وأوقعَ عقابه بأعدائهم الكافرين .